الإمام الشافعى

فقيهاً .. ومحدثاً

رمضان أحمد عبد ربه عصفور
إمام وخطيب ومدرس أول
مسجد السيدة نفيسة رضى الله عنها

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة . تليفون ٣٩١٧٤٧٠

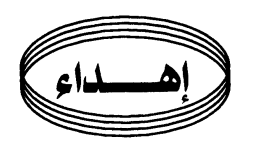
الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

أميرة للطباعة

٥ شارع محمود الخضري - عابدين

ت: ٣٩١٥٨١٧ محمول: ٠١٠١٤٥٦٠٣٧



إهـــداء

سيدى يا رسول الله :
أرفع إليكم المسيرة المباركة
لعالم قريش الذى ملأ طباق الأرض علما
إنه : محمد بن إدريس الشافعى
رضى الله عنه

المؤلـف
رمضان عصفور

«إذا وجدتم فى كتابى خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بها ودعوا ما قلته»
الإمام الشافعى





تمهيـــــد

الحمد لله رب العالمين، نحمده ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. إنه من يهدى الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى لـــه .

والصلاة والسلام على الرحمة المهداة سيدنا محمد ﷺ .

ورضى الله تعالى عن صحابته وآله الطيبين الطاهرين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد : لقد حفظ الله تعالى الإسلام بأئمة المسلمين وعلمائهم خلفاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (العلماء ورثة الأنبياء) .

لذا فإنه يسرنى أن أقدم للمكتبة الإسلامية هذه الدراسة المتواضعة عن إمامنا سيدنا الإمام : محمد بن إدريس الشافعى المطلبى القرشى المكى ابن عم رسول الله ﷺ ناصر سنته الشريفة . وناشر أعلام طريقته الحنيفية السمحة .

والإمام الشافعى رضى الله عنه قد كتب عنه الكثير وسيظل يكتب عنه الكثير . وهذا أمر هو به جدير . ومن مثل الإمام الشافعى يحظى بهذا وهذا حقه لأنه قد أثرى الحياة العلمية الإسلامية بفيض علمه كما ساهم فى الحركة الفكرية برجاحة عقله وثاقب فكره، يقول شيخ الإسلام أبو زكريا : يحيى بن شرف النووى رحمه الله تعالى فى كتابه «التهذيب» [1] كان الشافعى رحمه الله من أنواع المحاسن بالمحل الأعلى والمقام الأسنى لما جمعه الله له من الخيرات . ووفقه له من جميل الصفات . وسهله عليه من أنواع الكرامات فمن ذلك شرف النسب لاجتماعه مع رسول الله ﷺ فى جده : عبد مناف .

ومن ذلك شرف المولد والمنشأ فإنه ولد بالأرض المقدسة – بغزة من أرض

---

(١) توالى التأسيس لابن حجر : ٥٥ .

فلسطين – ونشأ بمكة . ومن ذلك أنه أخذ عن الأئمة المبرزين . وناظر الحذاق المتقنين . ووجد الكتب فى العلوم قد مهدت . والأحكام قد قررت فانتخب وتخير وحقق وحبر ولخص طريقة جامعة للنقل والنظر . ولم يقتصر كما اقتصر غيره . مع ما رزق من كمال الفهم وعلوّ الهمة والبراعة فى جميع الفنون . والمهارة فى لغة العرب . وإتقان معرفة كتاب الله تعالى وسنة رسوله – صلى الله تعالى عليه وآله وسلم – ورد بعض ذلك إلى بعض حتى أذعن لفضله المخالف والمفارق ، واعترف بتقدمه المقارن والموافق ، فبارك الله تعالى فى علومه الباهرة . ومحاسنه المتظاهرة . إلى أن انتشرت تصانيفه وتلاميذه وكثر الآخذون لطريقه بعده حتى ملأ علمه طباق الأرض كما بشر به الصادق المصدوق – صلى الله عليه وآله وسلم – قال محمد ابن الحسن : « إن تكلم أصحاب الحديث يوما فبلسان الشافعى » وقال أحمد ابن حنبل : « ما أحد من أهل الحديث مس محبرة ولا قلما إلا وللشافعى فى رقبته منة » وقال الزعفرانى : « كان أصحاب الحديث رقودا حتى أيقظهم الشافعى أ . هـ .

وروى أبو داود الطيالسى فى مسنده : قال رسول الله ﷺ : « عالم قريش يملأ طباق الأرض علما » [1] .

وروى البزار قال : سمعت عبد الملك بن عبد الحميد الميمونى يقول : كنت عند أحمد بن حنبل فجرى ذكر الشافعى – فرأيت أحمد يرفعه وقال : روى عن النبى ﷺ يقول : « إن الله تعالى يقيض فى رأس كل مائة سنة من يعلم الناس دينهم » .

قال : فكان عمر بن عبد العزيز فى رأس المائة الأولى وأرجو أن يكون الشافعى على رأس المائة الأخرى » .

وروى البيهقى عن أبى بكر المروزى قال : قال أحمد بن حنبل « إذا سئلت عن مسألة لا أعرف فيها خبرا قلت فيها بقول الشافعى لأنه إمام عالمٌ من قريش » .

---

(١) وقد جمع طرقه العلامة ابن حجر العسقلانى فى كتابه « لذة العيش بجميع طرق حديث الأئمة من قريش » كما ذكر فى هامش ص ٥٥ من توالى التأسيس .

لقد كان إمامنا الشافعى رضى الله عنه يطلب دائما الاقتداء برسول الله ﷺ كما كان يهتدى بسنته الشريفة جمعا وتمحيصا ودرسا . ودفاعا وانتصارا فلم تحظ السنة بالدفاع عنها من أحد قبل الشافعى أو بعده بمثل ما دافع الإمام عنها . ولم يعمل السنة فى الفقه والتشريع أحد من الأئمة مثل ما فعل الشافعى رضى الله عنه . فقد أسس الفقه الشافعى على الكتاب والسنة، فحقق فى مجال الفقه والتشريع ثروة علمية ضخمة أبهرت معاصريه فترك الكثير منهم مذهبه وانضم إلى حلقة الإمام إعجابا بسعة علمه ودقة استنباطاته وحلاوة منطقه . وقوة إدراكه وإحاطته بكل العلوم والأدوات التى يستخدمها فى اجتهاده كما أنه كان العالم المؤمن الصادق الواثق . فلم تأخذه فى الله لومة لائم . ولم يجامل أحدا فى فتوى . ولم ينافق أحدا من ذوى السلطلة أو ممن تربع على كرسى الأستاذية .

ناظر علماء أعلاما فى ثقة . فكانت له الغلبة، مع أنه كان يتمنى أن لا يهزم محاوره ومناظره .

أحب العلم والعلماء فكان قريبا من قلوب الناس . كتب وصنف وأملى على تلاميذه فأثار إعجابهم . وترك ثروة علمية ضخمة أضافت الجديد والجليل للمكتبة الإسلامية فكان منهلا عذبا للعلماء فى عصور الإسلام المتتابعة فسجل التاريخ فى أنصع صفحاته أسماء علماء لهم دورهم البارز فى الحياة العلمية والفكرية . تخرجوا جميعا من مدرسة الشافعية نذكر منهم على سبيل المثال : الأئمة والعلماء من غير تلاميذه الذين عاصروه وسمعوا منه وكتبوا عنه وهم : ابن جرير الطبرى، أبو إسحاق الاسفراييني، البخارى، مسلم . النسائى . ابن خزيمة، إمام الحرمين . الجوينى . العز بن عبد السلام . الغزالى . الرافعى . النووى . البيهقى . القفال . ابن كثير، تقى الدين السبكى . ابن حجر العسقلانى . ابن حجر الهيثمى . شهاب الدين الرملى، الماوردى جلال الدين السيوطى . شمس الدين السيوطى . فهؤلاء وغيرهم كثير من العلماء الأعلام كلهم يدينون بالولاء للإمام الشافعى ومدرسته الفقهية العظيمة .

كما كان الشافعى رضى الله عنه يتحلى بحميد الصفات . كريما فى سخاء .

ومتواضعا فى عزة وكرامة . لين الجانب . عطوفا ودودا يعفو ويصفح . كما كان صابرا محتسبا وكان عابدا زاهدا تقيا ورعا . قانعا راضيا . صبورا على البلاء والغربة ولعل هذه الصفحات تبين لنا فى وضوح عن جهود تلك الشخصية العظيمة التى انتشر ذكرها وذاع أمرها فى ربوع العالم الإسلامى.

وأرجو أن أكون موفقا بفضل الله ومعونته . فأحظى بالرضا فى الدنيا وفى الآخرة، كما أرجو لقارئه المثوبة والأجر من العلى الكبير.

وصلى الله تعالى وسلم على النبى المصطفى والرسول المجتبى، وآله وصحبه الكرام، ورضى الله عن إمامنا الشافعى وسائر إخوانه من الأئمة الأعلام والعلماء العاملين .

* * *

القاهرة - (حدائق القبة)
أول ذى الحجة ١٤٢٠ هـ
الثلاثاء ٧ / ٣ / ٢٠٠٠م

المؤلـــف
رمضان أحمد عبد ربه عصفور
إمام وخطيب ومدرس أول مسجد
السيدة نفيسة رضى الله عنها

الفصل الأول

عصر الإمام الشافعى

إن للبيئة – كما للوراثة – أكبر الأثر فى حياة الإنسان . سواء فى ذلك البيئة الطبيعية أو السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية . فالإنسان ابن بيئته وهو وليد هذين المؤثرين – البيئة والوراثة – إذ على عاتقهما تكون التربية الجسمية والعقلية والأخلاقية والعلمية والثقافية .

وقد تحكم عامل البيئة فى الإنسان لدرجة كبيرة . فهو يرث عاداته وتقاليده وثقافته من البيئة التى يعيش فيها . إن خيرا فخير وإن شرا فشر وهكذا تتشكل المجتمعات البشرية من الأفراد فتصلح بصلاحهم وتفسد بفسادهم . فالإنسان يتأثر بمجتمعه ويؤثر فيه .

ولا يخرج عن سنن المجتمعات وأنظمتها إلا القلة من الأفراد سلبا أو إيجابا . فالأول : ضعف . والثانى : قوة لأنه داعية تقدم ورفاهية فالأنبياء والرسل وخلفاؤهم والمصلحون وأتباعهم خارجون عن سنن مجتمعاتهم لأنهم يسلكون مناهج دينية أو أخلاقية أو اجتماعية أو سياسية تدعو إلى إصلاح المجتمعات وغرس العقيدة الإيمانية الصحيحة فى قلوب الناس .

وفى تاريخ الإسلام قامت حركات إصلاحية عديدة وبرز علماء أعلام قاموا بدعوات تجديد وإصلاح لمسيرة الدعوة الإسلامية من أمثال : الخليفة العادل : عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، والإمام الشافعى رضى الله عنه والإمام الغزالى رضى الله عنه والإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى وغيرهم كثير فالإمام الشافعى رضى الله عنه قد كان عالما طموحا وإماما تقيا ورعا أثرى الحياة العلمية . تنقل بين البلاد والأمصار طالبا المزيد من العلم والمعرفة وناشرا ما فى جعبته من العلوم والمعارف في تلك البلاد – بلاد الحجاز والعراق واليمن ومصر – التى رحبت به والتف حوله علماؤها .

لقد كان إماما مجددا وعالما مصلحا وعابدا تقيا زاهدا انتقل إلى ربه عز وجل بعد أن ترك خلفه ثروة علمية ضخمة أبهرت العلماء والمجتهدين فى علوم العقيدة والفقه وأصوله والحديث وعلومه والقرآن وأحكامه ولا عجب فهو عالم قريش الذى ملأ طباق الأرض علما.

وقد شرفت مصر وترابها بالإمام الذى قدر الله له أن ينام فى أحضان ثراها وقد أسس بها مدرسته الفقهية الرائعة وما زال تلاميذ هذه المدرسة الشافعية ينتشرون فى ربوع مصر؛ مدنها وقراها ونجوعها رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام والعلم خير الجزاء.

* * *

الحالة السياسية والاجتماعية

ظلت الدولة الإسلامية دولة موحدة فى المشرق وفى المغرب فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين. فقد كان الخليفة بالمدينة أو بدمشق أو ببغداد – فى العصر العباسى الأول – هو الذى يحكم الدولة ويتولى شئون الحكم فيها يعاونه عماله على الأمصار والبلدان.

وقد كانت الأمور تسير سيرها الطبيعى إلا من بعض المنغصات ولكنها لم توقف المسيرة المباركة لحركة الدولة الإسلامية.

وفى أواخر عهد الأمويين قامت حركات ثورية مناوئة لخلفاء بنى أمية انتهت بسقوط الدول الأموية. وقيام الدولة العباسية (١٣٢ هـ).

وتولى الخلافة أبو العباس: عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس الملقب بالسفاح الذى كان قاسيا فى فترة ولايته.

وقد بالغ العباسيون فى إيذاء بنى أمية وأنصارهم إيذاء لم يذكر التاريخ مثله وكأنهم بذلك قد أخذوا بثأر أهل البيت النبوى. إذ ارتكب العباسيون من أعمال القسوة ما أرضوا به مساعديهم وأنصارهم من رجال الفرس وكان لهذه الشدة أثرها الفعال فى تفتيت وحدة الأمة الإسلامية وكانت البداية هى قيام رجل من بنى أمية هو أكبرهم عزما وتصميما ببناء ملك عظيم وقيام دولة أموية ببلاد الأندلس. إنه عبد الرحمن ابن معاوية (الداخل) الذى أسس الدولة الأموية بالمغرب سنة ١٣٨ هـ، وهكذا انقسمت الدولة الإسلامية إلى دولة بنى العباس بالمشرق ودولة بنى أمية بالمغرب. وكان هذا أول انقسام يقع فى الدولة الإسلامية ولكن تحول الخلافة إلى بنى العباس لم يرق فى أعين بنى عمهم من أولاد على ابن أبى طالب كرم الله وجهه. الذين يرون أنفسهم أحق بالخلافة من أى بيت آخر فصمموا على أن يثأروا لأنفسهم أو يكدروا صفوها لخصومهم. وكان أول الثائرين من العلويين هو: محمد بن عبد الله بن الحسن وقد كاد ينال من المنصور

غرضه، ولكن الله لم يرد ذلك فوقع فى أخطاء وسوء مصادفات قضت عليه بالمدينة وعلى أخيه ابراهيم بين البصرة والكوفة.

استقر الأمر للدولة العباسية بالمشرق ومشت قدما إلى الإمام حتى كانت فتنة الأمين والمأمون التى كانت إيذانا بتمزيق وحدة المسلمين، ثم وجدت عوامل أخرى جعلت عقد الوحدة ينتثر وتظهر فى رقعة الوطن الإسلامى الأكبر دول صغيرة هنا وهناك. وكان لذلك أثره القوى فى مركز الخلافة وضعف نفوذ الخلفاء وسكون ريحهم.

وقد كان من جراء ذلك قيام الدولة الصفارية والدولة السامانية والدولة البويهية فى فارس وخراسان والدولة الطولونية فى مصر والشام ومن بعدها الدولة الإخشيدية والدولة الحمدانية فى حلب وشمال الشام ودولة الأغالبة في تونس وغيرها من بلدان افريقيا.

ولكن هذه الدول لم تقطع صلاتها بالخلافة العباسية بل كانت تدين لها بالولاء والطاعة ولكنها كانت إيذانا بفرقة الأمة وتقسيمها إلى دويلات، وقد كانت مسيرة الدولة العباسية تتأرجح بين الضعف والقوة وسبب هذا التأرجح أن الدولة العباسية كانت ترتكز على دعامتين:

الأولى: العصبية العربية على يد من والاهم من العرب.

الثانية: العصبية الفارسيّة على يد رجال من الفرس كانوا القوة المساعدة للعباسيين على قيام دولتهم.

ولن ننسى هذا الدور الكبير الذى قام به أبو مسلم الخراسانى فى نقل الخلافة إلى بنى العباس.

وقد أخطأ الخلفاء العباسيون الذين كانوا إذا رابهم أى شئ من أحد الفريقين استعانوا عليه بالفريق الآخر مما أحدث فجوة كبيرة من الفرقة والتصدع فى جدران الدولة.

وقد تجلى ذلك فى الصراع الذى كان بين الخليفة المأمون بن الرشيد – الذى كانت تربيته فارسية محضة – فانتصر على أخيه الأمين بهؤلاء الفارسيين، ولما

ولى أخوه المعتصم استجد لنفسه عصبية أخرى من مماليك الاتراك الذين استكثر منهم. وبذلك كان القضاء المبرم على سلطان الدولة العباسية [1].

وخضع العباسيون خضوعا تاما لهؤلاء المماليك الذين وضع بذورهم الخبيثة: المعتصم فكانت لهم الكلمة النافذة فى حكم البلاد وأبعد العرب عن المناصب الكبرى فى الدولة.

هذا. والأمة الإسلامية لم تعرف النظام الطبقى للمجتمع إلا فى ظل الدولة العباسية. فهناك طبقة الحكام والأمراء وطبقة العلماء وطبقة العامة.

لقد كانت الطبقة الأولى تتمتع بكل الامتيازات الكبرى فتتولى المناصب والوظائف العليا فى الدولة. وتعفى من كافة أنواع الضرائب الواجب دفعها لبيت المال.

وأما طبقة العلماء فقد كان مركزها يتارجح بين الفينة والأخرى فتارة تغدق عليهم الدولة بالأموال. وتارة يحرمون وثالثة يعذبون وينفون. ومحنة الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه وغيره من علماء أهل السنة خير دليل على ذلك.

وأما الطبقة الكادحة فهم محرومون من مزاولة حقهم السياسى وعلى كاهلهم يقع عبء دفع الضرائب والعشور.

ولم تأت سنة ٣٣٠ هـ ولم يبق من الخلافة إلا الاسم. وتفتت وحدة المسلمين وتفرقت كلمتهم وذهب سلطان العرب إلى الأمم الأخرى كالفرس والديلم والترك والبربر. مما كان له أثر كبير وسبب مباشر فى تعدد الدويلات الإسلامية الضعيفة التى أودت بحياة الأمة الإسلامية إلى عصور التخلف والظلام مما جعل الاستعمار ينال منها ويقسمها تركة مباحة للدول الاستعمارية. التى نهبت خيرات المسلمين وتحكمت فى ثرواتهم وفى أوضاعهم القومية والسياسية حتى غدت الأمة الإسلامية ضعيفة هزيلة ذليلة لا حول لها ولا قوة وها هى اليوم بكل دولها أمة عاجزة ودول نامية فى وسط عالم مملوء بالوحوش والذئاب الضارية، قتل هنا، وتشريد هناك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون.

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامى ١٧٣ الخضرى.

الحالة الحضارية والعلمية

إذا حدثك محدث عن العصر الذهبى للحضارة الإسلامية فإنه سيذكر لك. ما كان من أمرها مقرونة بتاريخ بنى العباس بن عبد المطلب.

فالبرغم من تردى الأوضاع والحياة السياسية والاجتماعية فى بعض الأحيان فى الدولة العباسية إلا أن الخلفاء العباسيين كانوا ينشطون الحركة العلمية والثقافية. ولم ترتق الحضارة الإسلامية وتتطور إلا فى عهد العباسيين أكثر مما كانت عليه فى عهد بنى أمية.

فلقد أسس أبو جعفر المنصور الخليفة العباسى الثانى مدينة بغداد وجعلها حاضرة البلاد الإسلامية، وقد تأنق فى بنائها لدرجة جعلتها تفوق فى ذلك العصر جميع مدن العالم.

ولما أتم المنصور بناءها فتح أبوابها للعلماء من كل جانب من جوانب هذا العالم حتى زيد عدد سكانها عن المليونين. ولم ينته عصر المنصور حتى أصبحت بغداد عروس المدائن وسيدة البقاع فى العالم كله.

وقد تعاون فى بنائها العقل العربى والعقل الفارسى والرومى فأخذت من كل عقل ما كمن فيه من قدرة الإبداع.

وقد كان من مظاهر هذه الحضارة اهتمام العباسيين بالموارد الاقتصادية* اهتماما بلغ حد النهاية فنظموا الزراعة بشق الترع والمصارف وإقامة القناطر واهتمت الحكومة بفلاحة البساتين التى قامت على دراسة عميقة بفضل انتشار المدارس الزراعية التى ساعدت على دراسة أنواع النباتات وصلاحية التربة لزراعتها.

وكذلك اهتم العباسيون بالصناعة فاستخرجوا الفضة والنحاس والرصاص والحديد مما ساعد على نمو بعض الصناعات المعدنية كما استخرجوا المرمر والكبريت والملح.

واشتهرت الصناعة الخاصة بالصابون والزجاج والورق فى عدة مدن وندب لها الأساتذة والصناع من مصر وغيرها.

وتفوق المسلمون فى صناعات المنسوجات الحريرية والسجاجيد.

وقد ارتقت هذه الصناعات ارتقاء محمودا لم يعهد من قبل، ولم يهمل العباسيون التجارة فاهتموا بأمرها وتسهيل سبلها فانشأوا الآبار فى طريق القوافل التجارية. وأنشأوا المنائر فى الثغور وأقاموا ببلاد الشام أسواقا كثيرة لأنواع التجارات فى طول الشوارع على الجانبين.

ولقد بلغ من عنايتهم بشئون التجارة أن اهتم هارون الرشيد بمراقبة الأسواق وأسعار السلع والإشراف على الموازين والمكاييل منعا للغش مما كان له أكبر الأثر فى ترقية التجارة ونشاطها.

وبذلك استطاع العرب غزو الأسواق التجارية فى أنحاء الشرق والغرب ودون أن يجدوا عقبات فى طريقهم.

هذا ما كان من أمر الموارد الاقتصادية للدولة العباسية مما كان له أثر واضح فى ارتقاء المسلمين من الناحية الفكرية ارتقاء لم يعرفه الشرق أو الغرب من قبل. فى ثقافته ونهضته العلمية والحضارية فقد كان عامة الشعب من الخليفة إلى الرعاع طلابا للعلم أو أنصارا للأدب. وليس أدل على ذلك من رحلاتهم العلمية التى تحدث عنها تاريخ العلم والثقافة كثيرا.

وترجع أهم أسباب التقدم العلمى والثقافى إلى عاملين أساسيين هما:

أحدهما: الموالى، لقد دخل فى الإسلام عدد عظيم من الفرس والروم والمصريين فهم ممن أسروا صغارا وتربوا تحت كنف سادتهم من المسلمين فعرفوا ما عند سادتهم من العلوم والمعارف الإسلامية والتى مصدرها الكتاب والسنة. ومنهم من أسلم كبيرا وكان له حظ من العلوم الشرعية والعلوم الدنيوية.

ولقد ارتقى هؤلاء الموالى ثقافيا وعلميا حتى كان لهم مكان مرموق فى

الثقافة الإسلامية . إذ كان منهم القراء الكبار والمحدثون العظام وعلماء اللغة والآداب الفحول مشاركين في ذلك إخوانهم العرب .

وبذلك تلاحقت الأفكار ونضجت العقول وأصبح هؤلاء شركاء في الدولة، شركاء في السياسة شركاء في العلم والمعرفة .

وقد مكنهم ذلك من القيام بالدور الكبير الذى قاموا به فى نقل الخلافة الإسلامية إلى بنى العباس .

وثانيهما : حركة التأليف والترجمة :

لقد اتسعت حركة التأليف والترجمة فى العصر العباسى الأول فشملت كل أنواع العلوم العقلية والنقلية وكذا الفلسفة بكل فروعها .

ولقد بذل العباسيون الجهد الكبير فى الكشف عن مكنون الثقافتين الفارسية واليونانية وكان أكثر الخلفاء العباسيين عناية بهذا الأمر أبو جعفر المنصور والمأمون بن الرشيد وخاصة فى مجال الترجمة وكان الأخير مغرما بالآداب اليونانية وبآراء ارسطاطا ليس على وجه الخصوص . فأرسل البعوث إلى القسطنطينية لإحضار الكتب فى الفلسفة والهندسة والطب والموسيقى فانتشرت هذه الكتب بين المسلمين انتشارا عظيما .

وبذلك استطاع المسلمون أن يخلطوا الثقافة العربية الإسلامية بالثقافات الأخرى .

ومن أجل ذلك أنشأ العباسيون المدارس المختلفة واهتموا بشئون التربية والتعليم مما شجع الكثيرون على تربية أبنائهم فى هذه المدارس المختلفة العلوم والفنون كما أنشأ العباسيون المكتبات الضخمة المليئة بأنواع الكتب العظيمة فى كافة أنواع العلوم والفنون والفلسفة وعلوم الزراعة والآداب والتاريخ والجغرافيا وغير ذلك .

ولقد أشاد (جوستاف لوبون) بتفتق ذهن العرب ودقتهم فى البحث عن الجديد فقال نقلا عن (سديو) قوله إن أهم ما اتصفت به جامعة بغداد منذ البداية

هو روحها العلمية الصحيحة التى كانت سائدة لها فى استخراج المجهول من العلوم والعلل من المعلولات وفى عدم التسليم بما لا يقوم على التجربة والترصد . أ . هـ .

لقد كان لكل هذا أثره البالغ فى ارتقاء الفن الإسلامى فى البناء والزخرفة والهندسة والمصنوعات المنسوجة والنحت والتحف المعدنية والخزفية، يقول الأستاذ محمد غنيم مشيدا بعظمة هذه الدولة : وكانت دولة كثيرة المحاسن جمة الفوائد . أسواق العلوم فيها رائجة . وبضائع الآداب فيها رائجة وشعائر الدين فيها مقامة . والخيرات مدفقة والحرمات مرعية والثغور محصنة قوية مع كثرة ما حصل فى أوائلها من الاضطرابات وسفك الدماء ولم تزل آخذة فى القوة والرفعة إلى أن سامت السماء علوا وشرفا وبقيت كذلك حتى كانت أواخرها فاضطربت واضمحل حالها . أ هـ.

وإذا نظرنا إلى باقى البلاد الإسلامية فى هذا العصر نجد فى الغرب جزيرة الأندلس حيث مدينة قرطبة التى جعلها الأمير عبد الرحمن بن معاوية مؤسس دولة بنى أمية فى الأندلس تضارع بغداد، ولقد ارتقت الحضارة العربية فى بلاد الأندلس فى هذا العصر ارتقاء عظيما فى كل الفنون وعن طريق الأندلس انتقلت الثقافة العربية الإسلامية فيما بعد إلى أوروبا فايقظتها من سباتها العميق فهذا أحد المستشرقين يقول معترفا بفضل العرب على أوربا : إنا لمدينون للعرب كثيرا وبنجاحهم وسموهم.

تحرك أهل أوروبا إلى إحراز المعارف واستفاقوا من نومهم العميق ونحن مدينون لهم بترقية العلوم الطبيعية والفنون النافعة وكثير من المخترعات التى نفعت أوروبا علما ومدنية ونجد كذلك مدينة القيروان التى ورثت عظمة المدن الإفريقية والرومانية وانتقل إليها جمالها وبهاؤها ونجد فيما بعد ذلك بسنين مدينة الفسطاط حاضرة مصر وقد جمع مسجدها الأعظم حلقات العلماء والطلاب على اختلاف أشكالهم وألوانهم ومذاهبهم.

وبعد، – فقد كان هذا العصر عصر رفاهية وقوة وعظمة حضارية وعلمية مما كان له أثر كبير فى أن بسط المسلمون أيديهم على معظم أنحاء المعمورة وقت أن كان الظلام مسيطرا على أوروبا وغيرها.

كل هذا قد بلغ أشده فى هذا الدور، حتى صارت الرقعة الإسلامية تزهو بحضارتها على كل حضارة سبقتها لأنها خلاصة حضارات مختلفة، ولامراء فى أن لذلك أثر كبير فى الفقه لأنه يمكن القائم من وضع المسائل المختلفة ليستنبط الجواب عليها.

* * *

حركة التشريع الإسلامى فى هذا العصر

لقد احتلت العلوم الشرعية مركزا هاما فى العصر العباسى، وسارت فى تقدم مستمر جنبا إلى جنب فى سرعة منع التقدم الحضارى والثقافى الذى يسير فى قوة فنية رائعة ويخطو خطوات واسعة وعلى نطاق أوسع حتى أصبحت العلوم الشرعية تكون وحدة علمية مستقلة بذاتها لها مميزاتها التى تميزها عما عداها من العلوم الأخرى.

وكان لاهتمام العباسيين بالناحية الدينية أكبر الأثر فى اتساع دائرة التشريع الإسلامى. كما كان لتشجيعهم لأهل الرأى فى التشريع الإسلامى أثره، إذ أن العباسيين قد تشبعوا بالعلوم العقلية والثقافات الأجنبية العلمية والفلسفية التى تعتمد على الرأى والتى أغرموا بها حتى أن أحدهم وهو المأمون كان يناصر أهل الرأى على أهل الحديث.

وقد كان يحمل أهل الحديث على تغيير رأيهم فى ذلك. والذى يطلع على كتابه الذى أرسل به إلى محافظ بغداد فى شأن مقدمى أهل الحديث. يرى كيف كان فكر أهل الكلام فى أهل الحديث. فإنه سماهم بأسمائهم واحدا واحدا وطعن فى أفكارهم أو فى أخلاقهم [1].

ومن أمثلة ما كان بين أهل الحديث وأهل الكلام من خلاف هو مسألة خلق القرآن، التى أوذى فى سبيلها الكثير من العلماء وعلى رأسهم الإمام أحمد بن محمد بن حنبل رضى الله عنه.

وعلى كل حال فقد كان لهذا العصر أكبر الفضل فى إبراز ثلاثة عشر مجتهدا إلى الوجود دونت مذاهبهم وعمل بآرائهم واعترف لهم المسلمون بالإمامة والزعامة فى الفقة الإسلامى، وسائر العلوم الشرعية حتى أصبحوا هم القدوة والقادة.

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامى ١٧٧.

كان سفيان بن عيينة بمكة ومالك بن أنس بالمدينة والحسن البصرى بالبصرة وأبو حنيفة وسفيان الثورى بالكوفة والأوزاعى بالشام والشافعى والليث بن سعد بمصر وإسحاق بن راهويه بنيسابور وأبو ثور وأحمد بن حنبل وداود الظاهرى وابن جرير ببغداد.

فمن مذاهب هؤلاء ما زال موجودا يدرس ويعمل به المسلمون ومنها ما ضاع واندثر وذلك لعدم وجود تلاميذ لهم يهتمون بالمحافظة على مذاهب أئمتهم وشيوخهم. يقول الشيخ محمد السايس رحمه الله: وكان إلى جانب هؤلاء كثير ممن لم يسعدهم الحظ بانتشار مذاهبهم واعتناق جمهرة من الناس لها وبالجملة فقد كانت حركة علمية واسعة النطاق فى سائر الأقطار [1].

وكان مركز التشريع فى هذا العصر ببغداد ومصر والكوفة والبصرة ومكة والمدينة ودمشق ومرمر ونيسابور والقيروان وقرطبة، لقد قامت فى هذه الأمصار نهضة علمية مباركة كان لها أثر كبير فى الفقه الإسلامى وسائر العلوم الشرعية حيث كان الاجتهاد على أشده فى مجال هذه العلوم.

● عوامل نشاط التشريع الإسلامى:

إن التشريع الإسلامى قد وصل إلى ما وصل إليه من درجات الرقى والكمال فى هذا العصر لأسباب كثيرة تذكر منها:

(١) عناية الخلفاء العباسيين بالفقه الإسلامى وبالفقهاء عناية كبيرة. إذ غلبت عليهم النزعة الدينية حتى صبغوا كل مظاهر الدولة بصبغة الدين.

ومن أمثلة ذلك. أن أبا جعفر المنصور كان يؤثر الفقهاء بعطاياه العظيمة، والمأمون كان يشترك مع العلماء فى المناظرات العلمية وكان يستنهض العلماء إلى النقاش الحاد. ولذا أثار مسألة خلق القرآن بعد أن أقنعه أحمد بن أبى دؤاد زعيم المعتزلة بالقول بها، وكذلك كان المهدى يناوئ الزنادقة ويتعقبهم واشتد فى تعذيبهم وكذلك الرشيد كان يخص أبا يوسف بالصحبة والملازمة،

---

(١) تاريخ الفقه الإسلامى ٨٢.

وقد طلب منه أن يضع له كتابا يستهدى به فى النظم المالية والإدارية فكتب له مصنفه المعروف «كتاب الخراج» الذى يقول فى مقدمته للخليفة وهو أقوى سلاطين عصره.

(فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولا تزغ فتزيغ قلوب رعيتك وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب وكن من خشية الله على حذر واجعل الناس عندك فى أمر الله سواء القريب والبعيد. وإن الله سائلك عما أنت فيه وعما عملت به ... إلخ وقد بلغ من عناية العباسيين بالإسلام وتشجيعهم لأهل الرأى أن العلماء كانوا يتمتعون بحرية مطلقة فى البحث فى مجال العلوم الشرعية وغير الشرعية. فيجتهدون ويبحثون فى المسائل الفقهية ومرجعهم فى ذلك كان: الكتاب والسنة وفتاوى الصحابة. ما دام الباحث أهلا للاجتهاد.

(٢) كثرة الوقائع لاتساع رقعة الدولة الإسلامية وتغاير البيئات الاجتماعية. وكان ذلك – حتما – يفرض على الأئمة والعلماء أن يبحثوا وينقبوا عن الحل المناسب لظروف الحدث وواقعه.

(٣) تفرق العلماء والأئمة فى الأمصار وعقد الندوات والمناظرات حول القضايا الإسلامية على تطور عصور الإسلام المختلفة.

(٤) تجدد الحوادث وتنوعها على مدى عصور تطور الفقه الإسلامى.

(٥) الصراع الفكرى والمذهبى بين الفرق الإسلامية المختلفة (السنة – الشيعة – الخوارج – المعتزلة).

إن لكل مدرسة من هذه المدارس فكرها وأسلوبها فى تناول الأحداث وتحكيم النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة.

فهذه الأسباب كلها مجتمعة كانت الأسباب والعوامل المؤثرة فى تطور الفقه الإسلامى وما يتصل به من قضايا وأحكام.

● **تدوين العلوم الشرعية:**

أخذ العلماء فى ظل الدولة العباسية يشتغلون بتدوين العلوم الإسلامية إذ

كملت لديهم وسائل التدوين وقد شجعهم الخلفاء على ذلك وأغدقوا عليهم الهبات والهدايا.

والذى يعنينا فى هذا المقام هو الحديث عن تدوين الفقه وأصوله ولذا لزم الكلام عن الكتاب والسنة.

(١) القرآن الكريم وعلومه:

لقد عرف الأصوليون القرآن الكريم بقولهم:

هو اللفظ المنزل على محمد ﷺ المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته المعجز ببيانه وشرائعه.

إن هذا التعريف. تعريف جامع لكتاب الله الذى أنزله على نبيه ﷺ ليكون دستورا للحياتين الدينية والدنيوية فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. وهو المعجزة الباقية نزل بلفظه ومعناه على رسول الله ﷺ بواسطة الوحى يقظة لامناما ولا إلهاما.

ولقد تعهد الله تعالى بحفظه حتى لا تناله أيدى العابثين والمارقين والجهلة والحاقدين ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

بهذا الحفظ الإلهى بقى القرآن كما هو وإلى أن يشاء الله رفعه من الصدور تحدى الله به العرب فى بلاغته وبيانه وتحدى غير العرب فى شرائعه وأحكامه.

بهذا آمن المخلصون وصدق المسلمون واطمأنت بذلك قلوبهم ولهجت بتلاوته ألسنتهم ووعته ذاكرتهم لأنه كتاب علم وعبادة. تلاوته عبادة وذكر ودراسته علم ومعرفة.

وقد قام العلماء بالدراسات المستفيضة حول القرآن الكريم. فوضعت علوم التفسير والتجويد والقراءات وغيرها من الدراسات القرآنية، لقد كان القرآن الكريم هو محل عناية المسلمين منذ أن فارقهم سيدنا رسول الله ﷺ.

تم جمعه وتدوينه فى المصحف فى خلافة الصديق رضى الله عنه بمشورة

عمر رضى الله عنه . وتم نسخه وتوزيعه على الأمصار فى خلافة عثمان رضي الله عنه .

وكان الباعث على جمعه وتدوينه هو مخافة ان يضيع لموت قراء الصحابة فى الحروب والمعارك .

ولما كان العصر العباسى ازداد اهتمام المسلمين بالدراسات القرآنية . وظهر جماعة مشهورة من القراء الذين وهبوا أنفسهم للدفاع عن التلاوة الصحيحة لكتاب الله تعالى فكان جماعة القراءات السبع والقراءات العشر والقراءات الأربع عشر .

والقراءات السبع هي قراءات نافع وابن كثير وأبى عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى رضى الله عنهم .

أما القراءات العشر فهى قراءات هؤلاء السبع وقراءات أبى جعفر ويعقوب* وخلف وأما قراءات الأربع عشر فهى قراءات هؤلاء العشرة وقراءات الحسن البصرى وابن محصن ويحيى اليزيدى والشنبوذى رضي الله عنهم ولا تختلف هذه القراءات المتعددة إلا فى الشئ اليسير الذى يحتمله رسم المصاحف التى كتبت فى عهد سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ولم يكد هذا الدور ينتهى حتى أصبحت القراءات علما من العلوم الدينية وشرع علماؤه يؤلفون فيه الكتب المتعلقة بأدائه .

وقد اهتم العلماء بوضع التفاسير المختلفة لكتاب الله عز وجل فى هذا العصر ومن أشهر هذه التفاسير تفسير ابن جريج وتفسير الطبرى وتفسير الثورى وتفسير ابن إسحاق وتفسير ابن أبى حاتم وغيرهم .

(٢) تدوين السنة الشريفة :

لقد بدأ المسلمون فى تدوين السنة جمعا ونقدا وترتيبا وتصنيفا فى العصر الأموى بتوجيه من الخليفة الأموى : عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ولكن كان العصر العباسى عصرا مجيدا للسنة المطهرة حيث أن الرواة قد تنبهوا إلى تصنيفها وتدوينها واجتهد العلماء فى وضع الشروح لها .

وافترق العلماء فى تدوين السنة إلى ثلاث فرق :

الأولى : ضمت الأحاديث وأقوال الصحابة والتابعين ككتاب الموطأ للإمام مالك ومصنف عبد الرزاق .

والثانية : فرقة رأت أن يفرد حديث رسول الله ﷺ عن غيره فصنفوا ما سمى بالمسانيد كمسند الشافعى ومسند الإمام أحمد ومسند عبد الله بن موسى الكوفى ومسند مسدد البصرى ومسند أسد بن موسى المصرى ثم جاءت فرقة ثالثة وتناولت الأحاديث بجهد أكبر وعناية أوفر من هذه المدرسة الإمام البخارى والإمام مسلم وغيرهما الذين دققوا وحققوا فى الرواية والاختيار كأبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجه ومن سار على دربهم .

ثم وضع علم الجرح والتعديل فى نقد الرواية والرواة .

ومن رجالات هذا العلم يحيى بن سعيد القطان وعبد الرحمن المهدى وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين رحمهم الله تعالى .

وقد توفر للسنة من البحث والدراسة والتدقيق ما لم يتوفر لغيرها من العلوم . حيث بذل علماء السنة جهودا مضنية فى تدوين السنة لكى يطمئن المسلمون إلى صحة كل ما ثبت وروده عن رسول الله ﷺ .

(٣) تدوين الفقه :

عرف الأصوليون الفقه بأنه : العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من الأدلة التفصيلية .

وعرفه الفقهاء بأنه : معرفة أحكام الحوادث نصا واستنباطا . إن العصر الذهبى لتدوين الفقه الإسلامى هو العصر العباسى الأول إذا اشتد النزاع بين العلماء فى أصوله وفى بحث قضاياه وأحكامه ولم يكد هذا العصر ينتهى حتى ترك لنا ثروة علمية فقهية ضخمة مدونة فى كتب ومصنفات متعددة من أمثال كتب أبى حنيفة فى العهد الأموى وكتب الشافعى : الحجة والأم والرسالة فى العهد العباسى وكذا موطأ مالك والمدونة ورسائل الإمام أحمد بن حنبل وكتب غيرهم .

فهذه المؤلفات للأئمة الأربعة كانت البداية وكانت المادة الغزيرة التى كان ينهل منها العلماء والمحققون فيما بعد حتى أصبح التشريع والفقه الإسلامى أكثر ثراء من غيره من العلوم الأخرى.

(٤) تدوين أصول الفقه :

علم أصول الفقه هو : العلم الذى يبحث عن المصادر التى توصل إلى استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية.

وقد نشأ هذا العلم مع نشأة الفقه الإسلامى وتطور بتطوره.

بعد وفاة الرسول ﷺ كان من الصحابة من هو متصدر للإفتاء والإرشاد ويبين للناس ما يخفى عليهم من معانى القرآن الكريم وقضاء الرسول ﷺ.

فكان من هؤلاء المتصدرين للفتوى. الخلفاء الراشدون وابن مسعود وزيد ابن ثابت وابن عباس والسيدة عائشة وابن عمر. وأبو الدرداء وبعد عصر الصحابة رضى الله عنهم كان لا بد من وضع قواعد وأحكام ضرورية ليتمكن العلماء بمقتضاها أن يستنبطوا الأحكام الشرعية وذهب أهل فى ذلك مذاهب متعددة.

وكانت هذه القواعد الأصولية مبعثرة بين مسائل الفقه وموضوعاته حتى كان الإمام الشافعى رضى الله عنه. فإنه قام يجمع هذه القواعد الأصولية وأصول الأحكام وقام بدراستها ثم ضمنها كتابه القيم (الرسالة) وهى أول كتاب مصنف فى علم أصول الفقه. الذى يعتبر واضعه - بحق - ومنظم مسائله الإمام الشافعى رضى الله عنه. بعد ذلك أخذ العلماء فى المذاهب الأخرى يكتبون فى هذا العلم طبقا لمبادئ مذاهبهم.

قال ابن خلدون فى المقدمة :

فلما انقرض السلف وانقلبت العلوم صناعة وضعفت الملكات نتيجة لاختلاط العرب بغيرهم. احتاج الفقهاء المجتهدون إلى تحصيل هذه القوانين والقواعد لاستفادة الأحكام من الأدلة فكتبوها علما قائما برأسه سموه

(أصول الفقه) وأول من كتب فيه . الشافعى رضى الله عنه أملى فيه رسالته المشهورة أ . هـ .

والقول الذى أطمئن إليه وبه أقول . إن الإمام الشافعى رضى الله عنه ليس هو أول واضع لهذا العلم فقد سبقه علماء الأحناف والمالكية فى وضع مسائله إلا أنهم خلطوها بمسائل الفقه . وما قام به الإمام الشافعى هو الفصل بين هذه المسائل وتخليصها مما يشوبها من مسائل الفقه ثم رتبها خالصة فى رسالته .

لذا فإن العلماء يعتبرونه هو واضع هذا العلم ومدقق لمسائله حتى صار علم أصول الفقه علما قائما برأسه .

النزاع فى مادة أصول الفقه :

إن الإسلام ليس من وضع أحد من البشر فهو تشريع إلهى أوحى به إلى رسول الله ﷺ . أساسه القرآن الكريم والسنة الشريفة وعمل الفقهاء هو محاولة فهم النص من هذين المصدرين الأصليين واستنباط الأحكام الشرعية منهما .

ومن ثم لابد أن يكون لهذا التشريع أصوله وقواعده التى يقوم عليها ويرجع العلماء إليها .

ومن هذه الأصول ما اتفق عليه العلماء وهو : الكتاب والسنة والاجماع ومنها ما هو مختلف فيه وهو : القياس والاستحسان والمصالح المرسلة والاستصحاب . وكان النزاع شديدا حول هذه الأصول .

(١) الكتاب :

اتفق العلماء على أن الكتاب هو المصدر الأول من مصادر التشريع وأنه الأصل الذى يجب أن يذهب إليه العلماء .

ولكنهم اختلفوا حول الاستدلال بالقراءة الشاذة .

إن الحنفية يحتجون بها . والشافعى يرفض الاحتجاج بها ويروى عنه أنه جوز العمل بها كخبر الواحد .

(٢) السنة :

السنة كما عرفها المحدثون هى : أقوال النبى ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته الخلقية والخلقية .

والسنة هى المصدر الثانى للتشريع . دل على ذلك الكتاب والسنة وفعل الصحابة والإجماع .

قال الله تعالى : ﴿ **وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً** ﴾ [النساء : ١١٣] .

قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : سمعت من أرضى من أهل العلم يقول الحكمة : سنة رسول الله ﷺ [١] .

وقال تعالى : ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ** ﴾ [محمد : ٣٣] والآيات المنزلة فى هذا الأمر كثيرة .

وروى الحاكم فى مستدركه : « أن النبى ﷺ كان يصلى بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره فلما رأى القوم ذلك ألقوا نعالهم فلما قضى صلاته قال : ما حملكم على إلقائكم نعالكم ؟

قالوا : رأيناك ألقيت نعليك ؟ فقال : إن جبريل أخبرنى أن فيهما قذرا » .

وروى الشيخان : أن عليا رضى الله عنه قال : « كنت رجلا مذاء فاستحييت أن أسأل رسول الله ﷺ فأمرت رجلا فسأله فقال : فيه الوضوء » .

وقد أجمع جمهور العلماء من أهل السنة على وجوب العمل بما صح نقله عن رسول الله ﷺ . ولسان حال كل منهم يقول ما قاله الشافعى : (إذا صح الحديث فهو مذهبى . واضربوا بقولى عرض الحائط) .

وقد أنكر حجية السنة والعمل بها بعض المبتدعة والزنادقة انتصارا لمبادئهم ومذاهبهم .

إن الأحكام الشرعية ثابتة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ معا . وبعضها ثابت

---

(١) الرسالة ٤٤ .

بالقرآن وحده. والبعض الآخر ثابت بالسنة فالسنة هى المصدر الثانى للتشريع الإسلامى.

والأحاديث الشريفة: إما متواتر وإما آحاد.

ولا ينازع أحد فى الاستدلال بالمتواتر. وإنما الخلاف فى الاستدلال بالآحاد.

فالمالكية: لا يستدلون بخبر الواحد إلا إذا اشتهر عند أهل المدينة ولم يكن مخالفا لهم.

وأما الحنفية: فإنهم يشترطون شروطا ثلاثة للعمل بخبر الواحد هى: أن لا يعمل الراوى بخلاف ما يرويه. وأن لا يكون الحديث فيما تعم به البلوى وهو ما يكثر وقوعه ويحتاج الناس إلى بيانه وأن لا يكون الحديث مخالفا للقياس والأصول الشرعية.

وأما الشافعية: فإنهم يشترطون للأخذ بخبر الواحد. أن يكون متصلا صحيح الإسناد.

وهذا هو الذى جعل العلماء يصفون الشافعى رضى الله عنه بأنه: ناصر السنة.

وأما الحنابلة: فإنهم يوافقون الشافعية فى خبر الواحد، بيد أنهم يخالفونهم فى إطلاق القول فى الاحتجاج بالمرسل.

فالحنابلة: هم أكثر الفقهاء عملا بالحديث، والشافعية والمالكية أكثر عملا بالحديث من الحنفية.

قال العلامة ابن القيم فى أعلام الموقعين:

وكيف يمكن أحد من أهل العلم أن لا يقبل حديثا زائدا على كتاب الله فلا يقبل حديث تحريم زواج المرأة على عمتها أو خالتها. ولا حديث التحريم بالرضاعة لكل ما يحرم بالنسب فى الزواج أيضا. ولا حديث خيار الشرط والشفعة والرهن فى الحضر مع أن ذلك كله زائد على ما فى القرآن. كما أن الناس جميعا قد أخذوا بهذا الحديث الثابت عنه ﷺ وهو (من قتل قتيلا فله سلبه) وهو زائد على ما فى القرآن من وجوب قسمة الغنائم كلها بما فيه من أسلاب القتلى بين المسلمين جميعا. أ.هـ.

(٣) القياس:

القياس معناه فى اللغة: التقدير. فيقال: قست الأرض بالمتر أى عرفت مساحتها.

وعند علماء الأصول له تعريفات متعددة أهمها: القياس هو: إلحاق نوع بأصل فى حكمه بمساواته له فى علة هذا الحكم الشرعى كإلحاق النبيذ بالخمر الثابت تحريم تناولها فى الكتاب والسنة فى حرمة الشرف لاتحادهما فى علة الإسكار.

وبالقياس يقول جمهور علماء الأصول والفقه لأنهم يرون أن نصوص كتاب الله وسنة بنيه ﷺ لا تنص على أحكام بعض ما يجد من الحوادث وبعض المسائل. والشريعة معقولة المعنى لها أصول عامة فى القرآن والسنة فاستخدموا القياس لقياس المسائل بأشباهها ونظائرها مما اتحدت معه فى علة الحكم. والحكم يدور مع علته وجودا وعدما.

وأحسن ما وصلنا فى الدفاع عن القياس واعتبارة حجة شرعية هو: ما قرره الإمام الشافعى رضى الله عنه فى رسالته المشهورة.

وقد رفض الأخذ بالقياس جماعة منهم الظاهرية وإمامهم داود بن على فإنهم لا يأخذون بالقياس وإنما يأخذون بالكتاب والسنة فإذا لم يجدوا نصا فى المسألة سكتوا عن الإفتاء.

(٤) الإجماع:

وهو اتفاق جملة من المجتهدين من الفقهاء المسلمين فى عصر من العصور على حكم واقعة من الوقائع أو مسألة من المسائل.

وللعلماء كلام حول الاجماع. لقد أنكره الشيعة وقال النظام باستحالته عادة، وقال الخوارج بحجية إجماع الصحابة قبل الفرقة وأما بعدها فلا ولن يتحقق إجماع فى غيرهم من غير طائفتهم.

وقال بجواز الأخذ به الإمام مالك رضى الله عنه، وقال الحنفية بالإجماع السكوتى وهو أن يجيب واحد ويسكت الآخرون.

ويرى الشافعى رضى الله عنه إنكار وجود إجماع على تمام معناه – فإن ذلك يتوقف على معرفة شخصية المجتهدين فى عصر واحد واعتراف الكافة لهم بذلك . وأن ينقل عن كل منهم قول المسألة التى فيها الفتوى وينقل ذلك القول عنهم جمع يؤمن كذبه وإخفاؤه وهذا لم يكن إلا فى ما يسمى بعلم العامة كالعلم بأن الصلوات المفروضة خمس وأن الصبح ركعتان وما شاكل ذلك .

أما ما يسميه بعلم الخاصة فقل أن تجد مسألة يسهل القول بأن المجتهدين فى عصر واحد اتفقوا فى الجواب عنها . ومع إنكار الإمام الشافعى حقيقة الإجماع يرى من الحجة فى الدين أن ينقل الحكم عن السلف ولا يعلم أنهم اختلفوا فيه . فكان الخلاف إنما فى العبارة عن الحجة لا فى الحجة نفسها .

ونقل عن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه أنه قال : من ادعى الإجماع فهو كاذب فزعم بعض الناس أن هذا إنكار منه للإجماع .

ويبعد هذا الزعم ما قاله ابن الحاجب إنما هو – أى ما قاله الإمام أحمد – إنكار على فقهاء المعتزلة الذين يدعون إجماع الناس على ما يقولون مع أنهم من أقل الناس معرفة بأحوال الصحابة والتابعين .

وقد بنى هؤلاء الذين ينكرون الإجماع على أنه لا يمكن تحققه فعلا لأنه يتعذر معرفتهم ومعرفة آرائهم جميعا فى المسألة التى يراد معرفة الحكم الشرعى فيها (١) .

هذا ويمكن تحقق الإجماع فى عصرنا هذا لتعدد وسائل الاتصالات وتنوعها وكثرة انتشارها وسهولة الحصول عليها .

فإننا نرى ونسمع ونقرأ عن المؤتمرات الدولية والمحلية فى سهولة ويسر ويمكن تحقق ذلك بواسطة المجامع العلمية الإسلامية والجامعات الإسلامية فى البلاد والأقطار الإسلامية المختلفة .

(٥) الاستحسان :

وهو العدول فى مسألة من المسائل عن حكم نظيرها إلى حكم آخر لوجه

---

(١) راجع فى هذا الموضع : تاريخ التشريع للخضرى وأصول الفقه – د . طه العربى .

هو أقوى، قال الدكتور محمد يوسف موسى فى كتابه: الإسلام وحاجة الإنسانية إليه:

الاستحسان ليس قولا بالرأى المجرد أو الهوى. بل هو قول لدليل رجح لدى القائل به. وليس المراد به ما يستحسنه المجتهد بعقله من غير دليل، ويجئ الاستحسان بعد الكتاب والسنة والإجماع والقياس، هذا وقد أيد الحنفية الأخذ بالاستحسان. ورده الشافعى رضى الله عنه وقال: (من استحسن فقد شرع).

فهو بهذا يرد الاستحسان المبنى على الهوى والتلذذ ولكنه لا يرده كلية فقد أثر عنه أنه يأخذ بالاستحسان المؤيد بالدليل ومنه قوله: (استحسن شيئا من نجوم الكتابة للمكاتب).

(٦) المصالح المرسلة:

وهى كل مصلحة غير مقيدة بنص من الشارع يدعو إلى اعتبارها. وفى اعتبارها مع هذا جلب نفع ودفع ضر بشرط أن لا تعارض مقصدا من مقاصد الشريعة ولا دليلا من أدلتها المعروفة. وأن يكون فيها مصلحة حقيقية ضرورية للمجتمع أوعلى الأقل يكون فيها تحصيل نفع أورد ضر حقيقى [١].

ويرى المالكية جواز الأخذ بها. هذا ولم يقف العلماء عند هذا الحد بل انتقل خلافهم إلى طريقة استنباط الأحكام من أوامر الشرع ونواهيه فتارة يبقونها على الفرض والتحريم وتارة يخرجونها عن ذلك إلى الندب والكراهة. وتارة إلى مجرد الإرشاد بنوع القرائن أو الاستدلال بالرأى.

(٧) المصطلحات الفقهية:

لقد وضع الفقهاء ما يسمى بالمصطلحات الفقهية وهى:

الواجب – الفرض – السنة – المندوب – المستحب – المباح – الفاسد الباطل – الحرام، المكروه كراهة تحريم – المكروه كراهة تنزيه.

---

(١) التشريع الإسلامى وأثره فى الفقه – د. محمد يوسف موسى ٣٥.

وقد انقسم العلماء فى تعريف هذه المصطلحات إلى قسمين:

القسم الأول: وهم الاحناف وأصحاب الرأي. قالوا:

الفرض: ما ثبت طلبه بدليل قطعى ورودا أو دلالة كالآيات القرآنية. وما ثبت من السنة ثبوتا قطعيا بتواتر أو شهرة إذا كانت نصا.

الواجب: ما ثبت طلبه بدليل ظنى الورود أو الدلالة أو هما معا مثال الواجب، أن يكون المقروء فى الصلاة الفاتحة.

ويترتب على تركه سهوا سجود السهود وعلى تركه عمدا إعادة الصلاة ومثال الفرض قراءة ما تيسر من القرآن فى الصلاة، ويترتب على تركه بطلان الصلاة.

السنة: ما واظب رسول الله ﷺ عليه مع تركه إياه أحيانا بلا عذر.

المندوب والمستحب: ما لم يواظب عليه وإن لم يفعله بعد أن رغب فيه.

الحرام: ما قابل الفرض.

المكروه كراهة تحريم: ما قابل الواجب.

المكروه كراهة تنزيه: ما قابل السنة.

الباطل: لا يترتب عليه أثر.

الفاسد: يترتب عليه أثر مع خبث.

وأما القسم الثانى: وهم: مالك والشافعى وأحمد وأتباعهم.

قالوا: لا فرق بين الفرض والواجب ومعناه: ما طلب حتما بدليل قطعى أو ظنى ولكنهم يفرقون بينهما فى مناسك الحج فقط فيقولون إن ما طلبه الشارع ولا جبر له. ففرض كالوقوف بعرفة.

والواجب: ما طلبه الشارع وجبر تركه بدم كالإحرام.

وعند هذا الفريق فرض يعرف بفرض الكفاية. وهو ما طلب الشارع فعله من غير قصد إلى فاعله. فإذا فعله البعض سقط الطلب عن الباقين كصلاة الجنازة.

والسنة والمندوب والمستحب. معناها، واحد لا فرق بينها. فهى: ما طلب طلبا غير جازم.

غير أنهم يقولون: سنة مؤكدة لما سماه الحنفية سنة. وغير مؤكدة لما سموه مندوبا ومستحبا. والحرام: ما قابل الفرض والواجب. والمكروه كراهة تحريم أو كراهة شديدة. ما قابل السنة المؤكدة.

والمكروه كراهة تنزيه. ما قابل السنة غير المؤكدة.

والمباح هو المسكوت عنه أى ما لم يطلب الشرع فعله ولا تركه.

والشرط: ما توقف عليه صحة غيره وليس جزءا منه.

والفاسد والباطل مترادفان وهما: ما لا يجزى عن فاعله ولا يترتب عليه أثره.

فنحن فى هذه العجالة قد قدمنا مصادر التشريع وأصول الأحكام وخلاصة ما دار حولها من نزاع بين الأئمة وعلماء المذاهب الفقهية المختلفة فى هذا العصر الثرى بعطائه العلمى والفقهى.

● المدارس الفقهية فى هذا العصر:

لقد برز فى هذا العصر أئمة أعلام تناولوا قضايا الفقه والتشريع فى الإسلام بوجهات نظر مختلفة فى بعض الأمور ومتفقه فى أغلب الأمور. وكان لكل اتجاه مميزاته وخصائصه التى تميزه عن الاتجاهات الأخرى. فتكونت تلك المدارس الفقهية المتعددة. وهى:

(١) مدرسة أهل الرأى:

وهم العراقيون الذى استكثروا من الأخذ بالقياس وإعمال الرأى لأنهم كانوا يرون أن الشريعة معقولة المعنى ولها أصول عامة نطق بها القرآن والسنة. وما كانوا يستدلون بالسنة إلا قليلا.

وكان يترأس هذه المدرسة أبو حنيفة وأصحابه. فيقول: (علمنا هذا رأى. فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه).

(٢) مدرسة أهل الحديث :

وهم أهل الحجاز قبلتهم السنة باعتبارها مكملة للقرآن ومفسرة له وباعتبارها نصوصا يتعبد بها الشارع .

فمن دان بالإسلام من غير علل رعاها فى تشريعه ولا أصول عامة يرجع إليها المجتهد . ولا أصول خاصة بالأبواب المختلفة .

فهم المتشرعون النصيون . فإذا لم يجدوا فى المسألة نصا سكتوا عن الفتوى .

وإمام هذه المدرسة هو الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه ومن بعده الإمام الشافعى والإمام أحمد رضى الله عنهما .

وإن كان الشافعية بمعنى أدق كانوا وسطا بين مدرسة أهل الحديث ومدرسة أهل الرأى وموقفهم للسنة محمود . ولن ينسى العلماء على مر العصور للإمام الشافعى موقفه العظيم من السنة والاستدلال بحديث الآحاد .

(٣) مدرسة أهل الظاهر :

وإمامهم داود بن على وابنه من بعده .

ومذهبهم يقوم على إنكار القياس وإبطال العمل بكل ما جاء من طريق غير الكتاب والسنة كالإجماع وغيره . ولا يأخذون إلا بظاهر النص وهذا الاتجاه فيه جمود بعض الشئ .

(٤) مدرسة الشيعة :

روادها هم الفقهاء المتشيعون لأهل البيت النبوى . ومذهبهم بصفة عامة قائم على أن الإمامة نص عليها لأهل البيت خاصة كما يقولون بعصمة الإمام .

وهذه المدرسة تنقسم إلى عدة مذاهب شيعية واتجاهات كثيرة .

(٥) مدرسة الخوارج :

ومذهبهم قائم على الأخذ بالنص والقول بتكفير أصحاب الذنوب والكبائر وجواز الخروج على الإمام إذا حاد عن الكتاب والبسنة وفكر الخوارج هو اتجاه متشدد ومتزمت كثيرا .

وهو منتشر بعمان وريف الجزائر، وقد نشأ فى بدايته بين أهل البادية وهم الذين خرجوا على الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه وقالوا بكفر بعض الصحابة. بمثل ما قال به الشيعة من تكفير بعض الصحابة أيضا وهذه آراء مرفوضة عند أهل السنة والجماعة.

هذا وقد نقل إلينا هذه الثروة الهائلة من الفقه والتشريع للمذاهب التى كان لأئمتها تلاميذ تناقلوها جيلا بعد جيل. وهناك علماء وأئمة فى هذا العصر لم ينقل إلينا من مذاهبهم إلا شذرات لعدم نشر تلاميذهم لمذاهبهم ولعدم تدوين الأئمة والعلماء لآرائهم كسفيان بن عيينة والثورى والليث بن سعد وغيرهم.

* * *

الفصل الثانى

حياة الإمام الشافعى

« إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »

[رواه أبو داود]

● إرهاصـــات :

أرسل الله نبيه سيدنا محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق إلى أمة جعلها أمة وسطا تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فهى خير أمة أخرجت للناس. ويشاء الله تعالى أن تسير هذه الأمة على نهج سليم وطريق مستقيم. فإذا انحرفت الأمة وحادت عن الطريق وظهرت البدعة. يبعث الله فى هذه الأمة من أهل العلم من يجدد لها أمر دينها ويوضح لها طريق الهدى من طريق الضلال. روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) [1] وقد تحقق ذلك وبعث الله فى هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من جدد لهذه الأمة أمر دينها وأعادها إلى النبع الصافى والمنهج القويم بشريعة الإسلام.

فكان على رأس المائة الأولى: عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى. الذى قاوم الظلم والفساد وأمر عماله على الأمصار بتكليف العلماء بالتفرغ لجمع أحاديث الرسول ﷺ.

وقد ضرب هذا الخليفة بعظمة الخلافة عرض الحائط ولم تبهره مظاهرها فسرح الخدم والعبيد من قصر الخلافة وعاد بالمسلمين إلى حظيرة الإسلام الأولى. فكان بحق عمر بن الخطاب الثانى فى زهده وعدله وعلمه وتواضعه وخوفه من الله عز وجل.

وكان على رأس المائة الثانية ناصر السنة عالم قريش الذى ملأ طباق الأرض علما: الإمام محمد بن إدريس الشافعى رضى الله عنه. الذى ترك الدنيا وقد خلف وراءه ثروة علمية إسلامية ضخمة.

---

(١) رواه أبو داود فى السنن وأحمد فى المسند.

روى عن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه أنه قال : (يروى فى الحديث : أن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يصحح لهذه الأمة دينها – فنظرنا فى المائة الأولى : فإذا هو عمر بن عبد العزيز ونظرنا فى المائة الثانية فنراه الشافعى) وفى رواية : (إن الله يقيض للناس فى رأس كل مائة سنة من يعلمهم السنة وينفى عن رسول الله الكذب . فنظرنا فى رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز وفى رأس المائتين الشافعى) .

وأنشد الحافظ جلال الدين السيوطى فى أرجوزته (تحفة المهتدين فى أخبار المجتهدين) :

لقد أتى فى خبر مشتهر	رواه كل حافظ معتبر
بأن فى رأس كل مائة	يبعث ربنا لهذه الأمة
منا عليها عالما يجدد	دين الهدى لأنه مجدد
فكان عند المائة الأولى عمر	خليفة العدل بإجماع وقر
والشافعى كان عند الثانية	لما له من العلوم السارية

وقد ذكر الخطيب فى الاقناع فى حل ألفاظ أبى شجاع فى فقه الشافعية يقول : قال رسول الله ﷺ : (اللهم اهدى قريشا فإن عالمها يملأ طباق الأرض علما) .

وقال ﷺ (يخرج فيكم رجل من أهل بيتى يملأ طباق الأرض علما) وقال الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه : هذا العالم هو الشافعى لأنه لم يحفظ لقرشى من انتشار علمه ما حفظ للشافعى) .

ويقول محمد بن عبد الحكم رحمه الله تعالى : (إن أم الشافعى لما حملت به رأت كأن المشترى خرج من بطنها وانقض فوقع منه فى كل مكان شظية .

فقال لها المعبرون : إنه يخرج منك عالم عظيم) ذكره الصباع فى إسعاف الراغبين وقال الربيع بن سليمان رحمه الله : سمعت الشافعى رضى الله عنه يقول : رأيت وأنا باليمن كأنى جالس فى فضاء الطواف إذ أقبل علىٌّ علىٌّ بن أبى طالب

رضي الله عنه فقمت إليه مسرعا وسلمت عليه فصافحته فعانقنى ونزع خاتمه من أصبعه فجعله فى أصبعى.

فلما أصبحت قصصت ذلك على المعبر. فقال لى: أبشر يا أبا عبد الله أما رؤيتك لعلى فى الحرم فهو النجاة من النار. وأما مصافحتك إياه فهو الأمان من الحساب وأما جعله الخاتم فى أصبعك فسيبلغ اسمك الدنيا ما بلغ على بن أبى طالب وضى الله عنه.

● **أسرته ونسبه:**

نبت الشافعى رضى الله عنه من أسرة ثابتة الدعائم قوية الأركان عظيمة البنيان فهو سليل أسرة كريمة اشتغل أبناؤها بالعلم وخدمة الإسلام فهو: أبو عبد الله: محمد بن إديس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف الذى يتصل نسبه بعدنان ويجتمع مع سيدنا رسول الله ﷺ فى عبد مناف الذى هو الثالث من أجداد النبى ﷺ التاسع من أجداد الشافعى رضى الله عنه.

وهاشم الذى فى نسب الشافعى ليس هو هاشم الذى فى نسب النبى ﷺ. فالثانى عم الأول.

وروى الحاكم والبيهقى والخطيب البغدادى: أن الشافعى رضى الله عنه ولده هاشم بن عبد مناف جد النبى ﷺ ثلاث مرات وذلك لأن أم السائب هى الشفاء بنت الأرقم بن هاشم عبد مناف. وأم الشفاء هى خَليدة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف وأم عبد يزيد هى الشفاء بنت هاشم بن عبد مناف تزوجها هاشم فولدت له عبد يزيد فالشافعى ابن عم رسول الله ﷺ فى جده، وابن عمته. أ.هـ.

فالشافعى مطلبى قرشى لأنه يجتمع مع رسول الله ﷺ فى جده عبد مناف وكان هاشم والمطلب أخوين متناصرين فى الجاهلية لقى جده شافع سيدنا رسول الله ﷺ وهو مترعرع فى شبابه فهو من صغار الصحابة. وأما جده السائب فكان

صاحب راية بنى هاشم يوم بدر وأسر فيها ففدى نفسه ثم رجع مسلما فقيل له: لم لم تسلم قبل أن تفدى نفسك؟ فقال (ما كنت لأحرم المسلمين مطمعا لهم فى) وبذلك يكون للشافعى جدان تشرفا بصحبة النبى ﷺ ولقب بالشافعى: نسبة إلى جده شافع.

قال أحدهم يذكر هذا النسب الشريف:

يا طالبا حفظ أصول الشافعى	مجتمعا من النبى الشافعى
محمد إدريس عباس ومن	فوقهم عثمان كل وشافع
وسائب ثم عبيد سادس	عبد يزيد هاشم المجائع
مطلب عبد مناف عاشر	أكرم بها من نسبة للشافعى

وأما أمه: فقيل. إنها أزدية. وهذا ما يقول به الكثير ممن أرخوا له وقال آخرون إن أم الشافعى من أبناء عبد المطلب من أولاد على بن أبى طالب رضى الله عنه واسمها: فاطمة بنت عبد الله بن الحسين بن على رضى الله عنهم. ولذا قالوا (لا هاشمى ولدته هاشمية إلا على والشافعى رضى الله عنهما).

وقال الإمام النووى رحمه الله يؤيد الفريق الأول (الشافعى رضي الله عنه قرشى مطلبى بإجماع أهل النقل من جميع الطوائف. وأمه أزدية) تهذيب الأسماء واللغات ١ / ٤٤ القسم الأول.

وكانت أمه رحمها الله تعالى، من أذكى الناس فطرة. ذات عقل راجع وقلب بالإيمان ثابت وكانت دائما توجه النصح والإرشاد لولدها رضى الله عنه قيل: إنها شهدت عند قاضى مكة هى وأخرى - قيل إنها أم بشر المريسى المعتزلى - ولما أراد القاضى أن يفرق بين الشاهدين قالت أم الشافعي: ليس لك ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢] فرجع لها فى ذلك.

نسب كأن عليه من شمس الضحى	ومن فلق الصباح عمودا
ما فيه إلا سيد وابن سيد	حاز المكارم والتقى والجودا

● **مولده ونشأته :**

ولد الإمام الشافعي رضى الله عنه بغزة من أعمال فلسطين بحى اليمن وقيل : بعسقلان – تجاور غزة – والأول هو الصحيح .

ولد في شهر رجب وقيل في شهر شعبان من عام ١٥٠ هـ (٧٦٧م) يوم وفاة الإمام أبى حنيفة رضي الله عنه [١] . وقيل في السنة التى ولد فيها ولم يثبت اليوم أو الشهر .

قال الذهبى : لم يثبت اليوم . وقال البيهقى : هذا التقييد باليوم لم أجده إلا في بعض الروايات أما التقييد بالعام فمشهور بين أهل التواريخ لقد أراد الله تعالى بمولده فى هذا العام ان لا تحرم الأمة من دعاة الخير والبر والتقوى ففيه ودع نجم الدنيا وبزغ كوكب آخر . فذهب إمام وجاء آخر لكى تستمر سيرة العطاء العلمى والثقافى والروحى .

وليست غزة مدينة آباء الشافعى . وإنما خرج أبوه إليها ومعه زوجه فى حاجة فمات هناك . وقيل : كان أبوه من جنود الثغور .

ومات أبوه وعمر الشافعى كان عامين . طفل لم تكد عيناه تكتحل برؤية أبيه رحمه الله تعالى . فعادت به أمه إلى مكة المكرمة موطن آبائه وأجداده وأقربائـــــه .

فنشأ بها يتيما فى حجر أمه التى عنيت بتربيته أشد العناية .

ولما شب وترعرع وجهته أمه إلى حفظ القرآن الكريم على يد معلم بمكة ولما سلم الشافعى إلى المعلم ما كان يجد أهله أجرة المعلم . فكان المعلم يفرّط فى تعليمه . ولكن الشافعى كان كلما علم المعلم صبيا شيئا تلقفه الشافعى ثم إذا قام المعلم من مكانه أخذ الشافعى يعلم الصبيان تلك الأشياء فنظر المعلم فرأى الشافعى يكفيه أمر الصبيان أكثر من الأجرة التى كان يطمع فيها منه فترك طلب الأجرة .

---

(١) رواه أبو الحسن محمد بن الحسين بن إبراهيم فى مناقب الشافعى عن الربيع بن سليمان تلميذ الشافعى .

واستمر الشافعى على ذلك حتى أتم حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين ولقد ضرب لأقرانه وزملائه أروع الأمثلة فى حفظه لكتاب الله تعالى فقد كان حريصا أشد الحرص على وعى ما يحفظه من القرآن الكريم . وهو لم يبلغ سن الثالثة عشرة . حتى كان له شأن فى مسجد الله الحرام فكان إذا قرأ القرآن ينشج الناس يبكون .

قالوا : كنا إذا أردنا أن نبكى قال بعضنا لبعض : قوموا إلى هذا الفتى المطلبى الذى يقرأ القرآن . فإذا أتيناه استفتح القرآن حتى نتساقط بين يديه من كثرة البكاء فإذا رأى ذلك أمسك .أ.هـ.

ولقد سكت التاريخ عن اسم محفظه القرآن الكريم . ولما أتم حفظه توجه إلى الشيخ اسماعيل بن قسطنطين قارئ مكة وجود عليه القرآن الكريم .

ثم بعد ذلك أخذ الشافعى يحفظ أحاديث رسول الله ﷺ ويقيد ما يحفظ من الحديث . ليرجع إليه عند الحاجة .

ثم اتجه بعد ذلك إلى دراسة العلم فتوجه إلى مدرسة ابن عباس رضى الله عنهما التى كانت تعنى بدراسة القرآن الكريم وعلومه ومعرفة الناسخ والمنسوخ فى القرآن والسنة فبرز الإمام الشافعى فى هذه المدرسة وأجاد وجوَّد ما تعلمه بها . وارتبط فكر الشافعى رضى الله عنه وطريقته بابن عباس رضى الله عنهما كارتباط فكر ابن عباس بفكر الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه الذى برع فى علوم القرآن والفقه والأحكام كل البراعة .

قال الإمام الشافعى :

(لما ختمت القرآن دخلت المسجد فكنت أجالس العلماء وأحفظ الحديث والمسألة وكان منزلنا بمكة فى شعب الخيف وكنت فقيرا بحيث ما أملك أن أشترى القراطيس فكنت آخذ العظم وأكتب فيه) .

وكان الشافعى طموحا لقد اشتاقت نفسه – رغم تحصيله العلمى – لأن يتفصح لسانه العربى حتى لا يكون فيه لكنة فى وقت خالطت العجم فيه المتكلمين بالعربية فى المدائن والأمصار . وفى سبيل تفصح لسانه خرج إلى البادية

فلزم قبيلة هذيل. وكانت من أفصح القبائل العربية فى البادية فحفظ أشعارهم وآدابهم حتى صار راوية من رواة أشعارهم.

قال الأصمعى ذو المكانة العالية فى رواية الأدب:

(صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له: محمد بن إدريس) ثم عاد الشافعى إلى مكة المكرمة بعد أن تحقق له ما يصبو إليه من تقويم لسانه حتى كان حجة فى رواية اللغة.

قال عبد الملك بن هشام النحوى: (الشافعى كلامه لغة يحتج بها).

وقال أيضًا: (طالت مجالستنا للشافعى فما سمعت منه لحنة قط ولا كلمة غيرها أحسن منها).

قال الشافعى رضى الله عنه: خرجت من مكة فلازمت هذيلا أتعلم كلامها وآخذ طباعها وكانت أفصح العرب أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم. فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار وأذكر الآداب والأخبار.

وذكر العلامة ابن كثير: أنه أقام بالبادية عشر سنين وقد حبب إليه فى صغره الرمى فبرع فيه حتى كان يصيب من العشرة عشرة وأما العلم فقد بلغ فيه شأوا بعيدا رفع الله به ذكره.

قال: تعلمت الرماية حتى كنت أصيب من العشرة عشرة.

وجاء فى تذكرة الحفاظ: كان الشافعى من أحذق قريش بالرمى كان يصيب من العشرة عشرة وكان أولا قد برع فى ذلك وفى الشعر واللغة وأيام العرب.

وتعلم الرماية مما يتفاخر به العرب. وكان رسول الله ﷺ: يحث عليها كثيرا ويقول: (ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا) ولما عاد الشافعى من هذيل أقبل يدرس الحديث والفقه بمكة وكذا تجويد القرآن الكريم ثم حفظ الموطأ للإمام مالك رضي الله عنه.

● دراسته الفقه وأصوله:

كان الشافعى رضى الله عنه فى طلب العلم منهوما لا يشبع ولقد تحمل فى

سبيل ذلك متاعب كثيرة ثم تحققت له آماله وجلس إلى كبار الشيوخ فى عصره فاحسن الاستفادة منهم حتى بلغ فى العلم درجة النصح والكمال فإنه لما عاد من البادية طلب تعلم الفقه وأصوله على شيخ مكة ومفتيها الإمام مسلم بن خالد الزنجى (مفتى مكة) رحمه الله تعالى .

وسمى بالزنجى : لشدة شقرته فهو من أسماء الأضداد . وتفقه عليه وعلى غيره من شيوخ مكة وعليهم قرأ الحديث وحفظه ولما قطع فى تحصيل العلوم شوطا كبير واطمأن إليه شيخه مسلم رحمه الله أذن له بالفتوى والرد على أسئلة المسلمين . فقال له : (أفت يا أبا عبد الله فقد آن لك أن تفتى) .

وكانت سنه إذ ذاك خمس عشرة سنة . وهو ما اتفق عليه الأكثرون ولم يبهر الشافعى الإذن له من شيخه بالفتوى لأن طموحه كان أكبر من ذلك فما كاد يسمع بالإمام مالك رضى الله عنه بالمدينة حتى قرر السفر إليه وقبل أن ينشئ السفر حفظ موطأ الإمام مالك .

قال الشافعى : لما رجعت إلى مكة من هذيل بالبادية أنشد الأشعار والآداب وأيام العرب مرَّ بى رجل من الزبيديين فقال لى : ألا يكون مع هذه الفصاحة والذكاء فقه فتكون قد سدت أهل زمانك . فقلت : ومن بقى يقصد ؟ فقال : هذا مالك سيد المسلمين فوقع فى قلبى فاستعرت الموطأ من رجل بمكة وحفظته فى تسع ليال – وقيل فى ثلاث – ثم قدمت المدينة ، فدخلت عليه فقلت : أصلحك الله . إنى رجل مطلبى من حالتى وقصتى كذا وكذا فلما سمع كلامى نظر إلىَّ ساعة . وكان لمالك فراسة فقال لى : ما اسمك ؟ فقلت : محمد . فقال لى : يا محمد اتق الله واجتنب المعاصى فإنه سيكون لك شان فقلت : نعم وكرامة . قال : إن الله تعالى ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بالمعصية .

ثم قال : فإذا كان الغد تجئ نقرأ لك الموطأ .

فقلت : إنى أقرؤه من الحفظ ورجعت إليه فى الغد وابتدأت بالقراءة وكلما أردت قطع القراءة خوفا من ملاله . أعجبه حسن قراءتى فيقول : يا فتى زد حتى قرأته فى أيام يسيره ثم أقمت بالمدينة إلى أن توفى مالك رحمه الله . أ . هـ .

ولما ذهب الشافعي إلى مالك كان يحمل معه رسالة توصية من حاكم مكة وقيل: من شيخه مسلم بن خالد الزنجي رضى الله عنه.

ولازم الشافعي مالكا تسع سنوات تلقى عليه فيها فقه أهل المدينة المنورة وكان مع ذلك يقوم برحلات كثيرة إلى باقى البلدان الإسلامية ليستفيد منها ما يستفيد المسافر الأريب من علم بأحوال الناس وشئون اجتماعهم وكان من وقت لآخر يذهب إلى امه بمكة فيستنصح بنصائحها إذ كان فيها رأى صائب ونظر ثاقب ورأى راجح.

وكان الإمام مالك رحمه الله تعالى يوصله فى هذه الرحلات بمال كثير وفى المدينة المنورة التقى الشافعي بكثير من علماء مصر الذين وفدوا على الإمام مالك لطلب العلم وكان الشافعي يجلس أمامهم فى مجلس الأستاذ بأمر شيخه.

قال الربيع رحمه الله تعالى: ثم قدم على مالك المصريون بعد قضاء حجهم للزيارة وسماع الموطأ.

قال الشافعي: فأمليت عليهم الموطأ حفظا، منهم: عبد الله بن عبد الحكم وأشهب وابن القاسم.

قال الربيع: وأحسب أنه ذكر الليث بن سعد.

عاش الشافعي مع مالك كما يعيش الصديق مع صديقه والتلميذ مع أستاذه والأخ مع أخيه والابن مع أبيه.

قال رضى الله عنه: فما علم أحد من الأنس الذى كان بيننا. أينا الضيف وأقام معه حتى توفى مالك سنه ١٧٩ هـ.

● **تحقيــق:**

ذكر كثير من كتاب التراجم والسير والتاريخ أن الشافعى اتصل بالإمام مالك وكانت سنه ثلاث عشرة سنة، منهم الشقرانى فى طبقاته والشبلنجى فى نور الأبصار والحريفيش فى الروض الفائق. وذكر آخرون أنه لم يتصل به إلا وهو فى سن العشرين أو قبلها بقليل.

وأرى أن القول الأخير هو الصحيح. وذلك لأننا قد عرفنا أن الشافعى قد أقام مع مالك حتى توفى سنة ١٧٩ هـ وكانت مدة مكثه معه تسع سنوات إذا يكون الشافعى قد حفظ الموطأ وهو فى سن العشر سنوات فى تسع ليال أو أقل وهذا ما ذهب إليه الكثير وقال آخرون: إنه لم يحفظه إلا عند ذهابه للإمام مالك وكان فى سن العشرين.

وأرى أنه ليس هناك تعارض بين هذين الرأيين فالشافعى حفظ الموطأ وهو ابن عشر سنين فعلا ولكنه عندما أراد الذهاب إلى الإمام مالك أراد أن يطلع عليه مرة أخرى حتى ينظر فيه هل ينقصه شئ فى حفظه أم لا؟

ولما توفى الإمام مالك رضى الله عنه حزن الإمام الشافعى لفقده حزنا شديدا ثم عاد إلى مكة المكرمة ولم يكن بذى مال. فاضطر لأن يبحث عن عمل يرتزق منه. فساعده مصعب بن عبد الله القرشى قاضى اليمن وقبل مساعدة حاكمها على أن يلى باليمن عملا يرتزق منه.

وتولى الشافعى عملا بنجران وأقام ملازما الإمام يحيى بن حسان رحمه الله وهناك رأى الشافعى جور الحكام وقسوتهم فثار على هذا الظلم واتصل بالناس وأخذ يشرح لهم مبادئ العدالة فى الشريعة الإسلامية وطبيعى هذا لا يرضى الحكام ولا معاونيهم.

فانتهز حاكم اليمن فرصة الصراع بين العباسيين والعلويين. فوشى بالشافعى عند الخليفة العباسى هارون الرشيد فأرسل إليه يقول: إن هنا رجلا من ولد شافع المطلبى لا أمر لى معه ولا نهى يعمل بلسانه مالا يقدر عليه المقاتل بسيفه. وحمل الشافعى مع المتهمين بالتشيع لآل البيت وكان ذلك فى سنة ١٨٤ هـ وكان قدومهم على هارون الرشيد بالعراق وكان عمره إذ ذاك أربعا وثلاثين سنة ونجى الله الشافعى من سيف الرشيد بحيلة ذكاء من الشافعى.

فعندما واجهه الخليفة بقول حاكم اليمن واتهامه له بالتشيع للعلويين فقال الشافعى: يا أمير المؤمنين ما رأيك فى رجل يرانى ابن عمه وآخر يرانى عبده فلمن يكون ولائى وحبى؟.

فقال: للذى يراك ابن عمه. فقال يا أمير المؤمنين إنكم بنى العباس تروننا أبناء عمومتكم وأبناء على يروننا عبيدا لهم. فعفا عنه الرشيد وبذلك نجاه الله من سيف الرشيد.

● فى العــــراق:

ولما كان الشافعى بالعراق اتصل بمحمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة فأخذ عنه فقه العراقيين واطلع على كتبهم فأضاف ذلك إلى ما عنده من فقه الحجازيين. قال رضى الله عنه: (حملت عن محمد بن الحسن وقر بعير ليس فيه إلا سماعى منه).

وكانت له مناظرات ومناقشات مع محمد بن الحسن وغيره. رفع منها الكثير إلى هارون الرشيد فأعجب بها.

وكانت له بالعراق نوادر. يقول:

فما بت ليلتى حتى كسانى محمد بن الحسن خلقة بألف درهم ثم دخل خزانة الكتب فأخرج لى الكتاب الأوسط تأليف الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه فنظرت فى أوله وآخره ثم ابتدأت الكتاب فى ليلتى أتحفظه فما أصبحت إلا وقد حفظته ومحمد بن الحسن لا يعلم بشئ. ذلك وكان المشهور فى العراق بالفتوى والمجيب فى النوازل فأنا قاعد عن يمينه فى بعض الأيام إذ سئل عن مسألة. أجاب فيها وقال: هكذا قال أبو حنيفة فقلت له قد وهمت فى الجواب. والجواب عن قول الرجل كذا وكذا. وهذه المسألة تحتها المسألة الفلانية وفوقها المسألة الفلانية وفى الكتاب الفلانى وأمر محمد بن الحسن بالكتاب فاحضر فتصفحه ونظر فيه فوجد القول كما قلت فرجع عن جوابه إلى ما قلت. ولم يخرج إلى كتابا بعد هذا فاستأذنته فى الرحيل).

ومكث الشافعى ببغداد مدة سنتين فى ضيافة محمد بن الحسن الشيبانى الذى أكرم ضيافته ثم عاد بعدها إلى مكة المكرمة ووصله هارون الرشيد بألفى دينار وكذا وصله محمد بن الحسن بثلاثمائة درهم.

يقول العلامة ابن حجر العسقلانى رحمه الله تعالى:

انتهت رئاسة الفقه فى المدينة إلى مالك بن أنس فرحل الشافعى إليه ولازمه وأخذ عنه. وانتهت رئاسة الفقه فى العراق إلى أبى حنيفةفأخذ الشافعى عن صاحبه محمد بن الحسن فاجتمع لديه علم أهل الحديث وعلم أهل الرأى حتى اشتهر أمره وعلا ذكره أ . هـ.

وهكذا جمع الله للشافعى علم الحجازيين وعلم العراقيين وعلم أهل اليمن وبذلك أصبح مؤهلا تأهيلا علميا عاليا لأن يعتلى كرسى الأستاذية.

● **جلوسه للتدريس والفتوى:**

أذن للشافعى بالفتوى مرتين من إمامين جليلين. هما:

مسلم بن خالد الزنجى، ومالك بن أنس رضى الله عنهما.

فالأول أذن له بالفتوى وعمره خمسة عشر عاما.

قال الحميدى: سمعت مسلما بن خالد الزنجى وقد مر على الشافعى وهو يفتى وهو ابن خمس عشرة سنة وقال له: أفتِ فقد آن لك أن تفتى وهكذا أذن له شيخه بالفتوى (الاجتهاد) كذا فسره الباجورى فى حاشيته على شرح ابن قاسم فى فقه الشافعية.

ولما ذهب الشافعى إلى المدينة لأول مرة وهو فى سن العشرين تقريبا وكان فى مجلس الإمام مالك رضى الله عنه. فجاء رجل وقال للإمام مالك: إنى رجل أبيع القمارى [1] وإنى بعت فى يومى هذا قمرا يا فرده على المشترى وقال: قمريك لا يصيح. فحلفت له بالطلاق أنه لا يهدأ من الصياح فقال له مالك: طلقت زوجتك ولا سبيل لك عليها فقال الشافعى للرجل: أيهما أكثر صياحا قمريك أم سكوته؟.

فقال له الرجل: بل صياحه. فقال له الشافعى لاطلاق عليك. فعلم بذلك مالك. فقال للشافعى: من أين لك هذا؟ فقال له الشافعى لأنك حدثتنى عن الزهرى عن أبى مسلمة بن عبد الرحمن عن أم سلمة أن فاطمة بنت قيس قالت:

---

(١) القمارى جمع قمرى والقمرى منسوب إلى طير (مختار الصحاح).

يا رسول الله. إن أبا جهم ومعاوية خطباني فقال ﷺ : أما معاوية فصعلوك لا مال له. وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه.

وإن رسول الله ﷺ يعلم أن أبا جهم يأكل وينام ويستريح وقد قال ﷺ لا يضع عصاه على المجاز والعرب تجعل أغلب الفعلين كمداومته. ولما كان صياح قمرى هذا أكثر من سكوته جعلته كصياحه دائما.

فتعجب الإمام مالك من احتجاجه وقال له: أفت فقد آن لك أن تفتى وبهذا أذن للشافعي بالإفتاء مرتين من أكبر شيوخه (مسلم بن خالد ومالك) رضى الله عنهما.

فى سنة ١٨٦ هـ عاد الإمام الشافعي رضى الله عنه إلى مكة المكرمة كما تعود النحلة إلى خليتها وقد امتصت من يانع الزهر وشهى الثمار لتخرج للناس عسلا مصفى وشرابا سائغا.

عاد إلى مكة وقد حفظ فقه العراقيين بعد أن حصل فقه الحجازيين وبذلك تكونت عنده حصيلة علمية فقهية عظيمة وقد اكتسب فى رحلاته المتعددة خبرة بأحوال المسلمين واسعة مع ما يحمله من قدرات عقلية كبيرة كل هذا أوجد عنده سعة فى الفهم وقدرة على التحليل والاستنتاج والاستنباط ففاق — بذلك — أقرانه وزملاءه.

عاد إلى مكة وهى يومئذ تعج بالعلماء وطلاب العلم الوافدين من شتى بقاع العالم الإسلامى. وجلس يلقى دروسه فى المسجد الحرام. وكثر طلابه واتسعت حلقة درسه. وقد وجد طلاب العلم عنده ما لم يجدوه عند غيره من العلماء فعلا صيته وانتشر خبره وذاع أمره وكان من أبرز تلاميذه الإمام الجليل أحمد بن محمد بن حنبل رضى الله عنه، قيل للإمام أحمد وهو فى مجلس الإمام الشافعي بالمسجد الحرام:

هذا سفيان بن عيينة فى ناحية المسجد يحدث، فقال الإمام أحمد: (هذا يفوت وذاك لا يفوت).

وفى مكة المكرمة كثر عطاء الإمام الشافعي وانتشرت آراؤه بين العلماء

وطلاب العلم ولما كان العصر عصر وضع المناهج أخذ الإمام فى وضع مبادئ علم أصول الفقه وقواعده . وبحث فى مسائله وقضاياه .

وظل الشافعى بمكة تسع سنوات قضاها بين التدريس والفتوى والبحث فى الأصول . ثم لم يلبث أن تطلع إلى السفر إلى بغداد بالعراق مرة أخرى ونزلها فى سنة ١٩٥ هـ كما ينزل الغيث الهتون على الأرض الطيبة وأخذ يتنقل بين ربوع بغداد فأقبل العلماء والمحدثون ينهلون من علمه ويتزودون من علمه .

وعندما نزل بغداد كان الرشيد قد لقى ربه وتولى ابنه المأمون . وكذلك توفى الإمام محمد بن الحسن الشيبانى . فحزن الشافعى لفقده . ونزل على محمد ابن حسان الزيادى . وكان من أكابر علماء الحنفية فى ذلك الوقت فانضم إلى الشافعى جماعة من علماء العراق وأخذوا عنه . وهناك أملى عليهم كتبه التى وضعها بمكة . فأخذوا عنه الرسالة فى أصول الفقه وكتاب جماع العلم وكتاب إبطال الاستحسان . ثم أملى عليهم كتابه (الحجة) وفيه مذهبه العراقى (القديم) .

قضى الشافعى ببغداد عامين أو أكثر عمل فيهما على نشر آرائه وبث مناهجه ومذهبه بين أهل العراق . ثم عاد إلى الحجاز وظل به عاما واحدا . يدرس لطلابه بالحجاز ويؤلف كتبه . ثم عاد إلى العراق مرة أخرى فأقام بها أشهرا يدرس العلم ويناظر العلماء . وفى المرتين الأخيرتين كان يلتقى به تلميذه الإمام أحمد بن حنبل كما تبعه فى العراق أخص تلاميذه : أبو ثور والكرابيسى والزعفرانى وغيرهم ممن تحملوا مذهبه القديم واشتغلوا به بقية أعمارهم . وهناك رأى الشافعى المأمون وقد قرب منه المعتزلة وأخذت الصراعات على أشدها بالعراق بين أهل السنة والمعتزلة وهنا قرر الإمام الشافعى أن يسافر إلى مصر لأنها بلد خال من الصراعات .

● الهجرة إلى مصر :

لم يرض الشافعى عن الإقامة فى ظل الغلبة الفارسية ولا أن يقيم فى دار الخلافة بعد أن قرب الخليفة المأمون منه المعتزلة بزعامة أحمد بن أبى دؤاد باعث

الفتنة . وأبعد الفقهاء وعلماء أهل السنة فقرر الهجرة إلى مصر التى حفظها الله تعالى من مثل هذه الصراعات التى تهدم ولا تبنى .كما أن مصر تتوسط العالم الإسلامى فى ذلك الوقت . ويقيم فيها الكبار من تلاميذ الإمام مالك رضى الله عنه . وكان حاكمها عربيا قرشيا عباسيا فاكرم لقاء الشافعى ورحب به فى مصر وأجرى عليه حصة من بيت المال كونه قرشيا مطلبيا لأن النبى ﷺ سوى بين بنى هاشم وبنى المطلب فى العطاء .

نزل الشافعى مصر فى سنة ١٩٩ هـ وبعد استقبال الخليفة له استضافة عبد الله بن الحكم وكان من أكابر علماء المالكية فى مصر . وكان الشافعى قد تعرف عليه بالمدينة عند الإمام مالك رضى الله عنه . وأملى عليه الشافعى موطأ الإمام مالك رضى الله عنه .

ولما جاء الشافعى رضى الله عنه إلى مصر أخذ يلقى دروسه فى مسجد عمرو بن العاص رضى الله عنهما . وكان مذهبا مالك وأبو حنيفة منتشرين فى مصر .

وفى مصر وضع كتابه العظيم « الأم » وفيه رجع عن بعض آرائه لتغير المناخ العلمى فى مصر عنه فى الحجاز وفى العراق .

ورد فى دائرة الشعب : (قدم الشافعى مصر وكان الغالب على المصريين المذهب المالكى والمذهب الحنفى . فنشر مذهبه بها ودون كثيرا من الكتب) .

ومما هو جدير بالذكر أن الإمام الشافعى رضى الله عنه التقى فى مصر بالسيدة الجليلة الحسيبة النسيبة سيدتنا نفيسة العلم والمعرفة ذات القرابة القريبة من إمامنا الجليل محمد بن إدريس الشافعى رضى الله عنهما لقد كان يحضر مجالسها تسمع منه ويسمع منها . وروى أنه كان يصلى بها التراويح فى شهر رمضان من كل عام إلى أن توفى رحمه الله تعالى .

وفى مصر التف حوله جمع كبير من العلماء ومن طلاب العلم استحسانا لعلمه وحبا فى منهجه ورغبة فى نوال بركته فهو القرشى المطلبى من أبناء عمومة

المصطفى ﷺ . حتى كون مدرسة فقهية شافعية قوية بمصر وما زال مذهبه منتشرا فى ربوع مصر مدنها وقراها إلى يومنا هذا .

وقد بلغه وهو فى مصر أن أهل الأندلس يأخذون قلنسوة الإمام مالك ويتبركون بها فأراد أن يعرفهم بأن الإمام مالك ليس إلا عالما من علماء المسلمين فوضع كتابه «اختلاف مالك» وفيه نقد المذهب المالكى ليعرف الناس أن الإمام مالك شأنه شأن غيره من العلماء يخطئ ويصيب .

وفى مصر شعر الإمام الشافعى بالغربة وأخذه الحنين إلى موطنه ومسقط رأسه ولكن منعه من ذلك طموحه فى نشر العلم فى بلدان المسلمين شرقا وغربا . يقول :

سأضرب فى طول البلاد وعرضها ... أنال مرادى أو أموت شهيدا
فإن تلفت نفسى فالله درها ... وإن سلمت كان الرجوع قريبا

وقال أيضا :

مشيناها خطى كتبت علينا ... ومن كتبت عليه خطا مشاها
ومن كانت منيته بأرض قوم ... فليس يموت فى أرض سواها

● وفاة الإمام الشافعى :

قال الربيع بن سليمان صاحب الإمام الشافعى رضى الله عنه :

رأيت فى المنام أن آدم مات - ﷺ - ويريدون أن يخرجوا بجنازته فلما أصبحت سألت بعض أهل العلم عن ذلك فقالوا : هذا موت أعلم أهل الأرض إن الله عز وجل علم آدم الأسماء كلها . فما كان إلا يسيرا حتى مات الشافعى رضى الله عنه .

عاش الشافعى فى مصر خمس سنوات وتسعة أشهر قضاها فى نشر العلم والمعرفة حتى مرض مرض الوفاة . فدخل عليه المزنى أحد أتباعه فقال له : كيف أصبحت؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلا وللإخوان مفارقا ولسوء عملى ملاقيا

ولكأس المنية شاربا وعلى الله واردًا فلا أدرى أروحى تصير إلى الجنة فاهنيها أم إلى النار فاعزيها . ثم قال :

ولما قسـا قلبى وضـاقت مـذاهبى   جعلت رجائى نحو عفوك ربى سلما
تعـاظمنى ذنبى فلمـا قـرنتـه   بعـفـوك ربى كـان عـفـوك أعظمـا
ومـا زلت عـفـوا عن الذنب الذى لم   تزل تجـود وتعـفـو منة وتكرمـا

وأوصى قبل موته أن يمروا بجنازته على بيت السيدة : نفيسة رضى الله عنها ففعلوا وصلت عليه السيدة نفيسة رضى الله عنها [1] ثم قالت : (رحم الله الشافعى قد كان رجلا يحسن الوضوء) .

وسمع أحد الأولياء من يقول : غفر الله للشافعى بصلاة السيدة نفيسة عليه وغفر لمن صلى على الشافعى بالشافعى .

مات رضى الله عنه فى ليلة الجمعة ودفن فى عصرها (٢٩ من رجب ٢٠٤ هـ - ١٩ يناير ٨٢٠) وله من العمر أربع وخمسون عاما ودفن بالقرافة بمقابر بنى عبد الحكم بمصر بمسجده العامر وله قبة مشهورة ويزوره الناس من كل فج حبا فيه وتبركا .

قال الربيع بن سليمان : توفى الشافعى رحمه الله ليلة الجمعة بعد المغرب وأنا عنده ودفن يوم الجمعة بعد العصر آخر يوم من رجب وانصرفنا من جنازته ورأينا هلال شعبان سنة أربع ومائتين من الهجرة .

يقول البوصيرى رحمه الله تعالى :

لقبـة قبـر الشـافـعى سـفـينة   رست فى بناء محكم فوق جلمود
ولقد غاص طوفان العلوم بقبر اسـ   ـتوى من ذاك الضريح على الجودى

وقال آخـر :

أتيت لقـبـر الشـافـعى أزوره   فـوجـدنا فلكا ومـا عنده بحـر
فـقلت تعـالى تلك إشـارة   تشير بأن البحر قد ضمه قبر

---

(١) صلت عليه مأمومة خلف أبى يعقوب البويطى .

هذا وقد شيعه المصريون إلى مثواه الأخير فى حزن شديد وبكاء وعويل رحمه الله رحمة واسعة وأجزل له فى العطاء.

● زوجته وأولاده:

كان رضى الله عنه متزوجا بامرأة تسمى: حميدة بنت نافع بن عقبة بن عمرو بن عثمان بن عفان رضى الله عنه.

فولدت له: أبا عثمان: محمدا. الذى كان قاضيا بحلب. وفاطمة وزينب وللإمام الشافعى ولد آخر يسمى: الحسن مات طفلا وأمه: أم ولد كذا نقله الرازى.

وليس عبد الله ولدا له وإنما هى كنية كنى بها الشافعى رضى الله عنه ولم ينقل لنا التاريخ أن الإمام الشافعى رضى الله عنه كان متزوجا بأخرى ولم ينجب أولادا سوى هؤلاء رضى الله عنه وأرضاه.

* * *

الإمام الشافعي يروى رحلاته

لندع سيدنا الإمام الشافعي رضى الله عنه يحدثنا عن حياته ورحلة جهاده وكفاحه فى سبيل طلب العلم وتحصيله وتدريسه ونشره فى العالمين.

روى صاحب كتاب «نور الأبصار» (١) قال: قال الشيخ الإمام العالم المقرى أبو القاسم: عبد العزيز بن يوسف الأردبيلى المالكى بالجامع العتيق بمصر فى سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة أخبرنا الشيخ أبو محمد: عبد الله بن فتح المعروف بابن الحبشى سنة ثلاثين وخمسمائة. أخبرنا الشريف القاضى الموسوى ابن إسماعيل بن الحسينى المقرى فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة بالجامع العتيق بمصر قال: أخبرنا الشيخ أبو العباس أحمد بن إبراهيم الفارسى فى ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وأربعمائة قال: أخبرنا يحيى بن عبد الله الرجل الصالح ويحيى ابن موسى المعدل بمصر قالا: حدثنا أبو الحسن أحمد بن محمد الواعظ المصرى الكراز قال: حدثنى أبو الفرج: عبد الرزاق حميدان البطين. قال: حدثنى أبو بكر محمد بن المنذر قال: حدثنى الربيع بن سليمان قال: سمعت الإمام الشافعى رضى الله عنه يقول: فارقت مكة وأنا ابن أربع عشرة سنة لا نبات يعارضى من الأبطح إلى ذى طوى وعلى بردتان يمانيتان فرأيت ركبا فسلمت عليهم فردوا على السلام ووثب إلى شيخ كان فيهم قال: سألتك بالله إلا ما حضرت طعامنا قال الشافعى رضى الله عنه وما كنت أعلم أنهم أحضروا طعاما فأجبت مسرعا غير محتشم. فرأيت القوم يأخذون الطعام بالخمس ويدفعون بالراحة فأخذت كأخذهم كى لا يستبشع عليهم ماكلى والشيخ ينظر إلى ثم أخذت السقاء فشربت وحمدت الله وأثنيت عليه فاقبل على الشيخ وقال: أمكى أنت؟ قلت: مكى قال: أقريشى أنت؟ قلت: قريشى ثم أقبلت عليه وقلت: يا عم بما استدللت على؟ قال: أما فى الحضر فبالزى. وأما فى النسب فباكل الطعام لأنه من أحب أن يأكل طعام الناس أحب أن يأكلوا طعامه وذلك فى قريش خصوصا،

---

(١) تأليف الشيخ سيد الشبلنجي من ص ٤٥٤ وما بعدها.

قال الشافعي رضى الله عنه: فقلت للشيخ من أين أنت؟ قال: من يثرب مدينة رسول الله ﷺ. فقلت له من العالم بها والمتكلم فى نص كتاب الله تعالى والمفتى بأخبار الرسول ﷺ؟ قال: سيدى ابن أصبح: مالك بن أنس رضى الله عنه قال الشافعي رضى الله عنه فقلت: واشوقاه إلى مالك. فقال لى: قد بل الله شوقك. انظر إلى هذا البعير الأورق فإنه أحسن جمالنا ونحن على رحيل ولك منا حسن الصحبة حتى تصل إلى مالك فما كان غير بعيد حتى قطروا بعضها إلى بعض وأركبونى البعير الأورق، وأخذ القوم فى السير وأخذت أنا فى الدرس فختمت من مكة إلى المدينة ست عشرة ختمة بالليل ختمة وبالنهار ختمة. ودخلت المدينة فى اليوم الثامن بعد صلاة العصر فصليت العصر فى مسجد رسول الله ﷺ ودنوت من القبر فسلمت على النبى ﷺ ولذت بقبره. فرأيت مالك بن أنس متزرا ببرده متشحا بأخرى، قال: حدثنى نافع عن ابن عمر عن صاحب هذا القبر وضرب بيده إلى قبر رسول الله ﷺ. قال الشافعي رضى الله عنه: فلما رأيت ذلك هبته مهابة عظيمة وجلست حيث انتهى بى المجلس فأخذت عودا من الأرض فجعلت كلما أملى مالك حديثا كتبته بريقى على يدى. والإمام مالك رضى الله عنه ينظر إلى من حيث لا أعلم حتى انقضى المجلس. وانتظرنى مالك أن أنصرف فلم يرنى انصرفت فأشار إلى فدنوت منه. فنظر إلى ساعة ثم قال: أحرمى أنت؟ قلت: حرمى. قال: أمكى أنت؟ قلت: مكى قال: أقريشى أنت؟ قلت: قريشى. قال: كملت أوصافك لكن فيك إساءة أدب قلت: وما الذى رأيت من سوء أدبى؟ قال: رأيتك وأنا أملى ألفاظ الرسول عليه الصلاة والسلام تلعب بريقك على يدك. فقلت له: عدمت البياض. فكنت أكتب ما تقول فجذب مالك يدى إليه فقال: ما أرى عليها شيئا فقلت: إن الريق لا يثبت على اليد ولكن فهمت جميع ما حدثت به منذ جلست وحفظته إلى حين قطعت.

فتعجب الإمام مالك من ذلك. فقال: أعد علىَّ ولو حديثا واحدا.

قال الشافعي رضى الله عنه: فقلت حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر وأشرت بيدى إلى القبر (الشريف) كإشارته حتى أعدت عليه خمسا وعشرين حديثا حدث بها من حين جلس إلى وقت قطع المجلس وسقط القرص. فصلى

مالك المغرب، وأقبل على عبده وقال: خذ بيد سيدك إليك وسألنى النهوض معه قال الشافعى رحمه الله: فقمت غير ممتنع إلى ما دعا من كرمه. فلما أتيت الدار أدخلنى الغلام إلى خلوة فى الدار وقال لى: القبلة فى البيت هكذا. وهذا إناء فيه ماء. وهذا بيت الخلاء.

قال الشافعى رضى الله عنه: فما لبث مالك رضى الله عنه حتى أقبل هو والغلام حاملا طبقا فوضعه من يده. وسلم الإمام علىَّ: ثم قال للعبد أغسل علينا. ثم وثب الغلام إلى الإناء وأراد أن يغسل على أولا فصاح عليه مالك وقال: الغسل فى أول الطعام لرب البيت وفى آخر الطعام للضيف قال الشافعى رضى الله عنه: فاستحسنت ذلك من الإمام مالك رضى الله عنه وسألته عن شرحه. فقال: إنه يدعو الناس إلى كرمه فحكمه أن يبتدئ بالغسل وفى آخر الطعام ينتظر من يدخل فيأكل معه، قال الشافعى رضى الله عنه: فكشف الإمام رضى الله عنه الطبق فكان فيه صفحتان فى إحداهما لبن والأخرى تمر فسمى الله تعالى وسميت فأتيت أنا ومالك على جميع الطعام. وعلم مالك أنا لم نأخذ من الطعام الكفاية فقال لى: يا أبا عبد الله هذا جهد من مقل إلى فقير معدم، فقلت: لا عذر على من أحسن إنما العذر على من أساء.

قال الشافعى: فأقبل مالك يسألنى عن أهل مكة حتى دنت العشاء الآخرة ثم قام عنى. وقال: حكم المسافر أن يقل تعبه بالاضطجاع فنمت ليلتى فلما كان فى الثلث الأخير من الليل قرع على مالك الباب فقال لى: الصلاة يرحمك الله فرأيته حامل إناء فيه ماء. فتبشع على ذلك فقال: لا يرعك ما رأيته فخدمة الضيف فرض.

قال الشافعى رضى الله عنه: فتجهزت للصلاة وصليت الفجر مع الإمام مالك فى مسجد رسول الله ﷺ والناس لا يعرفون بعضهم بعضا من شدة الغلس. وجلس كل واحد منا فى مصلاه يسبح الله تعالى إلى أن طلعت الشمس على رءوس الجبال، فجلس مالك فى مجلسه بالأمس وناولنى «الموطأ» أمليه وأقرؤه على الناس. وهم يكتبونه.

قال الشافعي رضى الله عنه : فأتيت على حفظه من أوله إلى آخره . وأقمت ضيف مالك ثمانية أشهر فما علم أحد من الأنس الذى كان بيننا أينا الضيف .

ثم قدم على مالك المصريون بعد قضاء حجهم للزيارة واستماع «الموطأ» .

قال الشافعي : فأمليت عليهم حفظا منهم : عبد الله بن الحكم وأشهب وابن القاسم . قال الربيع : وأحسب أنه ذكر . الليث بن سعد . ثم قدم بعد ذلك أهل العراق لزيارة النبى ﷺ قال الشافعى رضى الله عنه : فرأيت بين القبر والمنبر (الروضة الشريفة) فتى جميل الوجه نظيف الثوب حسن الصلاة . فتوسمت فيه خيرا فسألته عن اسمه فأخبرنى وسألته عن بلده فقال : العراق فقلت أى العراق؟ فقال لى : الكوفة . فقلت من العالم بها والمتكلم فى نص الكتاب والمفتى بأخبار رسول الله ﷺ ؟

فقال لى : أبو يوسف ومحمد بن الحسن صاحبا أبى حنيفة رضى الله عنه . فقال الشافعى رضى الله عنه فقلت : ومتى عزمتم تظعنون؟ فقال لى : فى غداة غد وقت الفجر . فعدت إلى مالك . فقلت له : خرجت من مكة فى طلب العلم بغير استئذان العجوز فأعود إليها أو أرحل فى طلب العلم . فقال لى : العلم فائدة يرجع منها إلى فائدة، ألم تعلم أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلبه .

قال الشافعى رضى الله عنه : فلما أزمعت السفر زودنى الإمام مالك رضى الله عنه . فلما كان السحر سار معى مشيعا إلى البقيع ثم صاح بعلو صوته من يكرى راحلته إلى الكوفة؟ فاقبلت عليه وقلت : بم تكرى وليس معك ولا معى شئ؟ فقال لى : انصرفت البارحة بعد صلاة العشاء إذ قرع قارع علىّ الباب . فخرجت إليه فأصبت ابن القاسم فسألنى قبول هديته فقبلتها، فدفع إلى صرة فيها مائة دينار . وقد أتيتك بنصفها وجعلت النصف لعيالى . فاكترى لى بأربعة دنانير ودفع إلى باقى الدنانير وودعنى وانصرف وصرت فى جملة الحاج حتى وصلت إلى الكوفة يوم رابع وعشرين من المدينة . فدخلت المسجد بعد صلاة العصر وصليت العصر، بينما أنا كذلك إذا رأيت غلاما قد دخل المسجد وصلى

العصر فما أحسن الصلاة . فقمت إليه ناصحا . فقلت له : أحسن صلاتك لئلا يعذب الله هذا الوجه الجميل بالنار .

فقال لى : أنا أظن أنك من أهل الحجاز لأن فيكم الغلظة والجفاء وليس فيكم رقة أهل العراق وأنا أصلى هذه الصلاة خمس عشرة سنة بين يدى محمد ابن الحسن وأبى يوسف فما عابا علىَّ صلاتى قط، وخرج معجبا ينفض رداءه فى وجهى فلقى للتوفيق محمد بن الحسين وأبا يوسف بباب المسجد، فقال : أعلمتما فى صلاتى من عيب؟ فقالا : اللهم لا . قال ففى مسجدنا هذا من عاب صلاتى فقالا : اذهب إليه فقل له : بم تدخل فى الصلاة؟ .

قال الشافعى رضى الله عنه : فقال لى : يا من عاب صلاتى بم تدخل فى الصلاة؟

فقلت : بفرضين وسنة . . فعاد إليهما وأعلمهما بالجواب فعلما أنه جواب من نظر فى العلم .

فقالا : إذهب إليه . فقل له : ما الفرضان وما السنة؟

فأتى إلىَّ فقال : ما الفرضان وما السنة؟ فقلت له : أما الفرض الأول : فالنية والثانى : تكبيره الإحرام والسنة : رفع اليدين فعاد إليهما فأعلمهما بذلك فدخلا المسجد فنظرا إلىَّ أظنهما ازدريانى فجلسا فى ناحية . وقالا : اذهب إليه وقل له : أجب الشيخين .

قال الشافعى رضى الله عنه : فلما أتانى علمت أنى مسئول عن شئ من العلم فقلت من حكم العلم أن يؤتى إليه . وما علمت لى إليهما حاجة . قال الشافعى رضى الله عنه : فقاما من مجلسهما إلىَّ فلما سلما علىَّ قمت إليهما . وأظهرت البشاشة لهما وجلست بين يديهما . فاقبل على محمد بن الحسن قال : أحرمى أنت؟ فقلت : نعم، فقال : أعربى أم مولى؟ فقلت : عربى . فقال : من أى العرب؟ فقلت : من ولد المطلب قال : من ولد من؟ قلت : من ولد شافع قال : رأيت مالك؟ قلت : من عنده أتيت قال لى : نظرت فى الموطأ؟ قلت : أتيت على حفظه . فعظم ذلك عليه ودعا بدواة وبياض وكتب مسألة فى الطهارة ومسألة فى

الزكاة ومسألة فى البيوع والفرائض والرهان والحج والإيلاء ومن كل باب فى الفقه مسألة وجعل بين كل مسألتين بياضا ودفع إلى الدرج وقال: أجب عن هذه المسائل كلها من الموطأ.

قال الشافعى رضى الله عنه: فاجبت بنص كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وإجماع المسلمين فى المسائل كلها. ثم دفعت إليه الدرج فتأمله ونظر فيه. ثم قال لعبده: خذ سيدك إليك قال الشافعى رضى الله عنه: ثم سألنى النهوض مع العبد فنهضت غير ممتنع فلما صرت إلى الباب قال لى العبد: إن سيدى أمرنى ألا تصير إلى المنزل إلا راكبا قال: فقلت له: قدم إلى بغلة بسرج محلى فلما علوت على ظهرها رأيت نفسى بأطمار رثة فطاف أزقة الكوفة إلى منزل محمد بن الحسن فرأيت أبوابا ودهاليز منقوشة بالذهب والفضة فذكرت ضيق أهل الحجاز وما هم فيه فبكيت. وقلت: أهل العراق ينقشون سقوفهم بالذهب والفضة وأهل الحجاز يأكلون القديد ويمصون النوى ثم أقبل على محمد ابن الحسن وأنا فى بكائى وقال: لا يرعك يا أبا عبد الله ما رأيت فما هو إلا من حقيقة حلال ومكتسب. وما يطالبنى الله فيها بفرض وإنى أخرج زكاتها فى كل عام فأسرّ بها الصديق وأكبت بها العدو.

قال الشافعى: فما بتُّ حتى كسانى محمد بن الحسن خلعة بألف درهم ثم دخل خزانته فأخرج إلى الكتاب الأوسط تأليف الإمام أبى حنيفة فنظرت فى أوله وفى آخره. ثم ابتدأت الكتاب فى ليلتى أتحفظه. فما أصبحت إلا وقد حفظته ومحمد بن الحسن لا يعلم بشئ من ذلك وكان المشهور بالكوفة بالفتوى والمجيب فى النوازل، فأنا قاعد عن يمينه فى بعض الأيام إذ سئل عن مسألة.

أجاب فيها وقال: هكذا قال أبو حنيفة. فقلت له: قد وهمت فى الجواب فى هذه المسألة والجواب من قول الرجل كذا وكذا وهذه المسألة الفلانية وفوقها المسألة الفلانية فى الكتاب الفلانى فأمر محمد بن الحسن بالكتاب فأحضر فتصفحه ونظر فيه. فوجد القول كما قلت فرجع عن جوابه إلى ما قلت ولم يخرج إلىَّ كتابا بعد هذا.

قال الشافعي : فاستأذنته في الرحيل. فقال : ماكنت لآذن لضيف بالرحيل عنى. وبذل لى مشاطرة نعمته. فقلت مالذا قصدت ولا لذا أردت ولا رغبتى إلا فى السفر قال : فأمر غلامه أن يأتى ما فى خزانته من بيضاء وحمراء فدفع إلى ماكان فيها وهو ثلاثة آلاف درهم وأقبلت أطوف العراق وأرض فارس وبلاد الأعاجم وألقى الرجال حتى صرت ابن إحدى وعشرين سنة ثم دخلت العراق فى خلافة هارون الرشيد فعند دخول الباب تعلق بى غلام فلاطفنى وقال لى : ما اسمك؟ فقلت : محمد فقال ابن من؟ قلت ابن إدريس الشافعى فقال : مطلبى؟ فقلت : أجل فكتب ذلك فى لوح كان فى كمه وخلى سبيلى فأويت إلى بعض المساجد أفكر فى عاقبة ما فعل حتى إذا ذهب من الليل النصف كبس المسجد وأقبلوا يتأملون وجه كل رجل حتى أتوا إلىَّ. فقالوا للناس لا بأس عليكم هذا هو الحاجة والغاية المطلوبة. ثم أقبلوا على وقالوا : أجب أمير المؤمنين فقمت غير ممتنع فلما بصرت بأمير المؤمنين سلمت عليه سلاما بينا فاستحسن الألفاظ ورد على الجواب ثم قال : تزعم أنك من بنى المطلب فقلت يا أمير المؤمنين كل زعم فى كتاب الله باطل فقال ابن لى عن نسبك فانتسبت حتى لحقت آدم عليه السلام فقال لى الرشيد : ما تكون هذه الفصاحة ولا هذه البلاغة إلا فى رجل من ولد المطلب هل لك أن أوليك قضاء المسلمين. وأشاطرك ما أنا فيه وتنفذ فيه حكمك وحكمى على ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام. واجتمعت عليه الأمة. فقلت : يا أمير المؤمنين لو سألتنى أن أفتح باب القضاء بالغداة وأغلقه بالعشى بنعمتك هذه ما فعلت ذلك أبدا فبكى الرشيد وقال : تقبل من عرض الدنيا شئ. قلت : يكون معجلا فأمر لى بألف دينار فما برحت من مقامى حتى قبضتها ثم سألنى بعض الغلمان والحشم أن أصلهم من صلتى : فلم تسع المروءة أن كنت مسئولا غير المقاسمة فيما أنعم الله به على، فخرج لى قسم كأقسامهم ثم عدت إلى المسجد الذى كنت فيه فى ليلتى فتقدم يصلى بنا غلام صلاة الفجر فى جماعة فأجاد القراءة ولحقه سهو فلم يدر كيف الدخول ولا كيف الخروج فقلت له بعد السلام : أفسدت علينا وعلى نفسك أعد فأعاد مسرعا وأعدنا، ثم قلت له أحضر بياضا أعمل لك باب السهو فى الصلاة والخروج منها. فسارع إلى ذلك.

ففتح الله عز وجل فالفت كتابا من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وإجماع المسلمين وسميته باسمه وهو أربعون جزءا يعرف بكتاب الزعفراني – وهو الذى وضعته بالعراق حتى تكامل فى ثلاث سنين وولانى الرشيد الصدقات بنجران وقدم الحاج فخرجت أسالهم عن الحجاز فرأيت فتى فى قبته فلما أشرت إليه بالسلام أمر قائد القبة أن يقف وأشار إلى بالكلام فسألته عن الإمام مالك وعن الحجاز فأجاب بخير ثم عاودته إلى السؤال عن مالك فقال: أشرح لك أو أختصر؟ قلت: فى الاختصار البلاغة فقال: فى صحة جسم وله ثلاثمائة جارية. يبيت عند الجارية ليلة فلا يعود إليها إلى سنة فقد اختصرت لك خبره. قال الشافعى رضى الله عنه فاشتهيت أن أراه فى حال غناه كما رأيته فى حال فقره. فقلت له أما عندك من المال ما يصلح للسفر فقال: إنك لتوحشنى خاصة وأهل العراق عامة وجميع ما لى فيه لك فقلت له فبم تعيش؟ قال: بالجاه. ثم نظر إلى. وحكمنى فى ماله فأخذت منه على حسب الكفاية والنهاية وسرت على ديار ربيعة ومضر فأتيت حران ودخلتها يوم الجمعة فذكرت فضل الغسل وما جاء فيه فقصدت الحمام فلما سكبت الماء رأيت شعر رأسى شعثا فدعوت المزين فلما بدأ برأسى وأخذ القليل من شعرى دخل قوم من أعيان البلد فدعوه فسار إليهم وتركنى فلما قضوا ما أرادوا منه. عاد إلى فما أردته وخرجت من الحمام فدفعت إليه أكثر ما كان معى من الدنانير وقلت له: خذ هذه وإذا وقف بك غريب لا تحقره. فنظر إلىَّ متعجبا فاجتمع على باب الحمام خلق كثير فلما خرجت عاتبنى الناس فبينما أنا كذلك إذ خرج بعض من كان فى الحمام من الأعيان فقدمت له بغلة ليركبها فسمع خطابى له فانحدر عن البغلة بعد أن استوى عليها وقال لى: أنت الشافعى؟ فقلت: نعم. فمد الركاب مما يلينى، وقال: بحق الله أركب ومضى بى الغلام مطرقا بين يدى حتى أتيت إلى منزل الفتى ثم أتى وقد حصلت فى منزله فاظهر البشاشة. ثم دعا بالغسل فغسل علىّ ثم حضرت المائدة فسمى وحبست يدى فقال مالك يا عبد الله فقلت له: طعامك حرام علىَّ حتى أعرف من أين هذه المعرفة؟ فقال: أنا ممن سمع منك الكتاب الذى وضعته ببغداد وأنت لى أستاذ. قال الشافعى رضى الله عنه: فقلت

العلم بين أهل العقل رحم متصلة فأكلت بفرحة إذ لم يعرف الله تعالى إلا بينى وبين أبناء جنسى. فأقمت عنده ثلاثا فلما كان بعد ثلاث قال لى: حول حران أربع ضياع ما بنجران أحسن منها أشهد الله إن اخترت المقام فإنها هدية منى إليك فقلت له: فبم تعيش. قال: بما فى صناديقى تلك وأشار إليها وهى أربعون ألف درهم وقال: أتجربها فقلت: ليس إلى هذا قصدت ولا خرجت من بلدى إلا فى طلب العلم. فقال لى: فالمال إذا من شأن المسافر فقبضت أربعين ألفا وودعته. وخرجت من مدينة حران وبين يدى أحمال ثم تلقانى الرجال وأصحاب الحديث منهم: أحمد بن حنبل وسفيان بن عيينة والأوزاعى فأجزت كل واحد منهم على قدر ما قسم الله له حتى دخلت مدينة الرملة وليس معى إلا عشرة دنانير فاشتريت بها راحلة واستويت على كورها وقصدت الحجاز فما زلت من منهل إلى منهل حتى قصدت مدينة النبى ﷺ بعد سبعة وعشرين يوما بعد صلاة العصر. فصليت العصر ورأيت كرسيا من الحديد عليه مخدة من قباطى مصر مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

قال الشافعى رضى الله عنه وحوله أربعمائة دفتر أو يزيدون بينما أنا كذلك إذ رأيت مالك بن أنس رضى الله عنه. فدخل من باب النبى ﷺ وقد فاح عطره فى المسجد وحوله أربعمائه أو يزيدون يحمل ذيوله منهم أربعة فلما وصل قام إليه من كان قاعدا وجلس على الكرسى فالقى مسألة فى جراح العمد فلما سمعت ذلك لم يسعنى الصبر فقمت قائما فى سور الحلقة فرأيت إنسانا فقلت له: قل الجواب كذا وكذا فبادر بالجواب قبل فراغ مالك من السؤال فاضرب عنه مالك وأقبل على أصحابه فسألهم عن الجواب. فخالفوه. فقال لهم: أخطأتم وأصاب الرجل ففرح الجاهل بإصابته فلما ألقى السؤال الثانى: أقبل عليّ الجاهل يطلب منى الجواب فقلت له: الجواب كذا وكذا فبادر بالجواب فلم يلتفت إليه مالك وأقبل على أصحابه واستخبرهم عن الجواب فخالفوه فقال لهم أخطأتم وأصاب الرجل.

قال الشافعى رضى الله عنه: فلما ألقى السؤال الثالث: قلت له قل الجواب كذا وكذا فبادر بالجواب فأعرض مالك وأقبل على أصحابه فخالفوه فقال أخطأتم وأصاب الرجل. ثم قال للرجل: ادخل ليس ذلك موضعك فدخل الرجل طاعة منه لمالك. وجلس بين يديه. فقال له مالك فراسة قرأت الموطأ؟ قال: لا قال: فنظرت ابن جريج؟ قال: لا. قال: فلقيت جعفر بن محمد الصادق؟ قال: لا قال: فهذا العلم من أين؟ قال: إلى جانبى غلام شاب يقول لى قل الجواب كذا وكذا فكنت أقول. فالتفت مالك والتفت الناس بأعناقهم لالتفات مالك رضى الله عنه. فقال للجاهل: قم فأمر صاحبك بالدخول إلينا.

قال الشافعى رضى الله عنه: فدخلت فإذا أنا من مالك بالموضع الذى كان الجاهل فيه جالسا بين يديه فتأملنى ساعة. وقال: أنت الشافعى؟ فقلت: نعم فضمنى إلى صدره ونزل عن كرسيه وقال: أتمم هذا الباب الذى نحن فيه حتى ننصرف إلى المنزل الذى هو لك المنسوب إلىَّ.

قال الشافعى رضى الله عنه: فألقيت أربعمائة مسألة فى جراح العمد. فما أجابنى أحد بجواب واحتجت أن آتى بأربعمائة جواب فقلت الأول كذا وكذا والثانى كذا وكذا حتى سقط القرص وصلينا المغرب فضرب مالك بيده إلىَّ فلما وصلت المنزل رأيت بناء غير الأول فبكيت فقال: بم بكاؤك كأنك خفت يا أبا عبد الله أن قد بعت الآخرة بالدنيا؟ قلت: هو والله ذلك. قال: طب نفسا وقر عينا هذه هدايا خراسان وهدايا مصر والهدايا تجئ من أقاصى الدنيا وقد كان النبى ﷺ يقبل الهدايا ويرد الصدقة وإن لى ثلاثمائة خلعة من ورق خراسان وقباطى مصر وعندى عبيد بمثلها لم تستكمل الحلم فهم هدية منى إليك وفى صناديقى تلك خمسة آلاف دينار أخرج زكاتها عند كل حول فلك منى نصفها قلت إنك موروث وأنا موروث فلا يبيت جميع ما دعوتنى به إلا تحت خاتمى ليجرى ملكى عليه. فإن حضرنى أجلى كان لورثتى دون ورثتك وإن حضرك أجلك كان لى دون ورثتك فتبسم فى وجهى وقال: أبيت إلا العلم فقلت: لا يستعمل أحسن منه. وما بت إلا وجميع ما وعدنى تحت خاتمى فلما كان فى غداة صليت الفجر فى جماعة وانصرفت إلى المنزل أنا وهو وكل واحد منا يده فى

يد صاحبه إذ رأيت كراعا على بابه من جياد خراسان وبغلا من مصر فقلت له ما رأيت كراعا أحسن من هذا فقال: هو هدية منى إليك يا أبا عبد الله. فقلت له دع لك منها دابة فقال: إنى أستحى من الله ان أطأ قرية فيها نبى الله ﷺ بحافر دابة. قال الشافعى رضى الله عنه: فعلمت أن ورع الإمام مالك باق على حاله فأقمت عنده ثلاثا ثم ارتحلت إلى مكة وأنا أسوق خير الله ونعمه ثم أنفذت من يعلم بخبرى فلما وصلت إلى الحرم خرجت العجوز ونسوة معها فضمتنى إلى صدرها وضمتنى بعدها عجوز كنت آلفها. دعوها خالتى وقالت:

ليس أمك اجتاحت المنايا　　كل فؤاد عليك أم

قال الشافعى رضى الله عنه: وهو أول كلمة سمعتها فى الحجاز من امرأة. فلما هممت بالدخول قالت لى العجوز - أمه - إلى أين عزمت؟ فقلت إلى المنزل فقالت! هيهات تخرج من مكة بالأمس فقيرا وتعود إليها غنيا مترفا تفخر على بنى عمك بذلك فقلت ما أصنع؟ فقالت: ناد بالأبطح فى العرب بإشباع الجائع وحمل المنقطع وكسوة العراة فتربح ثناء الدنيا وثواب الآخرة ففعلت ما أمرت به. وسار بذلك الفعل الرجال على آباط الإبل وبلغ ذلك مالكا فبعث إلىَّ يستحثنى على هذا الفعل ويعدنى أنه يحمل إلى فى كل عام مثلما صار إلى منه. وما دخلت إلى مكة وأنا أقدر على شئ مما جاء معى إلا على بغلة واحدة وخمسين دينارا فوقعت المقرعة فناولتنى إياها أمة على كتفها قربة فأخرجت لها خمسة دنانير فقالت لى العجوز ما أنت صانع؟ فقلت: أجيزها على فعلها فقالت: ادفع إليها جميع ما تأخر معك قال: فدفعت إليها ودخلت إلى مكة فما بت تلك الليلة إلا مديونا.

وأقام مالك رضى الله عنه يحمل إلى فى كل عام مثل ما كان دفع إلىَّ أولا إحدى عشرة سنة فلما مات ضاق بى الحجاز وخرجت إلى مصر فعوضنى الله: عبد الله بن الحكم فقام بالكلفة.

فهذا جميع ما لقيته فى سفرى فافهم ذلك يا ربيع.

قال الربيع: وسألنى المزنى إملاء ذلك بحضرته. فما وجدنا للمجلس فرغة فما وقع كتاب السفر إلى أحد غيرى. أ.هـ.

شيوخ الشافعي

لقد تلقى الإمام الشافعي رضى الله عنه العلم فى كل فروعه علي كثير من العلماء الأعلام والأئمة الفضلاء أشهرهم:

الأئمة: مسلم بن خالد الزنجى، وسفيان بن عيينة، ومالك بن أنس. ومحمد بن الحسن وكان أكثرهم تاثيرا: الإمام سفيان بن عينية. والإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة كما كان له شيوخ كثيرون فى كافة فروع العلم فى عصره. ذكرهم الحافظ ابن حجر العسقلانى رحمه الله فى كتابه: توالى التأسيس، منهم:

ابراهيم بن سعد بن إبراهيم الزهرى (ت ١٨٣ هـ) وابراهيم بن عبد العزيز ابن أبى محذورة وابراهيم ابن محمد بن أبى يحيى (ت ١٨٤ هـ) وابراهيم بن هرم. وأسامة بن زيد بن أسلم. وإسحاق بن يوسف الأزرق (١٩٥ هـ) وإسماعيل ابن ابراهيم بن مقسم (ت ١٩٣ هـ) واسماعيل بن جعفر بن أبى كثير (ت ١٨٠ هـ) واسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين (ت ١٩٠ هـ) وأنس بن عياض (ت ٢٠٠ هـ) وأيوب بن سويد الرملى (ت ١٨٢ هـ) وجعفر بن ابراهيم الطائى وحاتم ابن اسماعيل المدنى (ت ١٨٦ هـ) والحارث بن عمير البصرى. والحر بن ابراهيم، وحسن الأثلغ، وحماد بن أسامة (ت ٢٠١ هـ) وحماد بن زيد البصرى (ت ١٩٧ هـ) وحماد بن ظريف وداود بن عبد الرحمن العطار (ت ١٧٥ هـ) وسعيد ابن صالح القداح وسعيد بن سلمة بن أبى الحسام. وسعيد بن مسلمة الأموى. وسفيان بن عيينة وسليمان بن عمرو. وسماك بن الفضل الجندى. والضحاك بن عثمان الحزامى وعباد بن العوام (ت ١٨٥ هـ) وعبد الله بن إدريس الأودى (ت ١٩٢ هـ) وعبد الله بن الحارث المكى وعبد الله بن موسى التيمى. وعبد الله بن نافع الصائغ (ت ٢٠٦ هـ) وعبد الرحمن بن ذكوان (ت ١٧٤ هـ) وعبد العزيز ابن محمد الدراوردى (ت ١٨٩ هـ) وعمرو بن حبيب (ت ٢٠٩ هـ) والقاسم ابن عبد الله بن عمر العمرى ومالك بن أنس ومحمد بن الحسن الشيبانى (ت

١٨٩ هـ) ومسلم بن خالد الزنجى ومطرف بن مازن الصنعانى وهشام بن يونس الصنعانى (ت ١٩٧ هـ) ووكيع بن الجراح (ت ١٩٦ هـ) ويحيى بن سعيد القطان ويحيى بن سالم المكى (ت ١٩٣ هـ) ويوسف بن يعقوب ابن الماجشون.

فهؤلاء وغيرهم سمع منهم الإمام الشافعى ونقل عنهم بمكة والمدينة واليمن والعراق ومصر.

● تلاميذ الشافعى:

يقول الإمام داود بن على بن خلف الأصبهانى (٢٠١ - ٢٧٠ هـ) أحد الأئمة المجتهدين الذين يأخذون بظاهر نص الكتاب والسنة ويعرضون عن التأويل والرأى والقياس وقد عاش وتوفى ببغداد يذكر الإمام الشافعى رضى الله عنه: (ومن فضائله ما اتفق له من الأصحاب ولم يتفق لأحد من العلماء والفقهاء ما اتفق له من ذلك وأشهرهم: الحميدى. والكرابيسى وأبو ثور والزعفرانى والبويطى والمزنى وقد جمع ابن النديم فى الفهرست أسماء من روى عن الشافعى وأخذ عنه، منهم:

الربيع بن سليمان المرادى ويكنى: أبا سليمان. كان مؤذنا بمصر. روى عن الشافعى كتب الأصول ٣٧٠ هـ - إنه راوية الشافعى حقيقة - وأبو الحسن بن محمد بن الصباح الزعفرانى وروى «المبسوط» عن الشافعى. على ترتيب ما رواه الربيع (ت ٢٦٠ هـ).

وأبو ثور: ابراهيم بن خالد بن اليمان الفقيه. أخذ عن الشافعى وروى عنه. وخالفه فى أشياء وأحدث لنفسه مذهبا اشتقه من مذهب الشافعى (ت ٢٤٠ هـ).

أحمد بن حجاج المروزى: من شيوخ البخارى.

أحمد بن خالد الخلال البغدادى: وهو من شيوخ الترمذى والنسائى.

أحمد بن سعيد بن بشير الهمذانى: وهو من شيوخ أبى داود.

أحمد بن سنان القطانى: حافظ وهو من شيوخ البخارى ومسلم وأبى داود.

أحمد بن صباح الرازى : وهو من شيوخ البخارى وأبى داود .

أحمد بن عبد الله المكى المقرى المعروف بقنبل .

أحمد بن محمد بن حنبل : صاحب المذهب الحنبلى وأحد أئمة المحدثين .أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقى المكى وهو من شيوخ البخارى وإليه أوصى الشافعى .

ابراهيم بن محمد بن العباس بن محمد بن على الشافعى : وهو من شيوخ ابن ماجة .

إسحاق بن ابراهيم بن مخلد المروزى : أحد الأئمة المعروف بابن راهويه .

اسماعيل بن يحيى أبو ابراهيم المزنى : الإمام المشهور ومن حملة الفقه الشافعى .

أشهب بن عبد العزيز المصرى : صاحب الإمام مالك .

بحر بن نصر بن سابق الخولانى المصرى من شيوخ النسائى .

الحارث بن سريج النقال : أحد حملة الفقه عن الشافعى .

حامد بن يحيى البلخى وهو من شيوخ أبى داود .

حرملة بن يحيى التجيبى المصرى : أحد حملة الفقه الجديد عنه وهو من شيوخ مسلم، الحسن بن الربيع من شيوخ ابن ماجة .

الحسن بن عبد العزيز الجروى المصرى وهو من شيوخ البخارى .

الحسن بن عثمان الزيادى وهو الإخبارى المشهور .

الحسن بن على الخلال الخولانى : أحد الحفاظ ومن شيوخ البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجة .

الحسين بن على الكرابيسى : أحد الأئمة فى الفقه والحديث .

خالد بن نزار الإيلى وهو محدث مشهور أخرج له النسائى وأبو داود .

سعيد بن الجهم بن نافع أبو عثمان : وهو أحد أوصياء الشافعى .

سفيان بن عيينه الهلالى الكوفى المكى أحد الأئمة أخذ منه الشافعى وأخذ عن الشافعى .

أبو أيوب البغدادى : أحد الفقهاء الأئمة وهو من شيوخ البخارى .

أبو حاتم السجستانى : أحد الأئمة فى العربية وهو من شيوخ أبى داود والنسائى .

عبد الرحمن بن مهدى البصرى : أحد أئمة الحديث الكبار .

عبد العزيز بن يحيى المكى : صاحب الشافعى ورفيقه فى رحلته إلى اليمن .

عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون : الفقيه المالكى المشهور .

عبد الله بن هشام المصرى النحوى المشهور : صاحب تهذيب السيرة النبوية المسمى (سيرة ابن هشام) .

على بن عبد الله بن جعفر المدينى : وهو من شيوخ البخارى .

عمرو بن أبى سلمة التنيسى : وهو محدث مشهور روى له السنة .

الفضل بن الربيع : وهو الوزير العباسى المشهور .

قتيبة بن سعيد البلخى : وهو من شيوخ الأئمة الخمسة .

قحزم بن عبد الله بن قحزم الأسوانى : حمل الفقه عنه وآخر من صحب الشافعى موتا .

محمد بن أبى بكر المقدمى : محدث مشهور ومن شيوخ البخارى ومسلم .

مسلم بن خالد الزنجى : الفقيه المكى المشهور سمع منه الشافعى وسمع من الشافعى .

موسى بن أبى الجارود المكى : وهو من رواة الفقه القديم ومن شيوخ الترمذى .

يوسف بن يحيى أبو يعقوب البويطى : الإمام المشهور وأحد رواة الفقه وأكبرهم قدرا عينه الشافعى خلفا له .

الربيع بن سليمان الجيزى : من رواة الجديد .

وقد ترجم لهؤلاء جميعا وغيرهم الإمام السبكى فى طبقات الشافعية .

الفصل الثالث

الإمـام المجـــدد

(اللهم اهدى قريشا فإن عالمها يملأ طباق الأرض علما) [رواه أحمد]

● **صفاته ومواهبـــه :**

كان الإمام الشافعى رضى الله عنه يتحلى بجميل الصفات وحميد الأفعال كان متواضعا فى عظمة كريما فى سخاء رغم حاجته حليما فى أدب جم . كما كان صادقا أمينا وفيا رقيقا فى عزة وكرامة محبا للناس ودودا لطيفا . عالما مجددا عابدا زاهدا محبوبا من الناس العلماء والعامة لأنه كان كما وصفه حبيبه وتلميذه النجيب الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه :

(كان الشافعى كالشمس للدنيا وكالعافية للناس) .

ويصفه ابن الصلاح رحمه الله تعالى فيقول :

كان رضى الله عنه طويلا سائل الخدين قليل لحم الوجه طويل العنق طويل القصب . أسمر خفيف العارضين يخضب لحيته بالحناء حمراء قانية حسن الصوت حسن السمت عظيم العقل حسن الوجه حسن الخلق فصيحا من أذرب الناس لسانا إذا خرج لسانه بلغ أنفه وكان مسقاما ممنوا بالبواسير .

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى :

قد كان الشافعى قوى المدارك . كان حاضر البديهة تنثال عليه المعانى انثيالا فى وقت الحاجة إليها . وكان يلقى على الدروس ضوءا من تفكيره فتتضح بين يديه الحقائق ويستقيم منطقها وكان عميق الفكرة وكان بعيد المدى فى الفهم لا يقف عند حد حتى يصل إلى الحق كاملا . وكانت نتيجة اتجاهه إلى الكليات أن وضع أصول الفقه . فكان فى أصول الفقه كأرسطو فى المنطق . وكان الشافعى قوى التأثير وقوى البنيان واضح التعبير وأوتى مع فصاحة لسانه وبلاغة بيانه صوتا عميق التأثير يعبر بنبراته كما يوضح بعباراته، ولعمق تأثير صوته كان إذا اقرأ

القرآن وجاهر بقراءته أبكى سامعيه. وكان الشافعى نافذ البصيرة قوى الفراسة بصيرا بنفوس الرجال وما تطيقه مداركهم وقال ابن أبى الجارود رحمه الله تعالى:

ما رأيت أحدا إلا وكتبه أكبر من شاهدته إلا الشافعى فإن لسانه أكبر من كتبه وقد بلغ من إجادته القول أن سماه معاصروه «خطيب العلماء».

● عوامل تكوين شخصيتـــه:

لقد تأثر الإمام الشافعى رضى الله عنه ببيئته وأثر فيها. وهذه طبيعة الإنسان الصالح فإنه دائما إيجابى ينفعل بما حوله ويتفاعل مع مجتمعه. وترجع أهم العوامل التى شكلت شخصيته الإمام إلى العوامل التالية:

١ – أمـــه:

قالوا: إن وراء كل عظيم امرأة، لقد كانت أم الإمام الشافعى امرأة فاضلة كما كانت امرأة على وعى وإدراك كامل بكل متطلبات الحياة. ذات خلق فاضل وسلوك قويم ودين صحيح ذات فصاحة وبلاغة رشيدة ولا عجب فى هذا ولا غرابة فهى من خير بيوتات العرب ومن أطيب سلالات المسلمين إنها من ذرية الخليفة المظلوم الذى كانت تستحى منه الملائكة إنه ذو النورين سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه كانت هذه الأم الفاضلة تربى ولدها على الفضيلة وتحثه على طلب العلم والحكمة وتشجعه وتمده بالنصائح النافعة كانت له أما وأبا بعد موت أبيه فهى رغم عوزها وحاجتها أرسلته إلى معلم القرآن لحفظه ثم وجهته لطلب العلم على أجل شيوخه وخيرة العلماء.

إنها بذلك قد وجهته وشحذت همته لطلب المعالى وبلوغ أرقى الدرجات وأرفعها فكان الشافعى كما أحبت أمه وتمنت.

٢ – النسب الرفيع:

كان لنسبه الرفيع أثره البالغ فى تكوين شخصيته فهو مطلبى قرشى أبا وأموى قرشى أما. وهذا نسب شريف له مطلبه العالى فى طلب نيل المعالى. ولا يخفى علينا أن لهذا النسب أثره فى دفع الهمة فى طلب العلم وتحصيل المعارف.

٣ - النشأة الفقيرة :

إن النشأة الفقيرة مع النسب الرفيع تجعل الناشئ على خلق كريم ومسلك قويم إن انتفت الموانع ولم يكن ثمت شذوذ .

٤ - لقد تتلمذ الشافعي على خيرة علماء عصره فوق أنه قد قضى تسع سنوات فى البادية حصل فيها أشعار هذيل وآدابها وأدبها .

٥ - لقد ظهر الشافعي فى عصر كثر فيه الجدل واشتد فيه التنافس بين العلماء واتسعت فيه دائرة البحث العلمى فتعددت العلوم وتنوعت الدراسات وكثرت الأبحاث وقد ضم هذا العصر فحول العلماء وأذكى الطلاب .

٦ - رحلاته الكثيرة :

لقد طاف الشافعي ببلاد الحجاز والعراق واليمن ومصر فاطلع على أحوال المسلمين والتقى بالعلماء والأئمة فى هذه البلاد من الفقهاء والمحدثين وغيرهم ولا يخفى علينا ما لذلك من فائدة طيبة فى تحصيل العلوم والمعارف .

● منهجــه العلمــى :

أذن للشافعي شيوخه بالاجتهاد والفتوى فشمر عن ساعد الجد وأخذ يدرس ويبحث وينقب ويناقش حتى أفرز ثروة علمية ضخمة .

وقد اعتمد على المنهج العلمى التالى :

١ - الاعتماد على الكتاب والسنة :

لقد كان يستدل بظاهر الآيات والأحاديث ما لم يقم دليل على أن المراد غير الظاهر . ولذلك كان يستخدم السنة للمساعدة فى الوقوف على حقيقة الحكم الوارد فى كتاب الله عز وجل . وتوسع فى استخدام السنة أكثر ممن سبقوه لإيمانه بأنها هى التطبيق العملى للقرآن الكريم لأنها أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله وتقريراته وسائر أحواله .

وكان يلحق بهما ما ورد من آثار وأقضية الصحابة والتابعين .

٢ - الأخذ بالإجماع وبالقياس . بشرط أن لا يكون ذلك مخالفا للقرآن

الكريم والسنة الشريفة . ولكن كان يأخذ بكل منهما شريطة أن يكون لذلك أصل من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ ولذا رفض القول بالاستحسان وقال : من استحسن فقد شرع .

٣ - عدم الجمود أو التعصب .

يقول رضى الله عنه : (مهما قلت من قول أو أصلت من أصل فيه عن رسول الله ﷺ غير ما قلت فالقول ما قال رسول الله وهو قولى) .

وقال : (إذا صح الحديث فهو مذهبى) .

وقال أيضا : (قولى صواب يحتمل الخطأ وقول غيرى خطأ يحتمل الصواب) وقال : (إذا عارض الحديث مذهبى . فخذوا بالحديث واضربوا بمذهبى عرض الحائط) .

فالإمام الشافعى عالم بحر فى علمه ومعارفه . والعالم لا يتعصب لرأى ولا يجمد عند قول . لأن الجمود والتعصب لا يقعان إلا من جاهل أو غافل أو كان قليل العلم فاقد الأهلية قليل الخبرة فاقد الفكرة .

٣ - وكان رضى الله عنه لا يأخذ برأى غيره إلا إذا تحقق أن رأى غيره أقوى حجة وأصح استدلالا . وكان لا يجامل فى قول الحق ويتجلى ذلك فى موقفه الذى أعلنه فى جرأة وعلانية عندما بلغه أن بعض تلاميذ الإمام مالك وأتباعه كانوا يقدسون قلنسوته ويتبركون بها فرفض هذا ووجه نقدا لفقه الإمام مالك فى كتابه « اختلاف مالك » معلنا بذلك أن مالك بشر كسائر البشر يخطئ ويصيب والعصمة لرسول الله ﷺ وحده، والإمام مالك هو القائل (كل يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر ﷺ) .

٤ - توظيف العقل فى البحث العلمى :

فالعقل هو تلك الجوهرة التى جعلها الله تعالى مناط التكليف للإنسان فمن لا عقل له لا دين له .

ولذلك رفع الإسلام شأن العقل ومجده، وجعل له دورا أصليا وفاعلا فى

التثبت من صحة النص وفهمه لاستنباط ما يتضمنه النص من أحكام وتوجيهات.

ولذلك أخذ الإمام الشافعى يعمل عقله وملكات تفكيره فى تحصيل العلوم والمعارف وفى بثها ونشرها تاليفا وتصنيفا وتدريسا ما دام ذلك فى حدود النص بما لا يخرجه عن الأصول والقواعد الشرعية الثابتة.

أى أن لم يستخدم العقل مجردا وإنما كان يعصمه بالنص – قرآنا وسنة – لذلك فهو يرفض القول بالرأى فى دين الله تعالى. لأن الرأى الذى لا يستند إلى نص هو – فى نظر الشافعى – تشريع بغير ما أنزل الله تعالى.

يقول رضى الله عنه: (إذا ذكرت لكم دليلا فلم تقبلها عقولكم فلا تقبلوها فإن العقل مضطر إلى قبول الحق).

فهذه الأمور هى أهم ما كان الإمام الشافعى رضى الله عنه يتميز به فى بحثه وفحصه ودراسته لقضايا ومسائل الفقه والتشريع والعقيدة.

لذا كان مذهبه الفقهى منضبطا ووسطا بين مذاهب أهل السنة لذلك كثر أتباعه وانتشر مذهبه فى ربوع العالم الإسلامى منذ ظهوره إلى يومنا هذا.

وعلى هذا المنهج كانت المسيرة العلمية المباركة لإمامنا الشافعى رضى الله عنه فى مجال العلوم الشرعية المختلفة:

– القرآن الكريم وعلومه.
– السنة النبوية الشريفة وعلم مصطلح الحديث.
– علم العقيدة (أصول الدين).
– علم أصول الفقه.
– علم الفقه والتشريع الإسلامى.
– علم التصوف.
– اللغة العربية وآدابها.

* * *

العلم وأنواعه عند الإمام الشافعى

العلم كما عرفه العلماء: هو إدراك المعلوم على ما هو به.

وهو نوعمان: علم تعلمه فرض عين وهو ما يجب على كل مسلم ومسلمة أن يحصلوه، وعلم تعلمه فرض كفاية. وهو ما يجب تعلمه على بعض المسلمين.

وقد بين هذا الموضع الإمام الشافعى رضي الله عنه فى كتابه «الرسالة» وأفرد له بابا خاصا. قال المرحوم الأستاذ أحمد محمد شاكر فى تعليقه على الكتاب المذكور [١]: (وهذا الباب بدء أبحاث جديدة فى الكتاب هى فى الحقيقة أصول العلم وأصول الحديث. وأصول الفقه فى الدين وهى التى لا يكتبها بمثل هذه القوة إلا الشافعى) لذلك فإنى أوثر أن أنقل كلام سيدنا الإمام الشافعى بلفظه زيادة فى الفائدة: قال الإمام رحمه الله تعالى: فقال لى قائل: ما العلم؟ وما يجب على الناس فى العلم؟ فقلت له: العلم علمان: علم عامة لا يسع بالغا غير مغلوب على عقله جهله قال: ومثل ماذا؟.

قلت: مثل: الصلوات الخمس. وأن على الناس صوم شهر رمضان. وحج البيت إذا استطاعوه وزكاة فى أموالهم. وأنه حرم عليهم الزنا والقتل والسرقة والخمر. وما كان فى معنى هذا مما كلف العباد أن يعقلوه ويعملوه ويعطوه من أنفسهم وأموالهم. وأن يكُفُّوا عنه. ما حرم عليهم منه وهذا الصنف كله من العلم موجود نصا فى كتاب الله. وموجودا [٢] عاما عند أهل الإسلام ينقله عوامهم عن من مضى من عوامهم يحكونه عن رسول الله - ﷺ - ولا يتنازعون فى حكايته ولا وجوبه عليهم.

وهذا العلم العام الذى لا يمكن فيه الغلط من الخبر ولا التأويل ولا يجوز فيه التنازع.

قال: فما الوجه الثانى؟.

---

(١) الرسالة من ص ٣٥٧ - ٣٦٩ ط العلمية.

(٢) مفعولا لفعل محذوف تقديره: وتجده موجودا أو نراه موجودا.

قلت له: ما ينوب العباد من فروع الفرائض. وما يُخص به من الأحكام وغيرها. مما ليس فيه نص كتاب. ولا في أكثره نص سنة. وإن كانت في شئ منه سنة فإنما هي من أخبار الخاصة لا أخبار العامة. وما كان منه يحتمل التأويل ويستدرك قياسا.

قال: فيعدو هذا أن يكون واجبا وجوب العلمَ قبله. أو موضوعا عن الناس علمه حتى يكون من علمه مُنتفلا.

ومن ترك علمه غير آثم بتركه؟ أو من وجه ثالث. فَتُوجدُناه خبرا أو قياسا؟ قلت له: بل هو من وجه ثالث.

قال: فصفه واذكر الحجة فيه. ما يلزم منه. ومن يلزم. وعن من يسقط؟.

فقلت له: هذه درجة من العلم ليس تبلغها العامة ولم يُكلَّفها كل الخاصة ومن احتمل بلوغها من الخاصة فلا يسعهم كلهم كافة أن يُعطلوها. وإذا قام بها من خاصتهم من فيه الكفاية لم يَحْرَج غيره ممن تركها إن شاء الله والفضل فيها لمن قام بها على من عطلها.

قال: فأوجدني هذا خبرا أو شيئًا في معناه ليكون هذا قياسا عليه؟.

فقلت له: فرض الله الجهاد في كتابه وعلى لسان نبيه. ثم أكد النفير من الجهاد فقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [التوبة: ١١١].

وقال: ﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [التوبة: ٣٦].

وقال: ﴿ **فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة: ٥]... وقال: ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا**

يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

أخبرنا عبد العزيز بن محمد الدراوردى - عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة - بن عبد الرحمن - عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (لا أزال أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) [1].

وقال الله جل ثناؤه: ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ * إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩].

وقال: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١].

قال - الشافعى -: فاحتملت الآيات أن يكون الجهاد كله والنفير خاصة منه: على كل مطيق له، لا يسع أحد منهم التخلف عنه: كما كانت الصلوات والحج والزكاة فلم يخرج أحد وجب عليه فرض منها من أن يؤدى غيره الفرض عن نفسه لأن عمل أحد فى هذا لا يكتب لغيره.

واحتملت أن يكون معنى فرضها غير معنى فرض الصلوات: وذلك أن يكون قصد بالفرض فيها قصد الكفاية فيكون من قام بالكفاية فى جهاد من جُوهد من المشركين مدركا تأدية الفرض ونافلة الفضل ومخرجا من تَخلَّف من المأثم.

ولم يسوى الله بينهما فقال الله: ﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ

---

(١) رواه أصحاب الكتب الستة وبالفاظ متقاربة وبأسانيد كثيرة.

بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٥].

فأما الظاهر فى الآيات فالفرض على العامة [١].

قال: فأين الدلالة فى أنه إذ أقام بعض العامة بالكفاية أخرج المتخلفين من المأثم؟ فقلت له: فى هذه الآية.

قال: وأين هو منها؟.

قلت: قال الله: ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ فوعد المتخلفين عن الجهاد الحسنى على الإيمان. وأبان فضيلة المجاهدين على القاعدين ولو كانوا آثمين بالتخلف إذا غزا غيرهم - كانت العقوبة بالإثم - إن لم يعفو الله - أولى بهم من الحسنى قال: فهل تجد فى هذا غير هذا؟.

قلت: نعم. قال الله: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وغزا رسول الله ﷺ - وغَزّى معه من أصحابه جماعة وخلف أخرى حتى تخلف على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - فى غزوة تبوك وأخبرنا الله أن المسلمين لم يكونوا لينفروا كافة ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ فأخبر أن النفير على بعضهم دون بعض وأن التفقه إنما هو على بعضهم دون بعض.

وكذلك ما عدا الفرض فى عُظْم الفرائض التى لا يسع جهلها والله أعلم وهكذا كل ما كان الفرض فيه مقصودا به قصد الكفاية فيما ينوب فإذا أقام به من المسلمين من فيه الكفاية خرج من خلف عنه من المأثم.

ولو ضيعوه معا خِفْت أن لا يخرج واحد منهم مطيق فيه من المأثم. بل لا

---

(١) هذه الجملة من كلام الشافعى يريد أن ظاهر الآيات فى الأمر بالقتال أنه فرض عين. ثم هو يريد أن يشرح ما دعاه إلى القول بغير ظاهرها فى صورة السؤال والجواب. أحمد شاكر هامش ص ٣٦٤.

أشك إن شاء الله لقوله ﴿ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [التوبة: ٣٩] قال: فما معناها؟

قلت: الدلالة عليها أن تخلفهم عن النفير كافة لا يسعهم. ونفير بعضهم – إذا كانت فى نفير كفاية – يُخْرِج من تخلف من المأثم. إن شاء الله لأنه إذا نفر بعضهم وقع عليهم اسم «النفير».

قال: ومثل ماذا سوى الجهاد؟

قلت: الصلاة على الجنازة ودفنها. لا يحل تركها. ولا يجب على كل من بحضرتها كلهم حضورها ويخرج من تخلف من المأثم من قام بكفايتها.

وهكذا رد السلام. قال الله: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ [النساء: ٨٦].

وقال رسول الله – ﷺ –: (يسلم القائم على القاعد)، و: (إذا سلم من القوم واحد أجزأ عنهم) [(١)].

وإنما أريد بهذا الرد. فرد القليل جامع لاسم «الرد» والكفاية فيه مانع لأن يكون الرد معطلا.

ولم يزل المسلمون على ما وصفت منذ بعث الله نبيه – فيما بلغنا – إلى اليوم يتفقه أقلهم ويشهد الجنائز بعضهم. ويجاهد ويرد السلام بعضهم ويتخلف عن ذلك غيرهم، فيعرفون الفضل لمن قام بالفقه والجهاد وحضور الجنائز ورد السلام. ولا يؤثمون من قصر عن ذلك. إذا كان بهذا قائمون. أ.هـ.

* * *

(١) الحديثان رويا فى الصحيحين وفى الموطأ بألفاظ متقاربة.

علم الشافعي بكتاب الله عز وجل

القرآن الكريم: هو ذلك اللفظ المنزل على سيدنا محمد ﷺ بلفظه ومعناه المعجز في لفظه ومعناه المتعبد بتلاوته المحفوظ بين دفتي المصحف. بهذا عرفه علماء الفقه وأصوله.

إنه معجز للعرب في نظمه اللفظي وبيانه. ومعجز لغير العرب في شرائعه وأحكامه. تعهد الله عز وجل بحفظه ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾.

وكلف نبيه ﷺ ببيانه وتعريف الناس بأحكامه قال الله تعالى: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم**﴾.

لقد كان للإمام الشافعي رضي الله عنه إهتمام كبير بكتاب الله عز وجل وعناية فائقة قل ما تجد ذلك عند غيره من الأئمة والعلماء.

قال رضي الله عنه: (قرأت القرآن على: إسماعيل بن قسطنطين، وكان شيخ أهل مكة في زمانه).

وقال: (قرأت القرآن على شبل بن عباد ومعروف بن مشكان. وقالا: قرأنا على عبد الله بن كثير وقال: قرأت على مجاهد. وقال: قرأت على ابن عباس – رضي الله عنهما - وقال: قرأت على أبي بن كعب. وقال: قرأت على رسول الله ﷺ.

قال الشافعي (رضي الله عنه): وكان إسماعيل يقول: (القرآن اسم وليس بمهموز) قال: (ولم يؤخذ من قرأت، ولو أخذ من قرأت. لكان كل ما قرئ قرآنا. ولكنه اسم للقرآن مثل: التوراة والإنجيل) وكان يقول: (إذا قرأت القرآن اهمز قرأت ولا تهمز القرآن) [1].

وروى حرملة بن يحيى: أن الشافعي كان يقرئ الناس في المسجد الحرام وهو ابن ثلاث عشرة سنة.

---

(١) مناقب الإمام الشافعي للرازي: ١٧٣.

وعن الربيع: أن الشافعى كان يختم القرآن فى كل شهر ثلاثين ختمة وفى شهر رمضان ستين ختمة ختمة بالليل وختمة بالنهار. وقد روى مثل ذلك عن أبى حنيفة النعمان فقد روى عن أبى يوسف: كان أبو حنيفة يختم القرآن فى كل ليلة فى ركعة، وروى يحيى الحمانى عن أبيه أنه قال: صحبت أبا حنيفة ستة أشهر فما رأيته صلى الغداة إلا بوضوء العشاء الآخر وكان يختم القرآن كل ليلة عند السحر [1]. أ. هـ.

وعن يحيى بن نصر قال: كنا إذا أردنا أن نبكى قال بعضنا لبعض: قوموا بنا إلى هذا الفتى المطلبى يقرأ القرآن فإذا أتيناه استفتح القراءة حتى نتساقط بين يديه من كثرة البكاء فإذا رأى ذلك أمسك عن القراءة.

وروى المزنى عن الشافعى أنه قال: (من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن نظر فى الفقه نبل قدره. ومن كتب الحديث قويت حجته ومن نظر فى اللغة رق طبعه ومن نظر فى الحساب جزل رأيه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه).

لقد حفظ الإمام الشافعى رضى الله عنه القرآن فى صغر سنه حفظا جيدا. ثم تعلم تجويده وكيفية قراءته قراءة صحيحة مرتلة (ورتل القرآن ترتيلا).

ثم درس علومه وأحكامه فتعلم أسباب نزوله وناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه وتعرف على علاقة القرآن بالسنة وعلاقتها به وكيف أنهما متلازمان لا يفترقان.

وقد مكنه الله عز وجل من دراسة علوم اللغة العربية وآدابها وتفوق فى ذلك حتى سبق فيها علماءها. فاجتمع عنده مفاتيح فهم القرآن وتفسيره وتقرير أحكامه وتبيين آدابه فكان فى علم التفسير على درجة أهله إن لم يكن متفوقا عليهم رضى الله عنه.

قال يونس بن عبد الأعلى: كان الشافعى إذا أخذ فى التفسير فكأنه شهد التنزيل. وكان رضى الله عنه يقول: نظرت بين دفتى المصحف فعرفت مراد الله من

---

(1) مناقب أبى حنيفة للذهبى.

جميع ما فيه إلا حرفين. قال الراوى: نسيت أحدهما. والثانى: قوله تعالى ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ١٠]. قال الشافعى: إنى لم أجده فى كلام العرب. ثم قرأت لمقاتل بن سليمان: أنه لغة السودان. قال: (دساها) أغواها.

وقال الفخر الرازى فى مناقب الإمام الشافعى رضى الله عنه:

واعلم أن من طالع - التفسير الكبير - الذى صنفناه ووقف على كيفية استنباطنا للمسائل على وفق مذهب الشافعى من كتاب الله تعالى. علم أن الشافعى كان بحراً لا ساحل له فى هذا العلم ونحن نذكر على سبيل المثال آيات ونقرر فيها مذهبه، وقوله:

الآية الأولى: قال الشافعى فى قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ [البقرة: ١٧٣] معناه: من كان مضطرا ولا يكون موصوفا بصفة البغى ولا بصفة العدوان البتة فأكل (فلا إثم عليه) فخصص البغى والعدوان بالأكل وغيره.

وقال أبو حنيفة: فمن اضطر فأكل غير باغ ولا عاد فى الأكل (فلا إثم عليه) فخصص البغى والعدوان بالأكل. ويتفرع على هذا الاختلاف أن العاصى بسفره هل يترخص أم لا؟ فقال الشافعى: لا يترخص لأنه متعدى. وقال أبو حنيفة. بل يترخص لأنه مضطر. وغير باغ ولا عاد فى الأكل والله أعلم.

قال الرازى: واحتج الشافعى على قوله: بالنص والمعقول.

أما النص: فهو أنه تعالى قال: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ ﴾ [البقرة: ١٧٣] فحرمها على الكل. ثم أباحها للمضطر الذى يكون موصوفا بأنه غير باغ ولا عاد والعاصى بسفره لا يصدق عليه أنه غير باغ ولا عاد. فلا يدخل تحت هذه الرخصة. وإنما قلنا: إنه لا يصدق عليه أنه غير باغ ولا عاد لأن قوله تعالى ﴿ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ يفيد نفى ماهية البغى وماهية العدوان ويلزم من انتفاء الماهية. انتفاء جميع أفراد الماهية. فقوله تعالى: ﴿ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ لا يصدق إلا إذا انتفى البغى والعدوان من جميع الوجوه. والعاصى بسفره متعد بذلك السفر فوجب أن لا يصدق عليه أنه غير باغ ولا عاد فلا يدخل تحت هذه الرخصة فوجب أن يبقى تحت النص الموجب للتحريم. أ. هـ.

ثم قال الفخر الرازى فى التفسير وفى المناقب :

(واعلم أن القاضى عبد الجبار بن أحمد نقل فى كتاب (فوائد القرآن) ونقل أبو بكر الرازى فى كتاب « أحكام القرآن » كلاهما عن الشافعى أنه قال فى تفسير قوله عز وجل : ﴿ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ أى غير باغ : على إمام المسلمين . ولا عاد : فى الأكل . أولى مما ذكره الشافعى . لأن قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ شرط ، والشرط بمنزلة الاستثناء فى أنه لا يستقل بنفسه فلا بد من تعلقه بمذكور ، وقد علمنا أنه لا مذكور إلا الأكل لأن معنى الآية : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ ﴾ فأكل ﴿ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ وإن كان كذلك وجب أن يكون قوله ﴿ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ متعلقا بالأكل . الذى هو فى حكم المذكور دون السفر الذى هو غير مذكور البتة) .

ثم يقول الفخر الرازى رحمه الله تعالى : واعلم : أن هذا السؤال ضعيف . وذلك لأنا بينا أن قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ يفيد نفى ماهية البغى ونفى ماهية العدوان وإذا انتفت الماهية فقد انتفى جميع أفرادها . فقوله تعالى : ﴿ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ لا يدل على نفى العدوان بالسفر على التعيين . ولكنه يدل على نفى العدوان وذلك يدخل فيه نفى العدوان بالسفر ويدخل فيه نفى سائر العدوانات فظهر أن القوم ما فهموا مقصود الإمام الشافعى ، والله أعلم .

ثم الذى يدل على أنه لا يجوز صرف قوله : ﴿ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ إلى :

(أ) إن قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ حال من الاضطرار . فلا بد وأن يكون وصف الاضطرار باقيا . مع كونه غير باغ ولا عاد ولو كان المراد بكونه غير باغ ولا عاد . كونه كذلك فى الأكل استحال أن يبقى وصف الاضطرار معه لأن حال الأكل الكثير لا يبقى وصف الاضطرار .

(ب) إن الإنسان نفور بطبعه عن تناول الميتة والدم وما كان كذلك لم يكن فيه حاجة إلى النهى فصرف هذا الشرط إلى التعدى فى الأكل يخرج الكلام عن الفائدة .

(جـ) إن الوجه الذى ذكره الشافعى فى تأويل هذه الآية متأيد بآية أخرى

وهى قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣] فبين فى هذه الآية: أن المضطر إنما يترخص إذا لم يكن متجانفا لإثم وهو الذى قلناه من أن الآية تقتضى أن لا يكون الرجل موصوفا بالبغى والعدوان فى أمر من الأمور.

ثم يقول الفخر الرازى رحمه الله تعالى: واحتج أصحاب أبى حنيفة على صحة تأويل أبى حنيفة بوجوه:

(أ) إنه تعالى قال فى آية أخرى ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الانعام: ١١٩] والعاصى بسفره مضطر فوجب أن يترخص.

(ب) قوله تعالى: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥] والامتناع من الأكل سعى فى قتل النفس وفى إلقائها إلى التهلكة. فوجب أن يحرم.

(جـ) روى أنه – عليه السلام – رخص للمقيم يوما وليلة وللمسافر ثلاثة أيام ولياليهن ولم يفرق بين العاصى بسفره والمطيع.

(د) إن العاصى بسفره إذا كان نائما فأشرف على غرق أو حرق. يجب على الحاضر الذى يكون فى الصلاة أن يقطع صلاته لإنجائه من الغرق والحرق. فلأن يجب عليه أن يسعى فى اتقاء نفسه من الهلاك كان أولى.

ثم نقول: قوله تعالى ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ يدل على أن من لم يكن باغيا ولا عاديا فلا إثم عليه. وهذا لا يدل على أنه إن كان باغيا وعاديا فهو آثم إلا بسبب دليل الخطاب وإنه عند أبى حنيفة ليس بحجة.

والجواب: إنا بينا بالدلائل الكثيرة. أن الوجه الذى ذكره الشافعى فى تأويل هذه الآية هو الصحيح. والذى ذكره غيره ضعيف. ومقصودنا فى هذا المقام: أن نظر الشافعى فى علم النفس، كان أكمل من نظر غيره. وقد حصل هذا

المقصود، وما ذكرتموه من الوجوه ليس شيئا منها دليلا على صحة التأويل الذى ذكره أبو حنيفة لهذه الآية. فحصل مقصودنا.

ثم نقول: دليلنا النافى لهذه الرخصة، أخص من دلائلكم المثبتة لهذه الرخصة فكان دليلنا راجحا على ما ذكرتموه. وأيضا الأصل فى الرخص عدم الشرعية وأما الوجوه القياسية فضعيفة لوجوه:

(أ) إن القياس فى مقابلة النص ليس بشئ وذلك لأن القياس بمقابلة النص ساقط.

(ب) إنه يمكن أن يترخص وذلك بأن يتوب عن ذلك السفر الذى هو معصية وذلك بأن يتوجه إلى سبب ثم يترخص.

(جـ) إن تلك الأقيسة معارضة بقياس أقوى منها وهو أن الرخصة إعانة فلو أثبتنا الرخصة للعاصى بسفره لكان ذلك إعانة على المعصية وهو غير جائز لأن الإعانة سعى فى التحصيل والمعصية منهى عنها والنهى سعى فى العدم وبينهما تناقض، وأما قوله: إنه تمسك بدليل الخطاب فضعيف لأنه تعالى قال فى أول الآية: ﴿ **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ** ﴾ وذلك يقتضى عموم التحريم. ثم أثبت الحل عند حصول شرط معين. وهو كونه مضطراً وخاليا عن البغى والعدوان فعند عدم هذا الشرط وجب أن يبقى على أصل التحريم. فثبت أن نظر الشافعى فى تفسير هذه الآية فى غاية الجلالة والقوة والله أعلم. أ.هـ.

الآية الثانية: قال الشافعى - رضى الله عنه - قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ** ﴾ [البقرة: ٢٨٢] إلى قوله ﴿ **وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ** ﴾ فامرنا بالكتابة والإشهاد والرهن وظاهر الأمر للوجوب. ثم قال تعالى ﴿ **فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ** ﴾ [البقرة: ٢٨٣] فهذه الآية دلت على أن الأمر بالكتابة والشهود والرهن: أمر إرشاد لا أمر إيجاب لأن قوله تعالى: ﴿ **فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ** ﴾.

إباحة لمن يأمن بعضكم بعضا فليدع الكتاب والشهود والرهن.

قال المصنف رحمه الله: ومن اللطائف المستنبطة من هذه الآية: أن شهادة العبد غير مقبولة لأنه تعالى قال: ﴿ **ولا يأبى الشهداء إذا ما دعوا** ﴾ فأمر كل من كان شهيدا بأن يترك الإباء، والعبد قد يجب عليه أن يأبى وحيث وجب عليه الإباء لزم قطعا أن لا يكون العبد شاهدا والله أعلم .. إلخ ما ذكره الفخر الرازى رحمه الله [1] وقد ورد فى كتاب أحكام القرآن للبيهقى تفسير وتأويل الإمام الشافعى رضى الله عنه لآيات الأحكام نذكر منها على سبيل المثال [2]:

روى عن المزنى أنه قال: سئل الشافعى عن قول الله عز وجل ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ﴾ [الفتح: ١، ٢].

قال: «معناه: ما تقدم من ذنب أبيك آدم وهبته لك. وما تأخر من ذنوب أمتك أدخلهم الجنة بشفاعتك».

قال الشيخ رحمه الله: وهذا قول مستظرف والذى وضعه الشافعى فى تصنيفه أصح الروايتين وأشبه بظاهر الرواية والله أعلم.

وروى عن إبراهيم بن حرب البغدادى قال: إن الشافعى رحمه الله سئل بمكة فى الطواف عن قول الله عز وجل ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ** ﴾ [المائدة: ١١٨] قال: «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم وتؤخر فى آجالهم فتمن عليهم بالتوبة والمغفرة».

وروى الربيع بن سليمان قال: سئل الشافعى عن قول الله عز وجل ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة: ١٥٥] قال: «الخوف: خوف العدو. والجوع: جوع شهر رمضان. ونقص من الأموال: الزكوات والأنفس: الأمراض. والثمرات: الصدقات. وبشر الصابرين على آدائها.

وقد أضاف الإمام الشافعى إلى علمه بتفسير القرآن وتأويله. العلم أيضا

---

(١) مناقب الإمام الشافعى ١٧٥ - ١٨١.

(٢) راجع كتاب أحكام القرآن للشافعى تأليف البيهقى بجزئيه.

بتجويده ومعرفة أوجه القراءات فيه . مما يدل على سعة علمه بالقرآن الكريم ينطق بذلك كتبه العديدة ومصنفاته العظيمة . وقد جمع ذلك كله من كتبه الإمام البيهقى فى كتابه القيم (أحكام القرآن للشافعى) ويروى أن الإمام الشافعى رضى الله عنه له كتاب يسمى : (أحكام القرآن) كتبه بنفسه ضمن كتبه القديمة ويبدو أنه قد اندرس وضاع .

وعلى كل حال : إن الإمام الشافعى رضى الله عنه قد بين لنا أحكام القرآن وبثها فى كتبه فبين لنا فيها حلاله وحرامه وأوامره ونواهيه وفرائضه ومندوباته فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

* * *

معركــــة السُّنــة

لقد واجهت السنة الشريفة أشرس المعارك قديما وحديثا . والأمر جد خطير لموقع السنة من شريعة الإسلام فهى المصدر الثانى للشريعة الإسلامية فلقد قامت فى الماضى حركات ردة ضد السنة . ما بين رفضها كلية أو رفض بعضها كالسنة القولية أو أحاديث الآحاد من أتباع ابن سبأ أو من الخوارج وطوائف المبتدعة من الزنادقة والوضاعين . وقد كسرت أقلام هؤلاء وأولئك وخرست ألسنتهم على يد الفارس المغوار الإمام الشافعى رضى الله عنه ومن شايعه وشد من أزره من العلماء الأعلام .

وفى عصرنا تواجه السنة حربا شرسة من نوع جديد وبأساليب مختلفة فمن رافض لها كلا أو بعضها وآخر لا يقبل منها مالا يوافق هواه ورأيه من بعض الاتجاهات المتطرفة الذين فرقوا كلمة المسلمين ومزقوا وحدتهم من أهل التعصب والتزمت وأدعياء السلفية - وهم لا يفهمون معناها ولا يعرفون مبناها - وأصحاب الفتاوى المغرضة والمجاملة . ودعاة التحلل من مطلوبات الشريعة باسم التنوير والمعاصرة والحضارة والمدنية والمتفلسفة المبرمجين الذين يتكلمون بالسنة غيرهم من علماء الغرب والشرق من المستشرقين ودعاة الإلحاد والإباحية .

فهؤلاء وأولئك يرفضون من السنة الصحيحة مالا يوافق هواهم . ولا ينهض لتصحيح دعواهم . بل يعارضها ويخطئها ويجرمها .

وأقول لهم جميعا اهدءوا بالاً فلن تنالوا ما تهدفون إليه . فدين الله باق ومحفوظ بعناية الله تعالى وستذهبون . فإن تبتم فهو خير لكم . وإلا فإلى مصيركم تذهبون وعند ربكم ستحاسبون وعن جرمكم ستسألون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

أما السنة الشريفة فهى محفوظة بحفظ الله تعالى : الذى خلد الإسلام وحفظه بالمحافظة على ثلاث :

حفظ القرآن الكريم - حفظ السنة الشريفة - حفظ السيرة النبوية، وهى

مصادر ثلاثة مفقودة عند كل الأمم التى سبقتنا وهى محفوظة عندنا للدلالة على صحة ديننا وللتأكيد على أنه الدين الخاتم وللتعريف بأن هذه الأمة هى خير أمة أخرجت للناس.

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾

[الرعد: ١٧]

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

« تركت فيكم ما لو تمسكتم به فلن تضلوا بعدى أبدا: كتاب الله وسنتى ».

ورضى الله تعالى عن إمامنا الشافعى وسائر أئمة الفقه والحديث وجزاهم عن الإسلام خيرا.

* * *

حجية السنة

معنى السنة وتعريفها

السنة فى اللغة: الطريقة محمودة كانت أو مذمومة. ومنه قوله ﷺ «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة» (١).

ومن حديث: «لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذاع» (٢).

وهى فى اصطلاح المحدثين: ما أثر عن النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أوصفه خَلْقية أو خُلُقية أو سيرة. سواء كان قبل البعثة أو بعدها (٣). وهى بهذا ترادف الحديث عند بعضهم.

وفى اصطلاح الأصوليين: ما نقل عن النبى ﷺ من قول أوفعل أو تقرير فمثال القول: ما تحدث به النبى ﷺ فى مختلف المناسبات مما يتعلق بتشريع الأحكام كقوله عليه الصلاة والسلام «إنما الأعمال بالنيات» (٤). وقوله: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا» (٥).

ومثال الفعل: ما نقله الصحابة من أفعال النبى ﷺ فى شئون العبادة وغيرها كأداء الصلوات ومناسك الحج وآداب الصيام وقضائه بالشاهد واليمين ومثال التقرير: ما أقره الرسول ﷺ من أفعال صدرت عن بعض أصحابه بسكوت منه مع دلالة الرضى أو بإظهار استحسان وتأييد.

فمن الأول: إقراره عليه الصلاة والسلام لاجتهاد الصحابة فى أمر صلاة العصر فى غزوة بنى قريظة حين قال لهم «لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة» (٦) فقد فهم بعضهم هذا النهى على حقيقة فأخرها إلى ما بعد المغرب

---

(١) أخرجه مسلم عن جرير بن عبد الله البجلى.

(٢) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى.

(٣) قواعد التحديث ٣٥ – ٨٢ وتوجيه النظر ص ٢.

(٤) أخرجه البخارى ومسلم عن عمر.

(٥) أخرجه البخارى ومسلم عن ابن عمر. (٦) أخرجه البخارى ومسلم عن ابن عمر.

وفهمه بعضهم على أن المقصود حث الصحابة على الإسراع فصلاها فى وقتها وبلغ النبى ما فعل الفريقان. فاقرهما ولم ينكر عليهما.

ومن الثانى: ما روى أن خالد بن الوليد رضى الله عنه أكل ضبًا قدم إلى النبى ﷺ دون أن يأكله. فقال له بعض الصحابة: أو يحرم أكله يا رسول الله؟ فقال: لا ولكنه ليس فى أرض قومى فأجدنى أعافه»[1] وقد تطلق السنة عندهم على ما دل عليه دليل شرعى. سواء كان ذلك فى الكتاب العزيز أو عن النبى ﷺ، أو اجتهد فيه الصحابة كجمع المصحف وحمل الناس على القراءة بحرف واحد. وتدوين الدواوين ويقابل ذلك «البدعة» ومنه قوله ﷺ «عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى»[2].

وفى اصطلاح الفقهاء: ما ثبت عن النبى ﷺ من غير افتراض ولا وجوب وتقابل الواجب وغيره من الأحكام الخمسة. وقد تطلق عندهم على ما يقابل البدعة. ومنه قولهم: طلاق السنة كذا. وطلاق البدعة كذا[3].

ومرد هذا الاختلاف فى الاصطلاح إلى اختلافهم فى الأغراض التى يعنى بها كل فئة من أهل العلم.

فعلماء الحديث إنما بحثوا عن رسول الله ﷺ الإمام الهادى الذى أخبر الله عنه أنه أسوة لنا وقدوة. فنقلوا كل ما يتصل به من سيرة وخلق وشمائل وأخبار وأقوال وأفعال سواء أثبت ذلك حكما شرعيا أم لا.

وعلماء الأصول: إنما بحثوا عن رسول الله المشرع الذى يضع القواعد للمجتهدين من بعده ويبين للناس دستور الحياة. فعنوا بأقواله وأفعاله وتقريراته التى تثبت الأحكام وتقررها.

وعلماء الفقه: إنما بحثوا عن رسول الله ﷺ الذى لا تخرج أفعاله عن الدلالة على حكم شرعى. وهم يبحثون عن حكم الشرع على أفعال العباد وجوبا أو حرمة أو إباحة أو غير ذلك. أ. هـ بنصه[4].

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم عن ابن عباس.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذى عن العرباض بن سارية. (٣) إرشاد الفحول ص ٣١.

(٤) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ص ٥٧، ٥٨.

وكل علماء الإسلام قد تعاملوا مع السنة على أنها المصدر الثانى للتشريع كل فى مجال تخصصه (العقيدة - أصول الفقه - الفقه - التفسير - السيرة - الأخلاق وأدب السلوك) ولم نر أى عالم أو إمام فى مجال من مجالات العلم المختلفة رد سنة رسول الله ﷺ إلا ما كان ممن ليس عنده علم يعصمه من الزلل أو كان من أصحاب الأهواء والبدع كالخوارج والروافض فإنهم تعلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التى قد تضمنت بيان الكتاب قال فتحيروا وضلوا كما قال الإمام الخطابى فى معالم السنن. وقال إمامنا الشافعى رضي الله عنه: (إذا وجدتم سنة رسول الله فاتبعوها) [1] لأننا إن لم نتبعها فسوف نضل ونهلك لأن أحكام السنة. إما موافقة لحكم القرآن ومساوية له. وإما مبينة وموضحة ومفسرة لمبهمه. وإما مخصصه لمجمله وعامه أو منشئة لحكم لم ينص عليه فى القرآن الكريم كصلاتى العيدين والجنازة وغيرها ففى ترك السنة النبوية الشريفة الخسران المبين والهلاك العظيم.

* * *

(١) مفتاح الجنة فى الاحتجاج بالسنة ص ٧٥.

وجوب طاعة الرسول ﷺ واتباع أمره

إن سيدنا محمدا ﷺ هو النبى المصطفى والرسول المجتبى اصطفاه الله عز وجل من خيرة خلقه واجتباه من صفوة ولد سيدنا إسماعيل عليه السلام. وبعثه فينا وللبشرية كلها بالهدى ودين الحق وأوجب على الإنس والجن الإيمان به والتصديق بنبوته وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين فلا نبوة بعده قال الله تعالى:

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ... ﴾
[الأحزاب: ٤٠]

قد أوجب الله علينا طاعته واتباع أمره قال الله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧].

فهو المعصوم فى كل ذلك فلا يقول إلا حقا ولا ينطق إلا صدقا ولا يفعل إلا ما أمر بفعله ولا ينتهى إلا عما نهى الله عنه قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ [النجم: ٣ - ٥].

ولقد أنزل الله عز وجل عليه القرآن الكريم. والقرآن فى حاجة إلى تبيين أحكامه وتوجيهاته. وتلك من مهمة المصطفى ﷺ.

قال الإمام القرطبى رحمه الله تعالى: جعل الله - تبارك وتعالى - له - النبى ﷺ - بيان ما كان منه - القرآن - مجملا وتفسير ما كان منه مشكلا. وتحقيق ما كان منه محتملا ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به. ومنزلة التفويض إليه.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾
[النحل: ٤٤]

ثم جعل إلى العلماء بعد رسول الله ﷺ استنباط ما نبه على معانيه. وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد فيمتازوا بذلك عن غيرهم ويختصوا بثواب اجتهادهم قال الله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ

أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] فصار الكتاب أصلا والسنة له بيانا واستنباط العلماء له إيضاحا وتبيانا . أ . هـ [١].

ويقول الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وقال عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

هذا ويقرر الأئمة الأربعة وجوب الأخذ بسنة رسول الله ﷺ روى عن عثمان بن عمر قال: جاء رجل إلى مالك فسأله عن مسألة فقال: قال رسول الله ﷺ كذا وكذا فقال الرجل: أرأيت ..؟. فقال مالك ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] وقال مالك (لا تعارضوا السنة وسلموا لها) [٢].

وأخرج البيهقى عن الربيع قال: روى الشافعى يوما حديثا فقال رجل: أتأخذ بهذا يا أبا عبد الله؟ فقال: (متى ما رويت عن رسول الله حديثا صحيحا فلم آخذ به فأشهدكم أن عقلى قد ذهب) [٣].

وأخرج أيضا عن الربيع قال: سمعت الشافعى يقول: إذا وجدتم فى كتابى خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ودعوا ما قلت) [٤] وقال أبو حنيفة (عليكم باتباع السنة) [٥] وقال عروة بن الزبير (اتباع السنن قوام الدين) [٦].

وقال الأوزاعى (إذا بلغك عن رسول الله ﷺ حديث فإياك أن تقول بغيره. فإن رسول الله ﷺ كان مبلغا عن الله) [٧].

وقال الإمام أحمد بن حنبل (إذا ثبت ورود الحديث عن رسول الله ﷺ وجب العمل به) [٨] هذا وسوف نعرض رأى إمامنا الشافعى رضى الله عنه فى وجوب طاعة الرسول ﷺ ووجوب العمل بسنته والدفاع عن السنة بما لم يسبق بمثله ولم يأت أحد بعده مدافعا عن السنة بمثل ما أتى به رضى الله عنه وأرضاه.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/٢.

(٢ - ٨) مفتاح الجنة فى الاحتجاج بالسنة ص ٥١، ٥٢.

الإمام الشافعي ناصر السنة

روى البيهقي عن الربيع بن سليمان أنه قال:

قال الشافعي رحمه الله تعالى: «وضع الله جل ثناؤه رسوله ﷺ - **من دينه** وفرضه وكتابه - الموضع الذي أبان (جل ثناؤه) أنه جعل علما لدينه بما افترض من طاعته. وحرم من معصيته وأبان فضيلته بما قرر من الإيمان برسوله مع الإيمان به فقال تبارك تعالى ﴿**آمنوا باللَّه ورَسُوله والْكتَاب الَّذي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُوله ...**﴾ [النساء: ١٣٦] وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمنُونَ الَّذينَ آمَنُوا باللَّه ورَسُوله وإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذنُوهُ ...**﴾ [النور: ٦٢].

فجعل دليل ابتداء الإيمان - الذي ما سواه تبع له - **الإيمان بالله ثم برسوله** ﷺ. فلو آمن به عبد ولم يؤمن برسوله ﷺ لم يقع عليه اسم كمال **الإيمان أبدا** حتى يؤمن برسوله - عليه السلام - معه» قال الشافعي رحمه الله: «**وفرض الله** تعالى على الناس اتباع وحيه وسنن رسوله ﷺ. فقال في كتابه: ﴿**ربَّنَا وَابْعَثْ فيهمْ رَسُولاً مّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتكَ وَيُعَلّمُهُمُ الْكتَابَ وَالْحكْمَةَ وَيُزَكّيهمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكيمُ**﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقال تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمنينَ إِذْ بَعَثَ فيهمْ رَسُولاً مّنْ أَنفُسهمْ يَتْلُو عَلَيْهمْ آيَاته وَيُزَكّيهمْ وَيُعَلّمُهُمُ الْكتَابَ وَالْحكْمَةَ وَإِن كَانُوا من قَبْلُ لَفي ضَلالٍ مُّبينٍ**﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿**وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ في بُيُوتكُنَّ منْ آيَات اللَّه وَالْحكْمَة**﴾ [الأحزاب: ٣٤] وذكر غيرها من الآيات التي وردت في معناها. **قال: فذكر الله** تعالى الكتاب وهو القرآن. وذكر الحكمة فسمعت من أرضى من **أهل العلم** بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله ﷺ. وهذا يشبه ما قال. (**والله أعلم**) **بان** القرآن ذكر وأتبعته الحكمة. وذكر الله - عز وجل - **منته على** خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة فلم يجز (والله أعلم) أن تعد **الحكمة ها هنا**

إلا سنة رسول الله ﷺ. وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله وأن الله افترض طاعة رسول الله ﷺ وحتم على الناس اتباع أمره. فلا يجوز أن يقال لقول: فرض إلا لكتاب الله ثم سنة رسول الله ﷺ مبينة عن الله ما أراد دليلا على خاصه وعامه. ثم قرن الحكمة بكتابه فاتبعها إياه ولم يجعل هذا لأحد من خلقه غير رسول الله ﷺ.

ثم ذكر الشافعي رحمه الله الآيات التي وردت في فرض الله – عز وجل – طاعة رسوله ﷺ. منها قوله عز وجل ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ [النساء: ٥٩] فقال بعض أهل العلم: أولو الأمر. أمراء سرا يا رسول الله ﷺ. وهكذا أخبرنا والله أعلم. وهو يشبه ما قال والله أعلم. أن من كان حول مكة من العرب لم يكن يعرف إمارة. وكانت تأنف أن تعطى بعضها بعضا طاعة الإمارة فلما دانت لرسول الله ﷺ بالطاعة. لم تكن ترى ذلك يصلح لغير رسول الله ﷺ. فأمروا أن يطيعوا أولى الأمر الذين أمرهم رسول الله ﷺ. لا طاعة مطلقة بل طاعة يستثنى فيها لهم وعليهم. قال تعالى: ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ...**﴾ [النساء: ٥٩] يعنى إن اختلفتم فى شئ وهذا إن شاء الله كما قال فى أولى الأمر. لأنه يقول: ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ**﴾ يعنى – والله أعلم – هم وأمراؤهم الذين أمروا بطاعتهم ﴿**فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾ يعنى – والله أعلم – إلى ما قال الله والرسول إن عرفتموه. وإن لم تعرفوه سألتم رسول الله ﷺ عنه إذا وصلتم إليه. أو من وصل إليه. لأن ذلك الفرض الذى لا منازعة لكم فيه لقول الله عز وجل ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾ [الأحزاب: ٣٦] ومن تنازع ممن – بعد عن رسول الله ﷺ – رد الأمر إلى قضاء الله. ثم إلى قضاء رسول الله ﷺ فإن لم يكن فيما تنازعوا فيه قضاء نصا فيهما ولا فى واحد منهما، ردوه قياسا على أحدهما.

وقال تعالى: ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**﴾ الآية

[النساء: ٦٥] قال الشافعى: (نزلت هذه الآية فيما بلغنا - والله أعلم - في رجل خاصم الزبير رضى الله عنه فى أرض فقضى النبى ﷺ بها للزبير رضى الله عنه وهذا القضاء سنة من رسول الله ﷺ لا حكم منصوص فى القرآن. وقال عز وجل ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [النور: ٤٨] والآيات بعدها. فأعلم الله الناس أن دعاءهم إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهم. دعاء إلى حكم الله وإذا سلموا لحكم النبى ﷺ. فإنما سلموا لفرض الله) وبسط الكلام فيه.

قال الشافعى رضى الله عنه: « وشهد له - جل ثناؤه - باستمساكه بأمره به والهدى فى نفسه وهداية من اتبعه. فقال: (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم. صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) [١] وذكر معها غيرها. ثم قال فى شهادته له: إنه يهدى إلى صراط مستقيم صراط الله وفيما وصفت - من فرض طاعته - ما أقام الله به الحجة على خلقه بالتسليم لحكم رسوله واتباع أمره. فما سن رسول الله ﷺ فيما ليس لله فيه حكم - فحكم الله سنته.

ثم يقول البيهقى رحمه الله تعالى: ثم ذكر الشافعى رحمه الله الاستدلال بسنته على الناسخ والمنسوخ من كتاب الله ثم ذكر الفرائض المنصوصة التى بين رسول الله ﷺ معها. ثم ذكر الفرائض الجمل التى أبان رسول الله ﷺ عنه الله سبحانه كيف هى ومواقيتها ثم ذكر العام من أمر الله الذى أراد به العام. والعام الذى أراد به الخاص ثم ذكر سنته فيما ليس فيه نص كتاب. وإيراد جميع ذلك هاهنا مما يطول به الكتاب. وفيما ذكرناه إشارة إلى ما لم نذكره [١] . أ.هـ .

وورد فى كتاب « الرسالة »: (قال الشافعى رضى الله عنه):

وقد سن رسول الله ﷺ مع كتاب الله عز وجل وبين فيما ليس فيه بعينه نص كتاب وكل ما سن فقد ألزمنا الله تعالى اتباعه وجعل فى اتباعه طاعته. وفى

---

(١) أحكام القرآن ص ٢٧ - ٣١.

العنود عن اتباعه معصيته التى لم يعذر بها خلقا ولم يجعل له من اتباع سنن رسول الله ﷺ مخرجا لما وصفت وما قال رسول الله ﷺ . أخبرنا سفيان بن عيينة قال أخبرنا سالم أبو النضر مولى عمر بن عبد الله أنه سمع عبيد الله بن أبى رافع يحدث عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : (لألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدرى ما وجدناه فى كتاب الله اتبعناه) قال سفيان وحدثنيه محمد بن المنكدر عن النبى ﷺ مرسلا .

قال الشافعى رضى الله عنه : والأريكة السرير . قال الشافعى رضى الله عنه : وسنن رسول الله ﷺ مع كتاب الله عز وجل وجهان : أحدهما : نص كتاب الله فاتبعه رسول الله ﷺ كما أنزل الله والآخر : جملة بين رسول الله ﷺ فيه عن الله سبحانه وتعالى معنى ما أراد بالجملة وأوضح كيف فرضها أعاما أم خاصا وكيف أراد أن يأتى به العباد وكلاهما اتبع فيه كتاب الله تعالى - قال الشافعى رحمه الله تعالى : فلم أعلم من أهل العلم مخالفا فى أن سنن النبى ﷺ من ثلاثة وجوه . فأجمعوا منها على وجهين . والوجهان يجتمعان ويتفرعان :

أحدهما : ما أنزل الله عز وجل فيه نص كتاب فسن رسول الله ﷺ مثل ما نص الكتاب .

والآخر : ما أنزل الله فيه جملة كتاب فبين عن الله معنى ما أراد وهذان الوجهان اللذان لم يختلفوا فيهما .

والوجه الثالث : ما سن رسول الله ﷺ مما ليس فيه نص كتاب فمنهم من قال : جعل الله له بما افترض من طاعته وسبق فى علمه من توفيقه لرضاه . أن يسن فيما ليس فيه نص كتاب . فمنهم من قال : لم يسن سنة قط إلا ولها أصل فى الكتاب كما كانت سنته تبيين عدد الصلاة وعملها على أصل جملة فرض الصلاة وكذلك ما سن فى البيوع وغيرها من الشرائع لأن الله تعالى ذكره قال : ﴿ **لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾ وقال ﴿ **وأحل الله البيع وحرم الربا** ﴾ فما أحل وحرم إنما بين فيه عن الله تعالى كما بين الصلاة ومنهم من قال : بل جاءته به رسالة الله عز وجل فأثبتت سنته بفرض الله تعالى . ومنهم من قال : ألقى فى روعه كل ما سن .

وسنته الحكمة للذى ألقى فى روعه عن الله تعالى فكان مما ألقى فى روعه سنته، أخبرنا عبد العزيز بن محمد عن عمر بن أبى عمرو مولى المطلب عن المطلب بن حنطب قال: قال رسول الله ﷺ (ما تركت شيئا مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به ولا تركت شيئا مما نهاكم الله تعالى عنه إلا وقد نهيتكم عنه ألا وإن الروح الأمين قد ألقى فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها فأجملوا فى الطلب).

قال الشافعى رحمه الله تعالى: فكان مما ألقى فى روعه سنته وهى الحكمة التى ذكر الله تعالى وما نزل به كتاب عليه فهو كتاب الله عز وجل وكل جاءه من نعم الله تبارك وتعالى كما أراد الله تعالى وكما جاءته النعم تجمعها النعمة وتتفرق بأنها فى أمور بعضها غير بعض فنسأل الله العصمة والتوفيق، قال الشافعى رحمه الله تعالى: وأىّ هذا كان فقد بين الله عز وجل أنه فرض فيه طاعة رسوله ﷺ. ولم يجعل لأحد من خلقه عذرا بخلاف أمر عرفه من أمر رسول الله ﷺ. وأن قد جعل الله تعالى بالناس كلهم الحاجة إليه فى دينهم وأقام عليهم حجته بما دلهم عليه من تبيين رسوله معانى ما أراد الله تعالى بفرائضه فى كتابه ليعلم من عرف منها ما وصفنا أن سنته ﷺ إذا كانت سنته مبينة عن الله تعالى معنى ما أراد الله من مفروضه فيما فيه نص كتاب يتلونه وفيما ليس فيه نص كتاب أخرى فهى كذلك أين كانت لا يختلف حكم الله تعالى ثم حكم رسوله بل هو لازم بكل حال وكذلك قال رسول الله ﷺ فى حديث أبى رافع الذى كتبنا قبل هـــذا.

قال الشافعى رحمة الله عليه: وسأذكر مما وصفنا من السنة مع كتاب الله والسنة فيما ليس فيه نص كتاب بعض ما يدل على جملة ما وصفنا منه إن شاء الله تعالى. فأول ما نبدأ به من ذكر سنة رسول الله ﷺ مع كتاب الله تعالى ذكر الاستدلال بسنته على الناسخ والمنسوخ من كتاب الله عز وجل. ثم ذكر الفرائض المنصوصة التى سن رسول الله ﷺ معها. ثم ذكر الفرائض الجمل التى أبان رسول الله ﷺ عن الله كيف هى ومواقيتها ثم ذكر العام من أمر الله تعالى الذى أراد به

العام والعام الذى أراد به الخاص ثم ذكر سنته فيما ليس فيه نص كتاب، انتهى نص الرسالة [1].

وهذه العلاقة بين القرآن والسنة يذكرها العلامة ابن القيم الجوزية [2] رحمه الله تعالى مؤكدا كلام الإمام الشافعى رضى الله عنه. فيقول: والسنة مع القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون موافقة له من كل وجه. فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها.

ثانيها: أن تكون بيانا لما أريد بالقرآن وتفسيرا له.

ثالثها: أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه أو محرمة لما سكت عن تحريمه. ولا تخرج عن هذه الأقسام فلا تعارض بوجه ما، أ. هـ.

ويقول ابن القيم أيضا: (والذى يشهد الله ورسوله به أنه لم تأت سنة صحيحة عن رسول الله ﷺ تناقض كتاب الله وتخالفه البتة كيف ورسول الله هو المبين لكتاب الله وعليه أنزل وبه هداه الله. وهو مأمور باتباعه وهو أعلم بتأويله ومراده) [3].

وقد ذكر الإمام البيهقى رحمه الله تعالى [4] جملة من الروايات مما يستدل به على حسن اعتقاد الإمام الشافعى فى متابعة السنة ومجانبة البدعة نذكر منها:

عن أحمد بن حنبل – رحمه الله تعالى – قال: ما رأيت أتبع للأثر من الشافعى، وقال أيضا يذكر الشافعى (لقد كان يذب عن الآثار).

وعن حرملة بن يحيى قال: سمعت الشافعى يقول: سميت ببغداد «ناصر الحديث».

وعن الربيع بن سليمان المرادى يقول: سمعت الشافعى يقول: إذا وجدتم

---

(١) الرسالة ١٥، ١٦ طبعة بولاق.
(٢) اعلام الموقعين ٢/٣٠٧.
(٣) الطرق الحكمية ص ٨٤.
(٤) مناقب الشافعى ١/٢٥٤، ٢٥٥.

فى كتابى خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلت .

وعنه قال : سمعت الشافعى يقول : إذا وجدتم سنة من رسول الله ﷺ خلاف قولى فخذوا بالسنة ودعوا قولى . فإنى أقول بها .

وعن الحميدى قال : سأل رجل الشافعى بمصر عن مسألة فأفتاه . وقال : قال النبى ﷺ كذا . فقال الرجل : أتقول بهذا؟ .

قال : أرأيت فى وسطى زنّارا؟ أترانى خرجت من الكنيسة؟ أقول قال النبى ﷺ وتقول لى : أتقول بهذا؟ .

أروى عن رسول الله ﷺ ولا أقول به؟ .

وروى أبو نعيم فى الحلية [1] عن الربيع بن سليمان قال : سمعت الشافعى يقول : وسأله رجل عن مسألة . فقال : روى عن النبى ﷺ أنه قال كذا وكذا فقال له السائل : يا أبا عبد الله أتقول بهذا؟ فارتعد الشافعى واصفر لونه وقال : ويحك . أى أرض تقلنى؟ وأى سماء تظلنى؟ إذا رويت عن رسول الله ﷺ شيئا فلم أقل به . نعم على الرأس والعينين على الرأس والعينين .

وروى البيهقى عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى قال :

(كان أحسن أمر الشافعى أنه كان إذا سمع الخبر – الحديث – لم يكن عنده قال به . وترك قوله) .

وروى أيضا عن الربيع بن سليمان قال : سمعت الشافعى يقول (لولا أصحاب الحديث لكنّا بياع القول) .

وعن أحمد بن حنبل قالت : سألت الشافعى عن القياس . فقال : ضرورة وعن الربيع بن سليمان قال : قال الشافعى : لا تترك الحديث عن رسول الله ﷺ بأن يدخله القياس ولا يوضع القياس مع السنة وروى أيضا عن الربيع بن سليمان قال : سألت الشافعى عن الطيب قبل الإحرام بما يبقى ريحه بعد الإحرام وبعد

---

(١) ٩/١٠٦ .

رمى الجمر والحلاق وقبل الإفاضة؟ فقال: جائز وأحبه ولا أكرهه. لثبوت السنة فيه عن رسول الله ﷺ والإخبار عن غير واحد من الصحابة.

فقلت: وما حجتك فيه؟ فذكر فيه الأخبار والآثار ثم قال: أخبرنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن سالم قال: قال عمر: من رمى الجمرة فقد حل له ما حرم إلا الطيب والنساء.

قال سالم: وقالت عائشة - رضى الله عنها - طيبت رسول الله ﷺ عليه وسلم بيدى وسنة رسول الله ﷺ أحق أن تتبع قال الشافعى: وهكذا ينبغى أن يكون الصالحون من أهل العلم. فأما. ما تذهبون إليه من ترك السنة لغيرها. وترك ذلك الغير لرأى أنفسكم فالعلم إذا إليكم تأتون منه ما شئتم وتدعون منه ما شئتم. وبسط الكلام فيه [1].

ويؤكد على هذه المعانى كلها الإمام البيهقى رحمه الله تعالى فى كتابه القيم (معرفة السنن والآثر): عن أبى محمد: الربيع بن سليمان المرادى رحمه الله قال: أخبرنا الشافعى رحمه الله قال: الحمد لله على جميع نعمه بما هو أهله وكما ينبغى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله بعثه بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد فهدى بكتابه ثم على لسان نبيه من أنعم عليه وأقام الحجة على خلقه لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. فقال: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ [النحل:٨٩] وقال: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤] و فرض عليهم اتباع ما أنزل إليهم وسن رسول الله ﷺ لهم فقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦] فأعلم أن معصيته فى ترك أمره وأمر رسوله ﷺ ولم يجعل لهم إلا اتباعه. ثم ساق الكلام إلى أن قال وقال لنبيه ﷺ ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ

(١) راجع مناقب الشافعى للبيهقى ٢٥٤ - ٢٦٠.

من رَّبِّكَ ﴾ [الانعام: ١٠٦] وقال: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٩] وقال: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ [ص: ٢٦] وقال: وليس يؤمر أحد أن يحكم بحق إلا قد أعلم الحق ولا يكون الحق معلوما إلا عن الله جل ثناؤه نصا أو دلالة وقد جعل الله الحق فى كتابه ثم سنة نبيه ﷺ فليست تنزل بأحد نازلة إلا والكتاب يدل عليها نصا أو جملة فالنص ما حرم الله وأحل نصا حرم الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات ومن ذكر معهن فى الآية ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ... ﴾ [النساء: ٢٣] وأباح من سواهن وحرم الميتة والدم ولحم الخنزير والفواحش ما ظهر منها وما بطن وأمر بالوضوء فقال: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ [المائدة: ٦] الآية فكان مكتفى بالتنزيل فى هذا عن الاستدلال فيما نزل فيه مع أشباه له. قال: والجمل ما فرض الله من صلاة وزكاة وحج فدل رسول الله ﷺ كيف الصلاة وعددها ووقتها والعمل فيها وكيف الزكاة وفى أى المال هى وفى أى وقت هى وكم قدرها وبين كيف الحج والعمل فيه وما يدخل به فيه وما يخرج به منه. فإن قيل: فهل يقال لهذا كما قيل للأول قُبِل عن الله تبارك وتعالى؟ قيل: نعم قبل عن الله عز وجل بكلامه جملة وقُبِل تفسيره عن الله بأن الله فرض طاعة نبيه ﷺ فقال: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧]. وقال: ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠] مع ما فرض الله من طاعة رسوله ﷺ. فإن قيل: هل سنة النبى ﷺ بوحى؟ قيل: الله أعلم أخبرنا مسلم بن خالد أحسبه عن ابن جريج عن ابن طاووس عن أبيه أن عنده كتابا من العقول نزل بن الوحى. وما فرض رسول الله ﷺ من صدقة وعقول فإنما نزل به الوحى قال الشافعى: وقيل: لم يسن رسول الله ﷺ شيئا قط إلا بوحى الله عز وجل. فمن الوحى ما يتلى ومنه ما يكون وحيا إلى رسوله فيستن به. أخبرنا عبد العزيز بن محمد عن عمرو بن أبى عمرو عن المطلب بن حنطب أن رسول الله ﷺ قال: (ما تركت شيئا مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به ولا شيئا مما نهاكم الله عنه إلا وقد نهيتكم عنه. وإن الروح الأمين قد ألقى فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها فأجملوا فى الطلب).

قال الشافعي: وقد قيل ما لم يتل به قرآنا فإنما ألقاه جبريل عليه السلام فى روعه بأمر الله عز وجل فكان وحيا إليه وقد قيل جعل الله إليه لما شهد له به من أنه يهدى إلى صراط مستقيم أن يسن وأيهما كان فقد ألزمه الله خلقه ولم يجعل لهم الخيرة من أمرهم فيما سن وفرض عليهم اتباع سنة.

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه الحافظ رحمه الله فيما قرئ عليه من كتب الشافعي رحمه الله فى الأصول أن أبا العباس محمد ابن يعقوب حدثهم قال: أخبرنا الربيع بن سليمان قال: أخبرنا الشافعي قال: وقد وضع الله رسوله ﷺ من دينه وفرضه وكتابه الموضع الذى أبان جل ثناؤه أنه جعله علما لدينه بما افترض من طاعته وحرم من معصيته وأبان من فضيلته بما قرن من الإيمان برسوله مع الإيمان به فقال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التغابن: ٨] وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النور: ٦٢] فجعل كمال ابتداء الإيمان الذى ما سواه تبع له الإيمان بالله ثم برسوله.

أخبرنا أبو عبد الله قال: حدثنا أبو العباس. قال: أخبرنا الربيع قال: أخبرنا الشافعي قال: أخبرنا ابن عيينة عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]. قال: لا أذكر إلا ذكرت أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله قال الشافعي: وفرض الله على الناس اتباع وحيه وسنن رسوله فقال فى كتابه ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً﴾ الآية كلها إلى قوله ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمرا: ١٦٤] مع آى سواها ذكر فيهن الكتاب والحكمة قال الشافعي: فذكر الله الكتاب وهو القرآن. وذكر الحكمة. فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله ﷺ.

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

فقال بعض أهل العلم: أولوا الأمر. أمراء سرايا رسول الله ﷺ وهكذا أخبرنا

وقال: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ يعني إن اختلفتم في شئ يعنى والله أعلم هم وأمراؤهم الذين أمروا بطاعتهم ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ يعنى والله أعلم ما قال الله والرسول. ثم ساق الكلام إلى أن قال: وأعلمهم أن طاعة رسوله ﷺ طاعته. فقال: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

قال الشافعي: نزلت هذه الآية فيما بلغنا والله أعلم فى رجل خاصم الزبير فى أرض فقضى النبى ﷺ بها للزبير.

قال: حدثنا الليث عن الزهرى عن عروة أن عبد الله بن الزبير حدثه أن رجلا خاصم الزبير فى شراج – مسيل الماء – الحرة (موضع بالمدينة المنورة) التى يسقون بها، فقال الأنصارى: سرّح الماء يمر فأبى عليه الزبير فقال رسول الله ﷺ للزبير: «اسق يا زبير ثم أرسل إلى جارك» قال: فغضب الأنصارى. فقال يا رسول الله: إن كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله ﷺ. ثم قال: «اسق ثم احبس حتى يرجع إلى الجدر» فقال الزبير: فوالله إنى لأحسب هذه الآية نزلت فى ذلك ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ... ﴾ الآية.. أخرجه أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل البخارى وأبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابورى فى الصحيح من حديث الليث بن سعد وفى رواية معمر وشعيب بن أبى حمزة عن الزهرى عن عروة أنه قال: واستوعى رسول الله ﷺ الزبير حقه فى صريح الحكم حين أحفظه الأنصارى. وكان أشار عليهما قبل ذلك بأمر كان لهما فيه سعة وقد أخرجه البخارى.

قال الشافعى رضى الله عنه: وهذا القضاء سنة من سنة رسول الله ﷺ لا حكم منصوص فى القرآن واحتج أيضا فى فرض اتباع أمره بقوله عز وجل ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ ﴾ الآية إلى قوله ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

وذكر غير ذلك من الآيات التى دلت على مثل ما دلت عليه هذه الآيات.

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ قال: حدثنا: أبو العباس قال: أخبرنا الربيع قال: أخبرنا الشافعى قال: وكان فرضه على من عاين رسول الله ﷺ ومن بعده إلى يوم

القيامة واحدا فى أن على كل طاعته ولم يكن أحد غاب عن رؤية رسول الله ﷺ يعلم أمر رسول الله ﷺ إلا بالخبر عنه.

قال: والخبر عنه خبران: خبر عامة عن عامة عن النبى ﷺ بجمل ما فرض الله على العباد أن يأتوا به بألسنتهم وأفعالهم ويؤتوه من أنفسهم وأموالهم وهذا مالا يسع جهله.

وخبر خاصة فى خاص الأحكام لم يكلفه العامة ولم يأت أكثره كما جاء الأول وكلف علم ذلك من فيه الكفاية للقيام به دون العامة وساق الشافعى الكلام فى شرح كل واحد منهما أ.هـ [1].

* * *

(١) راجع كتاب معرفة السنن والآثار للبيهقى ج ١ ص ٦١ – ٦٦.

خبـــر الواحـــد

الخبر متواتر أو أحاد. والخبر المتواتر: هو ما رواه جمع عن جمع تحيل العادة تواطؤهم على الكذب. وعددهم لا يقل عن أربعة.

وأما خبر الآحاد فهو ما رواه عدد أقل من أربعة.

ولا خلاف بين العلماء من المحدثين والفقهاء على ثبوت الحديث المتواتر وان قوة الاستدلال بالمتواتر فى الأحكام كقوة الاستدلال بالقرآن الكريم ولكن دار بينهم نزاع حول حجية الاستدلال بخبر الواحد.

ومن فقه كلام الإمام الشافعى رضى الله عنه في باب خبر الواحد فى كتبه (الرسالة والأم واختلاف الحديث وجماع العلم) وجد أنه قد جمع كل القواعد الصحيحة لعلوم الحديث (المصطلح) وأنه أول من أبان عنها إبانة صحيحة واضحة مما يدل على أنه أول واضع لعلوم الحديث وأصوله بما يسمى (مصطلح الحديث) كما يدل على أنه أقوى من نصر الحديث واحتج لوجوب العمل به وتصدى للرد عل مخالفيه. مما جعل أهل مكة يقولون: (إن الشافعى هو ناصر الحديث) ومن بعدهم قال أهل العراق: (إن الشافعى هو ناصر السنة) رضى الله عنه. يقول رضى الله عنه فى كتاب (الرسالة باب خبر الواحد) [1].

فقال لى قائل: أُحْدُدْ لى أقل ما تقوم به الحجة على أهل العلم حتى يثبت عليهم خبر الخاصة.

فقلت: خبر الواحد عن الواحد حتى يُنْتَهى به إلى النبى أو من انتهى به إليه دونه ولا تقوم الحجة بخبر الخاصة حتى يجمع أمورا:

منها: أن يكون من حدث به ثقة فى دينه. معروفا بالصدق فى حديثه. عاقلا لما يحدث به عالما بما يحيل معانى الحديث من اللفظ وأن يكون ممن يؤدى الحديث بحروفه كما سمع لا يحدث به على المعنى لانه إذا حدث به على المعنى

---

(١) أنظر كتاب الرسالة باب خبر الواحد من ص ٣٦٩ – ٤٠٠.

وهو غير عالم بما يحيل معناه . . لم يدر لعله يحيل الحلال إلى الحرام . وإذا أداه بحروفه فلم يبق وجه يخالف فيه إحالته الحديث . حافظا إن حدث به من حفظه حافظا لكتابه إن حدث من كتابه . إذا شرك أهل الحفظ فى الحديث وافق حديثهم . بريا من أن يكون مُدلّسا : يحدث عن من لقى ما لم يسمع منه ويحدث عن النبى ﷺ ما يحدث الثقات خلافه عن النبى ﷺ .

ويكون هكذا من فوقه ممن حدثه حتى ينتهى بالحديث موصولا إلى النبى ﷺ أو إلى من انتهى به إليه دونه لأن كل واحد منهم مثبت لمن حدثه . ومثبت على من حدث عنه . فلا يستغنى فى كل واحد منهم عما وصفت فقال : فأوضح لى من هذا بشئ لعلى أكون به أعرف منى بهذا لخبرتى به وقلة خبرتى بما وصفت فى الحديث ؟ .

فقلت له : أتريد أن أخبرك بشئ يكون هذا قياسا عليه؟

قال : نعم .

قلت : هذا هذا أصل فى نفسه . فلا يكون قياسا على فميزه لأن القياس أضعف من الأصل .

قال : فلست أريد أن تجعله قياسا ولكن مثله لى على شئ من الشهادات التى العلم بها عام .

قلت : قد يخالف الشهادات فى أشياء ويجامعها فى غيرها .

قال : وأين يخالفها؟ .

قلت : أقبل فى الحديث الواحد والمرأة . ولا أقبل واحدا منهما وحده فى الشهادة وأقبل فى الحديث « حدثنى فلان عن فلان » إذا لم يكن مدلسا ولا أقبل فى الشهادة إلا « سمعت » أو « رأيت » أو « أشهدنى » .

وتختلف الأحاديث فآخذ ببعضها استدلالا بكتاب أو سنة أو إجماع أو قياس وهذا لا يؤخذ به فى الشهادات هكذا ولا يوجد فيها بحال ثم يكون بشر كلهم تجوز شهادته ولا أقبل حديثه من قبل ما يدخل فى الحديث من كثرة الإحالة وإزالة بعض ألفاظ المعانى .

ثم هو يجامع الشهادات فى أشياء غير ما وصفت .

ثم قال رضى الله عنه : ومن كثر غلطه من المحدثين ولم يكن له أصل كتاب صحيح لم نقبل حديثه كما يكون من أكثر الغلط فى الشهادة لم نقبل شهادته وأهل الحديث متباينون . فمنهم المعروف بعلم الحديث - بطلبه وسماعه من الأب والعم وذوى الرحم والصديق وطول مجالسة أهل التنازع فيه . ومن كان هكذا كان مقدما فى الحفظ إن خالفه من يقصر عنه كان أولى أن يقبل حديثه ممن خالفه من أهل التقصير عنه .

ويعتبر على أهل الحديث بأن إذا اشتركوا فى الحديث عن الرجل بأن يستدل على حفظ أحدهم بموافقة أهل الحفظ وعلى خلاف حفظه بخلاف حفظ أهل الحفظ له .

وذا اختلفت الرواية استدللنا على المحفوظ منها والغلط بهذا ووجوه سواه تدل على الصدق والحفظ والغلط قد بيناها فى غير هذا الموضع وأسأل الله التوفيق .

فقال : فما الحجة لك فى قبول خبر الواحد . وأنت لا تجيز شهادة واحد وحده وما حجتك فى أن قسته بالشهادة فى أكثر من مرة وفرقت بينه وبين الشهادة فى بعض أمره ؟ .

قال الشافعى : فقلت له : أنت تعيد ما قد ظننتك فرغت منه ولم أقسه وإنما سألت أن أمثله لك بشئ تعرفه . أنت به أخبر منك بالحديث فمثلته لك بهذا الشئ لا أنى احتججت لأن يكون قياسا عليه .

وتثبيت خبر الواحد أقوى من أن أحتاج إلى أن أمثله بغيره . بل هو أصل فى نفسه قال : فكيف يكون الحديث كالشهادة فى شئ ثم يفارق بعض معانيها فى غيره ؟ فقلت له : هو مخالف للشهادة - كما وصفت لك - فى بعض أمره، ولو جعلته كالشهادة فى بعض أمره دون بعض كانت الحجة لى فيه بينةٌ إن شاء الله) .

ثم أخذ رضى الله عنه يشرح ويبين هذا الأمر فى قوة وبراعة فائقة لا تكون

إلا للإمام الشافعي رضى الله عنه . إلى أن قال : وإن الحديث فى الحلال والحرام أعلى الأمور وأبعدها من أن يكون فيه موضع ظِنّة وقد قُدِّم إليهم فى الحديث عن رسول الله ﷺ بشئ لم يقدم إليهم فى غيره . فوعد على الكذب على رسول الله النار أ.هـ.

ثم هو يذكر من الأحاديث الشريفة مما يستدل به على حرمة الكذب على رسول الله ﷺ منها : روى بسنده المتصل عن وائلة بن الأسقع – رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (إن افْرَى الفرى . من قَوّلنى ما لم أقل . ومن أرى عينيه ما لم ترى . ومن أدعى إلى غير أبيه) ورواه البخارى ٤ / ١٨٠ .

وروى أيضا عن أبى سلمة عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : (من قال على ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار) ورواه مسلم ١ /٥ .

وروى أيضا بسنده المتصل عن أبى هريرة رضى الله عنه . أن رسول الله ﷺ قال : (حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج . وحدثوا عنى ولا تكذبوا على) ورواه الإمام أحمد فى المسند ج٣ ص ١٢ برقم ١١٠٨ أطول من هذا عن طرق متعددة وهى أحاديث صحاح كما ذكره الأستاذ أحمد شاكر فى هامش الرسالة .

ثم يقول الإمام الشافعى عن الحديث الأخير : وهذا أشد حديث روى عن رسول الله ﷺ فى هذا وعليه اعتمدنا مع غيره فى أن لا نقبل حديثا إلا من ثقة ونعرف صدق من حمل الحديث من حين ابتدئ إلى أن يُبلغ به منتهاه . فإن قال قائل : وما فى هذا الحديث من الدلالة على ما وصفت .

قيل : قد أحاط العلم أن النبى ﷺ لا يأمر أحدا بحال أبدا أن يكذب على بنى إسرائيل ولا على غيرهم . فإذا أباح الحديث عن بنى إسرائيل فليس أن يقبلوا الكذب على بنى إسرائيل أباح . وإنما أباح قبول ذلك عن من حدث به ممن يُجهَل صدقه وكذبه .

ولم يبحه أيضا عن من يُعرف كذبه لأنه يُروى عنه أنه « من حدث بحديث

وهو يُراه كذبا فهو أحد الكاذبين»[1] ومن حدث عن كذاب لم يبرأ من الكذب لأنه يرى الكذاب فى حديثه كاذبا.

ولا يستدل على أكثر صدق الحديث وكذبه إلا بصدق المخبر وكذبه إلا فى الخاص القليل من الحديث. وذلك أن يستدل على الصدق والكذب فيه بأن يحدث المحدث مالا يجوز أن يكون مثله أو ما يخالفه ما هو أثبت وأكثر دلالات بالصدق منه وإذ فرق رسول الله ﷺ بين الحديث عنه والحديث عن بنى اسرائيل فقال: «حدثوا عنى ولا تكذبوا على» فالعلم إن شاء الله يحيط أن الكذب الذى نهاهم عنه، هو الكذب الخفى. وذلك الحديث عمن لا يُعرف صدقه لأن الكذب إذا كان منهيا عنه على كل حال - فلا كذب أعظم من كذب على رسول الله ﷺ أ. هـ.

قال الشيخ شاكر فى حاشيته على الرسالة[2]: وهذا البحث الجليل الذى كتبه الشافعى تبعه فيه الخطابى. فقال فى معالم السنن (ج ٤ ص ١٨٧ - ١٨٨) عند هذا الحديث الذى روى أبو داود أوله قال: ليس معناه إباحة الكذب فى أخبار بنى إسرائيل ورفع الجرح عمن نقل عنهم الكذب. ولكن معناه الرخصة فى الحديث عنهم على معنى البلاغ وإن لم يتحقق صحة ذلك بنقل الإسناد وذلك لأنه أمر قد تعذر فى أخبارهم لبعد المسافة وطول المدة ووقوع الفترة بين زمانى النبوة وفيه دليل على أن الحديث لا يجوز عن النبى ﷺ إلا بنقل الإسناد والتثبت فيه. وقد روى الدراوردى هذا الحديث عن محمد بن عمرو بزيادة لفظ دل بها على صحة هذا المعنى ليس فى رواية على بن مسهر الذى رواها أبو داود عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج وحدثوا عنى ولا تكذبوا علىَّ) ومعلوم أن الكذب على بنى إسرائيل لا يجوز بحال فإنما أراد بقوله (وحدثوا عنى ولا تكذبوا علىَّ) أى تحرزوا من الكذب على بأن لا تحدثوا عنى إلا بما يصح عندكم من جهة الإسناد الذى به يقع التحرز عن الكذب علىَّ) أ.هـ.

---

(١) رواه مسلم ١/٥ عن سمرة بن جندب والمغيرة بن شعبة.

(٢) هامش ص ٤٠٠ من الرسالة.

إن أقوال الرسول ﷺ وأفعاله تشريع للأمة. والكذب عليه ليس كالكذب على غيره. ففي الكذب عليه أمر خطير لما يترتب عليه من حكم أو بيان لأمر أو تفسير لآية. لذلك كانت جهود علماء السنة في جمع الأحاديث والأخبار عن رسول الله ﷺ جهودا مضنية مكنتهم من التثبت من صحة الأخبار الصحيحة على اختلاف درجاتها وتمييزها عن غيرها من الأحاديث والأخبار الضعيفة والموضوعة.

وإمامنا الشافعي رضي الله عنه قد ساهم في هذا المجال مساهمة فعالة وقادرة وليس أدلّ على ذلك من كتبه التي وضعها في هذا الشأن:

المسند والسنن ومختلف الحديث وما رواه في كل مصنفاته: الأم وجماع العلم والرسالة واختلاف مالك واختلاف العراقيين وغيرها.

● **تثبيت خبر الواحد** [1]:

قال الشافعي: فإن قال قائل: اذكر الحجة في تثبيت خبر الواحد بنص خبر أو دلالة فيه إجماع.

فقلت له: أخبرنا سفيان - بن عيينة - عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه أن النبي - ﷺ - قال: (نضر الله عبدا سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله. والنصيحة للمسلمين ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم) [2].

فلما ندب رسول الله - ﷺ - إلى استماع مقالته وحفظها وآدائها امْرأً يؤديها. والإمْرُء واحد. دل على أنه لا يأمر أن يُؤدَّى عنه إلا ما تقوم به الحجة على من أدى إليه لأنه إنما يؤدى عنه حلال وحرام يجتنب، وحد يقام، ومال يؤخذ ويعطى، ونصيحة في دين ودنيا.

---

(١) انظر كتاب الرسالة ص ٤٠١ - ٤٧١.

(٢) رواه الشافعي والبيهقي في المدخل ورواه أحمد والترمذي وأبو داود عن زيد بن ثابت.

ودل على أنه قد يحمل الفقه غير فقيه يكون له حافظا ولا يكون فيه فقيها وأمْرُ رسول الله بلزوم جماعة المسلمين مما يحتج به فى أن إجماع المسلمين – إن شاء الله – لازم.

أخبرنا سفيان – بن عيينة – قال: أخبرنى سالم أبو النضر أنه سمع عبيد الله ابن أبى رافع يخبر عن أبيه قال: قال النبىُّ – ﷺ: (لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته. يأتيه الأمر من أمرى مما نهيت عنه أو أمرت به. فيقول: لا ندرى. ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه).

ثم قال الشافعى: وفى هذا تثبيت الخبر عن رسول الله – ﷺ – وإعلامهم أنه لازم لهم. وإن لم يجدوا له نص حكمٍ فى كتاب الله وهو موضوع فى غير هذا الموضع.

أخبرنا مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار: أن رجلا قبل امرأته وهو صائم فوجد من ذلك وجدا شديدا فأرسل امرأته تسأل عن ذلك فدخلتْ على أم سلمة أم المؤمنين فأخبرتها. فقالت أم سلمة إن رسول الله – ﷺ – يقبل وهو صائم. فرجعت المرأة إلى زوجها فأخبرته فزاده ذلك شرا وقال: لسنا مثل رسول الله – ﷺ – يحل الله – تعالى – لرسوله ما شاء فرجعت المرأة إلى أم سلمة. فوجدت رسول الله – ﷺ – عندها فقال رسول الله ﷺ: ما بال هذه المرأة؟ فأخبرته أم سلمة فقال: ألاَّ أخبرتها أنى أفعل ذلك؟ فقالت أم سلمة. قد أخبرتها فذهبت إلى زوجها فأخبرته فزاده ذلك شرا وقال: لسنا مثل رسول الله – ﷺ – يحل الله لرسوله ما شاء فغضب رسول الله – ﷺ – ثم قال: (إنى لأتقاكم لله ولأعلمكم به).

وقد سمعت من يصل هذا الحديث ولا يحضرنى ذكر من وصله [1] قال الشافعى: فى ذكر قول النبى ﷺ (ألاَّ أخبرتيها أنى أفعل ذلك) دلالة على أن خبر أم سلمة عنه مما يجوز قبوله. لأنه لا يأمرها بأن تخبر عن النبى – ﷺ – إلا وفى خبرها ما تكون الحجة لمن أخبرته.

---

(١) قال الزرقانى فى شرح الموطا ٢ / ٩٢ وصله عبد الرزاق بإسناد صحيح عن عطاء عن رجل من الأنصار ورواه الإمام أحمد فى المسند ٥ / ٤٣٤.

وهكذا خبر امرأته إن كانت من أهل الصدق عنده .

أخبرنا مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال :

(بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ أتاهم آت فقال : إن رسول الله – ﷺ – قد أنزل عليه قرآن وقد أمر أن يستقبل القبلة فاستقبلوها . وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة) .

وأهل قباء أهل سابقة من الأنصار وفقه وقد كانوا على قبلة فرض الله عليهم استقبالها . ولم يكن لهم أن يدعوا فرض الله فى القبلة إلا بما تقوم عليهم الحجة ولم يلقوا رسول الله – ﷺ – ولم يسمعوا ما أنزل الله عليه فى تحويل القبلة . فيكونون مستقبلين بكتاب الله وسنة نبيه سماعا من رسول الله – ﷺ – ولا بخبر عامة . وانتقلوا بخبر واحد إذا كان عندهم من أهل الصدق عن فرض كان عليهم فتركوه إلى ما أخبرهم عن النبى – ﷺ – أنه أحدث عليهم من تحويل القبلة ولم يكونوا ليفعلوه – إن شاء الله – بخبر إلا عن علم بأن الحجة تثبت بمثله إذا كان من أهل الصدق .

ولا ليحدثوا أيضا مثل هذا الأمر العظيم فى دينهم إلا عن علم بأن لهم إحداثه ولا يَدَعون أن يخبروا رسول الله – ﷺ – بما صنعوا منه ولو كان ما قبلوا من خبر الواحد عن رسول الله ﷺ – فى تحويل القبلة وهو فرض – مما يجوز لهم لقال لهم – إن شاء الله – رسول الله – ﷺ – قد كنتم على قبلة . ولم يكن لكم تركها إلا بعد علم تقوم عليكم به حجة من سماعكم منى أو خبر عامة أو أكثر من خبر واحد عنى أ.هـ .

ثم أخذ الإمام الشافعى رضى الله عنه : يذكر من أحاديث رسول الله ﷺ ومن آثار الصحابة والتابعين ما يستدل به على حجية تثبيت خبر الواحد . ثم هو يبين دلالة كل خبر أو أثر فى قوة وبيان منقطع النظير فى كتاب الرسالة وفى سائر كتبه الأخرى . ثم قال فى الرسالة (١) :

وكل حديث كتبته منقطعا فقد سمعته متصلا أو مشهورا عن من روى

(١) الرسالة ص ٤٣١ العلمية .

عنه بنقل عامة من أهل العلم يعرفونه عن عامة. ولكنى كرهت وضع حديث لا أتقنه حفظا وغاب عنى بعض كتبى وتحققت بما يعرفه أهل العلم مما حفظت فاختصرت خوف طول الكتاب فاتيت ببعض ما فيه الكفاية دون تقصى العلم فى كل أمره.

فقبل عمر خبر عبد الرحمن بن عوف [1] فى المجوس. فاخذ منهم وهو يتلو القرآن ﴿ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩] ويقرأ القرآن بقتال الكافرين حتى يسلموا وهو لا يعرف فيهم عن النبى - ﷺ - شيئا. وهم عنده من الكافرين غير أهل الكتاب فقبل خبر عبد الرحمن - رضى الله عنه - فى المجوس عن النبى - ﷺ - فاتبعه.

وحديث بجالة موصول فقد أدرك عمر بن الخطاب رجلا وكان كاتبا لبعض ولاته فإن قال قائل: قد طلب عمر مع رجل أخبره خبرا آخر.

قيل له: لا يطلب عمر مع رجل أخبره آخر إلا على أحد ثلاث معانى: إما أن يحتاط فيكون، وإن كانت الحجة تثبت بخبر الواحد فخبر الإثنين أكثر وهو لا يريدها إلا ثبوتا.

وقد رأيت ممن أثبت خبر الواحد من يطلب معه خبرا ثانيا ويكون فى يده السنة من رسول الله - ﷺ - من خمس وجوه فيحدث بسادس فيكتبه لأن الأخبار كلما تواترت وتظاهرت كان أثبت للحجة وأطيب لنفس السامع.

وقد رأيت من الحكام من يثبت عنده الشاهدان العدلان والثلاثة. فيقول للمشهود له: زدنى شهودا. وإنما يريد بذلك أن يكون أطيب لنفسه ولو لم يزده المشهود له على شاهدين لحكم له بهما.

ويحتمل أن يكون لم يعرف المخبر فيقف عن خبره حتى يأتى مخبر يعرفه ثم قال رضى الله عنه: ولكن أقول: لم أحفظ من فقهاء المسلمين أنهم اختلفوا فى

---

(١) روى الشافعى بسنده عن عمرو أنه سمع بجالة يقول: (ولم يكن عمر أخذ الجزية حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف أن النبى أخذها من مجوس هجر) هجر: هى قصبة بلاد البحرين.

تثبيت خبر الواحد بما وصفت من أن ذلك موجودا على كلهم وقال: فلا يجوز عندى على عالم أن يثبت خبرا واحدا كثيرا ويحل به ويحرم ويرد مثله. إلا من جهة أن يكون عنده حديث يخالفه. أو يكون ما سمع ومن سمع منه أوثق عنده ممن حدثه خلافه. أو يكون من حدثه ليس بحافظ أو يكون متهما عنده. أويتهم من فوقه ممن حدثه أو يكون الحديث محتملا معنيين فيتأول فيذهب إلى أحدهما دون الآخر. فأما أن يتوهم متوهم أن فقيها عاقلا يثبت سنة بخبر واحد مرة ومرارا ثم يدعها بخبر مثله وأوثق بلا واحد من هذه الوجوه التى تُشبه بالتأويل كما شُبِّه على المتأولين فى القرآن وتهمة المخبر أو علم بخبر خلافه – فلا يجوز إن شاء الله . أ. هـ .

هذا وقد كان الإمام الشافعى رضى الله عنه لا يقبل الرواية المرسلة ولا يحتج بها وقد صرح بذلك فى مسنده الذى رواه عنه الربيع المرادى [١] . فقال: وقد رويت أحاديث مرسلة عن النبى ﷺ فى العقوبات وتوقيتها تركناها لانقطاعها ونقل البيهقى عنه كلاما فى قبول مراسيل كبار التابعين وقال: فالشافعى رحمه الله يقبل مراسيل كبار التابعين إذا انضم إليها ما يؤكدها وإذا لم ينضم إليها ما يؤكدها لم يقبلها سواء كان مرسل ابن المسيب أو غيره وهو ما ذكره الإمامان البيهقى وابن أبى حاتم رحمهما الله تعالى [٢].

وقد انفرد الإمام الشافعى رضى الله عنه ببعض الآراء فى مصطلح الحديث واشتهر عنه عدم التفريق بين قولهم «حدثنا» و«أنبأنا» وكان يعدهما شيئًا واحدا.

وقد ذكر ابن أبى حاتم والبيهقى أن الشافعى رجع عن ذلك إلى رأى المحدثين فى التفريق بين الفعلين وكان يعرف الشاذ بمخالفة الثقة للثقات ولا يجيز اختصار الحديث [٣].

---

(١) المسند ص ٤٦٤ .

(٢) المناقب للبيهقى ٢ / ٣٢ والمناقب لابن أبى حاتم ٢٣٢ .

(٣) المناقب للبيهقى ٢ / ٣٠ .

وكان الشافعى رضى الله عنه ينهى عن الرواية عن أهل العراق ومن قبلها روى أبو عوانة قال: سمعت يونس بن عبد الاعلى يقول: قال لى الشافعى: ما أتاك من هاهنا وأشار إلى العراق لا يكون له هاهنا أصل وأشار إلى الحجاز وإلى المدينة فلا تعتد به.

قال أحمد: وقد روينا فى ذم رواية أهل العراق عن سعد بن أبى وقاص وابن عمرو وعائشة ثم عن طاووس والزهرى وهشام بن عروة ومالك بن أنس وغيرهم.

وكان مالك بن أنس رحمه الله يقول: لم يأخذ أوّلونا عن أوليكم فكذا آخرونا لآ يأخذون عن آخريكم.

ثم إن الشافعى أملى فى ذلك ما أخبرنا أبو سعد أحمد بن محمد المالينى قال: أخبرنا أبو أحمد بن عدى الحافظ قال: أخبرنا على بن أحمد المدائنى قال: أخبرنا بحر بن نصر قال أملى علينا الشافعى قال:

من عرف من أهل العراق ومن أهل بلدنا بالصدق والحفظ قبلنا حديثه. ومن عرف منهم ومن أهل بلدنا بالغلط رددنا حديثه وما حابينا أحدا ولا حملنا عليه قال أحمد: وعلى هذا مذاهب أكثر أهل العلم بالحديث، وإنما رغب بعض السلف عن رواية أهل العراق لما ظهر من المناكير والتدليس فى روايات بعضهم.

ثم قام بهذا العلم جماعة منهم ومن غيرهم فميزوا أهل الصدق من غيرهم ومن دلس ممن ليس يدلس وصفوا فيه الكتب حتى أصبح من عمل فى معرفة ما عرفوه وسعى فى الوقوف على ما عملوه على خبرة من دينه وصحة ما يجب الاعتماد عليه من سنة رسول الله ﷺ فلله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة.

وروى عن حرملة بن يحيى قال: سمعت الشافعى يقول: لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق فكان يجئ إلى الرجل ويقول: لا تحدث وإلا استعديت عليك السلطان.

ثم قال البيهقى: فأما ترجيح رواية أهل الحجاز عند الاختلاف على رواية غيرهم وأنهم أعلم بسنن رسول الله ﷺ من غيرهم فإليه ذهب أكثر أهل العلم بالحديث. وروينا عن زيد بن ثابت أنه قال:

إذا رأيت أهل المدينة على شئ؟ فاعلم أنه السنة.

وقال عبد الله بن المبارك: حديث أهل المدينة أصح وإسنادهم أقرب واحتج الشافعى فى القديم فى ذلك بما روى عن النبى ﷺ أنه قال: (تعلموا من قريش ولا تعلموها، وقدموها ولا تقدموها).

وقال: (قوة الرجل من قريش مثل قوة رجلين من غيرهم) يعنى نبل الرأى وقال النبى ﷺ: (الإيمان يمان والحكمة يمانية) (رواه الشيخان).

قال الشافعى: ومكة والمدينة يمانيتان مع ما دل به على فضلهم فى علمهم.

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يوشك الناس أن يضربوا أكباد الإبل فى طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة) رواه أحمد والحاكم.

هذا وقد أملى الشافعى فى الجديد أحاديث فى فضائل قريش والأنصار وسائر قبائل العرب. وقصده من ذلك: ترجيح معرفتهم بالسنن على معرفة غيرهم) [1] اعلم أنه إذا ثبت صحة ورود الخبر عن رسول الله ﷺ فإنه يجب العمل به عند الإمام الشافعى رضى الله عنه. وكذا قال به الإمام أحمد بن حنبل وغيرهما لأن رفض العمل بالحديث الصحيح. رد لسنة صحيحة وهو أمر له طورته الإيمانية. لأن التصديق بنبوة النبى ﷺ تلزمنا بان ناخذ عنه كل ما روى عنه قولا أو فعلا أو تقريرا أو صفة. قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾. وهكذا دافع إمامنا الشافعى رضى الله عنه عن السنة الشريفة بما لم يسبق بمثله. ولم يأت أحد من بعده مدافعا عنها إلا كان مقتبسا منه أو كان أضعف منه فإن كتابه القيم «الرسالة» قد تناول فيه قضية السنة تناولا يندر أن يحدث من غيره. لذلك فأنت تراه فى كتبه ومؤلفاته عالم السنة بدون منازع وفارس ميدانها بدون مكافئ رحمه الله رحمة واسعة.

---

(١) راجع معرفة السنن والآثار للبيهقى ١ / ٨٥ – ٦٣ إذا أردت المزيد.

كَذَب المفتـرون

لا يشك أحد من أهل العلم فى علو مكانة الإمام الشافعى رضى الله عنه فى تحصيل وتدريس وإملاء العلوم الشرعية لانه، أحد الأئمة الأربعة الذين يشار إليهم بالبنان .

وقد تجرأ بعض الحاسدين له، فاتهمه بالضعف فى رواية الأحاديث الشريفة وتفرده ببعض الآراء كالقنوت فى صلاة الصبح وغيره واعتبروا ذلك نقيصة فيه . وكتاب الفكر السامى فى تاريخ الفقه الإسلامى تأليف : محمد بن الحسن الحجوى الثعالبى الفاسى . من بين الكتب المليئة بالافتراءات على بعض الأئمة من علماء التابعين وغيرهم وقد لمز فيه مؤلفه الإمام الشافعى فى أمور عديدة فى مواضع مختلفة واتهمه بالتقصير فى رواية الحديث وضعف الأحاديث الواردة والتى فهم منها العلماء أنها تشير إلى الشافعى ونفى أن يكون الإمام الشافعى المقصود بها ولا عجب فالرجل ذو اتجاه متعصب من دعاة السلفية المعاصرة .

وأقول له ولغيره ممن رموا الإمام الشافعى رضى الله عنه بالتقصير أو بالجهل فى رواية السنة : قفوا مكانكم وابكوا على ما أخطأتم فيه . فإن الإمام لم يكن كما قلتم – ولكنه الحقد الأعمى – فلقد كان إماما حافظا لعلوم الشريعة واللغة وغيرها . ورأى هؤلاء وأولئك رأى غير صحيح لما يلى :

أولا : لقد كانت السنة هى شغله الشاغل كما أنها كانت أول من عمل على تحصيله ودراسته بعد كتاب الله عز وجل . فلقد سمع الحديث وهو فى سن الصبا والشباب من الأعلام، سمع بمكة من سفيان بن عيينة رضى الله عنه وسمع بالمدينة المنورة من الإمام مالك رضى الله عنه وهما أجل الأئمة فى عصره ولقد روى عنه أنه قد حفظ «الموطأ» قبل أن يتصل بالإمام مالك .

ثانيا : لقد أسس الشافعى مذهبه فى العقيدة والفقه على نصوص الكتاب ونصوص السنة . وقد توسع فى ذلك كثيرا مما جعله ينكر على أهل الرأى آراءهم غير المؤسسة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

وقد رد على الإمام مالك القول بالاستحسان وسد الذرائع والقول بعمل أهل المدينة لما رأى أن ذلك لا يستند على نص من الكتاب أو من السنة .

وفى سبيل ذلك وضع كتابيه : الرسالة والحجة للرد على أصحاب القول بالرأى .

ثالثا : لقد وضع كتابه « الرسالة » القديمة والجديدة فى علم أصول الفقه مبينا فى الرسالتين خطورة السنة فى التشريع وكيف أن التشريع الفقهى لا ينهض بغيرها ويقر أن الحديث ، متواترا أو آحادا – طالما أنه قد ثبت صحة نقله عن رسول الله ﷺ فإنه يجب العمل به .

رابعا : مما يدل على صحة روايته للأحاديث ما ذكر فى كتبه إملاء وتدريسا من الأحاديث الشريفة مثل : المسند ، السنن ، اختلاف الحديث اختلاف مالك ، إبطال الاستحسان ، الأم .

إن كل هذه الكتب : بعضها فى جمع الأحاديث والبعض الآخر يتضمن بعض الأحاديث التى شهد لها العلماء الأجلاء بصحة الرواية فيها .

خامسا : الإمام الشافعى رضى الله عنه هو عالم قريش وفقيهها الذى نبه عليه الرسول ﷺ فيما صحت روايته عنه . وليس ابن عباس رضى الله عنهما ولا غيره . لأن عليا بن أبى طالب كرم الله وجهه وابن عباس رضى الله عنهما كانا من الصحابة والصحابة رضى الله عنهم لم تكن لهم مذاهب مدونة . وفى مسائل العلم كان يكمل بعضهم البعض الآخر .

والحديث الوارد – لفظا ومعنى – يشير إلى عالم جمع الله له مسائل العلم ودقائقه ولم يحفظ العلماء لأحد من قريش مثل ما حفظوا للشافعى رضى الله عنه .

سادسا : الإمام الشافعى هو الإمام الوحيد الذى انضم إليه جمع كبير من علماء المذاهب الأخرى ، ولو كان مقصرا فى أى أمر لما انضم إليه هؤلاء العلماء وشهدوا له بالعلم والمعرفة وبعضهم أئمة أو بلغ مرتبة الإمامة .

يقول أبو بكر بن أبى داود سمعت أبى يقول: «ليس من العلماء أحد إلا وقد أخطأ فى حديثه إلا بشر بن المفضل وما أعرف للشافعى حديثا خطأ».

ويقول أبو زرعة الرازى (ما عند الشافعى حديث غلط فيه) .

وقال أبو بكر بن الأثرم: قلت لأبى عبد الله بن حنبل: الشافعى كان صاحب حديث؟ قال أبى: والله صاحب حديث.

وقال الحارث بن سريج سمعت يحيى بن سعيد القطان يقول: إنى لأدعو الله للشافعى وحده ولما قرأ الإمام عبد الرحمن بن مهدى الرسالة للشافعى قال (ما أصلى صلاة إلا وأدعو للشافعى فيها) .

ويقول الإمام أحمد بن حنبل: (صاحب الحديث لا يشبع من كتب الشافعى) وقال غيره (لا يستغنى) .

وبعد فهذا قليل من كثير ولقد قام الإمام البيهقى رحمه الله تعالى بجهد ضخم نرجو الله تعالى أن يدخره له عنده، لقد دافع عن الإمام الشافعى دفاعا مريراً ورد كيد الكائدين ورد بغى الظالمين فى أجل كتبه:

كتاب: معرفة السنن والآثار، وهو مطبوع فى خمس مجلدات.

وكتاب: بيان خطأ من أخطأ على الشافعى فى مجلد واحد بتحقيق الدكتور الشريف نايف الدعبس جزاه الله خيرا عن تعليقه وتحقيقه لهذا الكتاب العظيم.

ففى هذين الكتابين ما يشفى العليل ويروى الظمآن.

وأختم هذا بقول الإمام المزنى تلميذ الشافعى رضى الله عنهما:

يقول المزنى: (من شاء من خلق الله عز وجل ناظرته على خطأ الشافعى أن الخطأ من الكاتب ليس منه) .

وهذا معناه أن البيهقى لم ينفرد وحده بالدفاع عن الإمام الشافعى رضى الله عنه وإنما سبقه غيره.

وقديما قالوا: (إن الشجرة المثمرة يكثر قذفها بالحجارة) .

والله ولى التوفيق ،

الإمام الشافعى وعلم الكلام

كان الإمام الشافعى رضى الله عنه يكره الاشتغال بعلم الكلام أو التحدث فى مسائله، وقد أفتى بتحريم الاشتغال به.

قال يونس بن عبد الأعلى رحمه الله تعالى: أتيت الشافعى بعدما ناظر فى الأصول مع (حفص الفرد) فقال: غبت عنا يا أبا موسى: ولقد اطلعت من أهل الكلام على شئ ما توهمته قط ولأن يبتلى المرء بجميع ما نهى الله عز وجل عنه سوى الشرك بالله خير من أن يبتليه الله عز وجل بالكلام.

وروى عن أبى ثور عن الشافعى أنه قال: ما ابتدى أحد بالكلام فأفلح وقال الحسن بن محمد الزعفرانى: سمعت الشافعى يقول:

حكمى فى أصحاب الكلام. أن يضربوا بالجريد. ويحملوا على الإبل منكسين ويطاف بهم فى العشائر والقبائل ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ فى الكلام.

وروى الربيع عن الشافعى أنه قال: لو أن رجلا أوصى بكتبه من العلم لأحد. وكان فيها كتب الكلام لم تدخل تلك الكتب فى الوصية لأنها ليست من كتب العلم ولو أوصى لأهل العلم لم يدخل أهل الكلام فى تلك الوصية وقال: لو علم الناس ما يحل بالعالم بالكلام من العذاب. لفروا منه كما يفر الإنسان من الأسد.

وقال: إياكم والنظر فى الكلام فإن رجلا لو سئل عن مسألة فى الفقه فأخطأ فيها كما لو سئل عن رجل قتل رجلا فقال: ديته بيضة. كان أكثر شئ أن يضحك منه، ولو سئل عن مسألة فى الكلام فأخطأ فيها. نسب إلى البدعة.

وعن أبى ثور قال: قلت للشافعى: ضع فى الكلام شيئا. فقال: من تردى فى الكلام لم يفلح.

وقال المزنى: سمعت الشافعى يقول: الكلام يلعن أهل الكلام، وعن عبد

الله بن أحمد بن حنبل قال: سعت أبى يقول: خير خصلة فى الشافعى أنه ما كان يشتهى الكلام. إنما همته الفقه.

وعن الربيع عن الشافعى أنه قال: رأيت أهل الكلام يكفر بعضهم بعضا ورأيت أهل الحديث يخطئ بعضهم بعضا والتخطئة أهون من التكفير وروى أن الشافعى أنشد فى ذم الجدل فقال:

لم يبرح الناس حتى أحدثوا بدعا   فى الدين بالرأى لم تبعث بها الرسل

حتى استخف بدين الله أكثرهم   وفى الذى حملوا من حقه شغل

ولم يصدر حكم الإمام الشافعى على علم الكلام والمتكلمين عن هوى أو عن جهالة وإنما علم ومعرفة ودراية بكل مسائله وقضاياه. ومنهج البحث فيه على طريقة المتكلمين.

وترجع أهم أسباب رفضه الاشتغال بعلم الكلم إلى أمرين:

الأول: إن الاشتغال بهذا العلم يأخذ بالإنسان إلى الهاوية والضلال فى بعض مسائله، ولا فائدة ترجى من وراء البحث والجدل على طريقة المتكلمين إلا وراثة الشك والقلق.

الثانى: إن المعتزلة هم أول الناس اشتغالا بهذا العلم، وهم الذين روجوا له وطلبوا من الخلفاء وخاصة فى الدولة العباسية حمل علماء المسلمين جميعا على الأخذ بآراء المعتزلة فى أمر العقيدة.

روى عن المزنى أنه قال: كنا على باب الشافعى رضى الله عنه نتناظر فى الكلام فخرج إلينا فسمع بعض ما كنا فيه فرجع عنا ثم خرج إلينا وقال: ما منعنى الخروج إليكم إلا أننى سمعتكم تتناظرون فى الكلام أتظنون أنى لا أحسنه؟ لقد دخلت فيه حتى بلغت مبلغا عظيما. إلا أن الكلام لا غاية له. تناظروا فى شئ إن أخطاتم فيه يقال أخطاتم ولا يقال كفرتم. وعند الحاكم: ولا تناظروا فى شئ إن أخطاتم فيه يقال كفرتم قال البيهقى: وهذه الحكاية تدل على أن الشافعى كان عالما بهذا العلم. إلا أنه ما كان يفتح فيه باب المناظرة للخوف من المفاسد المتولدة منها. أ.هـ.

إن ذم الشافعي رضى الله عنه لهذا العلم لم يكن رفضا له أو جهلا به . ولكنه كان يكره طريقة المتكلمين وجدالهم، وإثارتهم للفتن وتعرضهم للكلام فى أمور تفرق كلمة الأمة، وتنزع عنها لباس الوحدة والألفة والمحبة، إنه كان يحب البحث فى علم الكلام (أصول الدين) بمنهج القرآن والسنة فالإمام رضى الله عنه كان قرآني العقيدة بمعنى : أنه كان يرى أن فى القرآن والسنة الكفاية فى أمور العقيدة الإسلامية، ولا يجوز للعقل أن يبحث ولا أن يجادل فى أمورها لأنه لا اجتهاد فى العقيدة . فهى تؤخذ من الوحى .

(وقد روى أن الإمام الشافعي رضى الله عنه كان له كتاب اسمه من نوادر الأصول فى علم التوحيد – الفقه الأكبر، شرح فيه علم التوحيد على هذا النحو : شرائط وجوب المعرفة – معنى النظر – الخالق والمحدث – الوحدانية – ليس الله بجوهر ولا جسم ولا عرض – الصفات والذات – صفة الكلام – الرؤية – أفعال العباد الخلق لله والكسب للعبد لا يجب على الله شئ – خلق الله العالم لا عن علة – البعث – النبوءات – المعجزات – عصمة الأنبياء – المعصية لا تنفى الإيمان – الشفاعة – وجود الجنة والنار الآن – عذاب القبر – الميزان والصراط – الإمامه) [1].

ومعنى هذا أنه كان يتكلم فى العقيدة بمنهج الكتاب والسنة لا بمنهج علماء الكلام لما رآه من الفتن العظيمة التى وقعت فى ذلك الزمان بسبب خوض المتكلمين فى مسائل مبتدعة ومشاكل مصطنعة كما حدث من المعتزلة وغيرهم من المبتدعة فى مسألة خلق القرآن . وغيرها، وقد استعانوا فى ذلك بجبروت السلطان وقهروا أهل الحق ولم يلتفتوا إلى دلائل المحققين من علماء أهل السنة حتى كانت محنة الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه [2] فلما عرف الإمام الشافعي رضى الله عنه أن البحث فى هذا العلم فى هذا الزمان ليس لله وإنما لدنيا يطلبونها، كما أن البحث فى هذا العلم لم يكن هدفا للشافعي الذى كان هدفه

---

(١) راجع هامش مناقب الإمام الشافعي للرازى ص ٩٧ .

(٢) انظر حديث المحنة فى كتابنا (الإمام أحمد بن حنبل) .

العلم بالسنن والأحكام والشرائع الفقهية لذلك ترك البحث فى مسائل العقيدة – رغم علمه بها – وذم الكلاميين وكل من سلك سبيلهم. وكان ذمه لكلامهم المبتدع وليس لمسائل هذا العلم، يدل على ذلك ما رواه الحافظ البيهقى فى مناقب الشافعى بإسناده عن المزنى أنه قال: دار بينى وبين رجل مناظرة فسألنى عن كلام – إن صح – كاد أن يشككنى فى دينى، فجئت إلى الشافعى فقلت له: كان من الأمر كيت وكيت. فقال الشافعى: (هذه مسألة الملحدين والجواب عنها كيت وكيت).

قال البيهقى: وهذا يدل على حسن معرفة الشافعى بالكلام فإنه لولا أن الأمر كذلك وإلا لما قدر على الجواب عن تلك الشبهة.

وإليك أخى القارئ بعض النماذج التى تدل فى وضوح على أن الإمام الشافعى كان على معرفة تامة وحسنة بمسائل هذا العلم.

(١) الإيمـان :

حدث الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعى رضى الله عنه يقول: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص.

وحدث أيضا قال: حدثنا الشافعى فى مسألة ذكرها فى كتاب السنن وهكذا إن صلى فالصلاة من الإيمان.

وقال الشافعى فى «الأم» فى كتاب الصيد والذبائح فى مسألة ذكرها: وأحب أن يكثر الصلاة عليه يعنى على النبى ﷺ – فصلى عليه فى كل الحالات. لأن ذكر الله والصلاة عليه. إيمان بالله وعبادة له يؤجر عليها إن شاء الله من قالها.

ثم ساق الكلام إلى أن قال: وما يصلى عليه أحد إلا إيمانا بالله وإعظاما له وتقربا إليه. وقربنا بالصلاة عليه منه زلفى [١].

وحدث أبو عثمان: محمد بن محمد الشافعى – ولد الإمام – قال: سمعت أبى محمد بن إدريس الشافعى يقول ليلة للحميدى: ما يحتج

---

(١) إنه يعتقد فى صحة التوسل برسول الله ﷺ.

عليهم – يعني على أهل الإرجاء – أحج من قوله عز وجل: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** ﴾ [البينة: ٥].

وروى عن حرملة أنه قال: اجتمع حفص الفرد ومصلان الأنماطى عند الشافعي بمصر فتكلما في الإيمان فاحتج مصلان في الزيادة والنقصان واحتج الفرد في الإيمان قولا فعلا حفص الفرد على مصلان وقوى عليه وضعف مصلان. فشق على الشافعي فأخذ المسألة على أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص فطحن حفص الفرد وقطعه [1]. أ. هـ.

وروى عن أبي محمد الزبيرى قال:

قال رجل للشافعي: أى الأعمال عند الله أفضل؟

قال الشافعي: ما لا يقبل الله عملا إلا به. قال: وما ذاك؟

قال: الإيمان بالله الذى لا إله إلا هو أعلى الأعمال درجة وأشرفها منزلة وأسناها حظا.

قال الرجل: ألا تخبرنى عن الإيمان. قول وعمل. أو قول بلا عمل؟.

قال الشافعي: الإيمان عمل لله. والقول بعض ذلك العمل.

قال الرجل: صف لى ذلك حتى أفهمه.

قال الشافعي: إن للإيمان حالات ودرجات وطبقات فمنها التام المنتهى تمامه والناقص البين نقصانه. والراجح الزائد رجحانه.

قال الرجل: وإن الإيمان ليتم وينقص ويزيد؟ قال الشافعي: نعم.

قال: وما الدليل على ذلك؟.

قال الشافعي: إن الله جل ذكره فرض الإيمان على جوارح بنى آدم فقسمه فيها. وفرقه عليها فليس من جوارحه جارحة إلا وقد وكلت من الإيمان بغير ما وكلت به أختها. بفرض من الله تعالى.

---

(١) مناصرة الشافعي لمصلان في كون الأعمال من الإيمان لأن مصلان من الإباضية وهم يرون العمل من الإيمان.

ثم أخذ يبين ذلك للرجل فى تفصيل وشرح إلى أن قال:

ولو كان هذا الإيمان واحدا لا نقصان فيه ولا زيادة لم يكن لأحد فيه فضل واستوى الناس وبطل التفضيل ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة. وبالزيادة فى الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله فى الجنة. وبالنقصان من الإيمان دخل المفرطون النار أ.هـ.

وقال الشافعى أيضا: إن الله جل وعز. سابق بن عبادة كما سوبق بين الخيل يوم الرهان ثم إنهم على درجاتهم من سبق عليه فجعل كل امرئ على درجة سبقه لا ينقصه فيها حقه. ولا يقدم مسبوق على سابق ولا مفضول على فاضل وبذلك فضل أول هذه الأمة على آخرها ولو لم يكن لمن سبق إلى الإيمان فضل على من أبطأ عنه للحق آخر هذه الأمة بأولها.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: قد رأيت هذا الجواب عن الإيمان «لابن عبيد» أبسط من هذا. فإن صحت الحكايتان فيحتمل أن يكون أبو عبيد أخذه من الشافعى ثم زاد فى البيان، ويحتمل أن يوافق قول قولا. والله أعلم.

إن الإمام الشافعى رضى الله عنه قد قال فى الإيمان بمثل ما كان يعتقده السلف الصالح رضى الله عنهم ويقولون به (الإيمان قول وعمل يزيد وينقص).

قال الإمام البغوى رحمه الله فى السنة: (اتفقت الصحابة والتابعون فمن بعدهم من علماء السنة على أن الأعمال من الإيمان، وقالوا: إن الإيمان قول وعمل وعقيدة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية).

وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام - رحمه الله - (فالأمر الذى عليه أهل السنة عندنا ما نص عليه علماؤنا مما اقتصصنا فى كتابنا هذا: أن الإيمان بالنية والقول والعمل جميعا وأنه درجات بعضها فوق بعض) وقال الحافظ أبو القاسم اللالكائى:

(سياق ما روى عن النبى ﷺ فى أن الإيمان تلفظ باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح).

وقد ذكر فى هذا الأمر روايات كثيرة من الحديث وأقوال الصحابة والتابعين وقال الأجرى فى الشريعة: (اعلموا رحمنا الله وإياكم أن الذى عليه علماء

المسلمين: أن الإيمان واجب على جميع الخلق وهو تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعل بالجوارح.

ثم اعلموا أنه لا تجزئ المعرفة بالقلب والتصديق إلا أن يكون معه الإيمان باللسان نطقا، ولا تجزئ معرفة بالقلب ونطق باللسان حتى يكون عمل بالجوارح فإذا كملت هذه الخصال كان مؤمنا.

دل على ذلك الكتاب والسنة وقول علماء المسلمين).

وروى عن شيخ المحدثين والحفاظ الإمام البخارى رضى الله عنه أنه قال: (لقيت أكثر من ألف رجل من أهل العلم .. أن الدين قول وعمل) [1].

وقد نقل البغوى والبيهقى وابن عبد البر الإجماع على أن الإيمان قول وعمل وروى عن عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمهما الله تعالى بسنده عن عبد الرزاق قال: (كان معمر وابن جريج والثورى ومالك وابن عيينة يقولون:

الإيمان قول وعمل يزيد وينقص. قال عبد الرزاق: وأنا أقول ذلك: الإيمان قول وعمل والإيمان يزيد وينقص فإن خالفته فقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين) هذا وقد قال الحافظ اللالكائى رحمه الله:

قال الشافعى رحمه الله فى كتاب الأم فى باب النية فى الصلاة: نحتج بأنه لا تجزئ صلاة إلا بنية لحديث عمر بن الخطاب عن النبى ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات) ثم قال: وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ممن أدركناهم أن الإيمان: قول وعمل ونية لا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر).

وحدث الربيع قال: سمعت الشافعى يقول: (الإيمان قول وعمل واعتقاد القلب ألا ترى قول الله عز وجل ﴿**وما كان الله ليضيع إيمانكم**﴾ يعنى صلاتكم إلى بيت المقدس فسمى الصلاة إيمانا وهى قول وعمل وعقد) ذكره ابن عبد البر فى الانتقاء.

وروى أبو نعيم فى حلية الأولياء بسنده عن الربيع بن سليمان قال:

سأل رجل من أهل بلخ الشافعى عن الإيمان. فقال للرجل: فما تقول أنت

---

(١) فتح البارى ٤٧/١.

فيه؟ قال أقول: إن الإيمان قول. قال: ومن أين قلت؟ قال: من قول الله تعالى: **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** – فصار الواو فصلا بين الإيمان والعمل **فالإيمان قول** والأعمال شرائعه.

فقال الشافعي: وعندك الواو فصل؟ قال: نعم: قال: فإذا كنت تعبد إلهين إلهـا في المشرق وإلهـا في المغرب. لأن الله تعالى يقول: ﴿ **رب المشرقين ورب المغربين** ﴾ فغضب الرجل وقال: سبحان الله أجعلتني وثنيا؟ فقال الشافعي: بل أنت جعلت نفسك كذلك قال: كيف؟ قال: بزعمك أن الواو فصل. فقال الرجل: فإني أستغفر الله مما قلت. بل لا أعبد إلا ربا واحدا ولا أقول بعد اليوم إن الواو فصل بل أقول: إن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص. قال الربيع: فانفق على باب الشافعي مالا عظيما وجمع كتب الشافعي وخرج من مصر سنيا. ا.هـ.

فهذا الذي روى عن الشافعي رضى الله عنه ليس بدعا من القول ولا هذيانا ذكر الآجرى في الشريعة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقول لأصحابه (هلموا نزداد إيمانا فيذكرون الله عز وجل).

وقال ابن عباس وأبو هريرة رضى الله عنهما (الإيمان يزداد وينقص).

وروى في صحيح البخارى رحمه الله: باب زيادة الإيمان ونقصانه وقول الله تعالى ﴿ **وزدناهم هدى** ﴾ ﴿ **ويزداد الذين آمنوا إيمانا** ﴾ ﴿ **فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ فإذا ترك شيئا من الكمال فهو ناقص. ا. هـ.

وخلاصة قول الشافعي رضى الله عنه في الإيمان ما ذكره في كتاب الفقه الأكبر. ونصه: فصل في الإيمان: واعلموا أن الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان، ثم الإيمان أصل وفرع؛ فأصله: ما إذا تركه العبد كفر كالمعرفة والتصديق، واعتقاد ما يجب اعتقاده من أحكام المكلفين، وفرعه: إذا ما تركه العبد لم يكفر، ولكن يعصى في ترك البعض، كالصلوات المفروضات وغيرها من الواجبات [1].

● الاستثناء في الإيمان:

اختلف العلماء حول هذه القضية، جوز ذلك بعضهم ومنعه آخرون.

---

(١) هامش مناقب الإمام الشافعي للرازى ص ١٢٢.

قال الإمام الآجرى فى كتابه «الشريعة» [1] رحمه الله تعالى: من صفة أهل الحق ممن ذكرنا من أهل العلم: الاستثناء فى الإيمان لا على سبيل الشك نعوذ بالله من الشك فى الإيمان ولكن خوف التزكية لأنفسهم من الاستكمال للإيمان لا يدرى أهو ممن يستحق حقيقة الإيمان أم لا. وذلك أن أهل العلم من أهل الحق إذا سئلوا أمؤمن أنت؟ قال: آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار وأشباه هذا والناطق بهذا والمصدق به بقلبه مؤمن. وإنما الاستثناء فى الإيمان لا يدرى أهو ممن يستوجب ما نعت الله عز وجل به المؤمنين من حقيقة الإيمان أم لا.

هذا طريق الصحابة رضى الله عنهم والتابعين لهم بإحسان عندهم أن الاستثناء فى الأعمال لا يكون فى القول والتصديق بالقلب وإنما الاستثناء فى الأعمال الموجبة لحقيقة الإيمان.

والناس عندهم على الظاهر مؤمنون به يتوارثون، وبه يتناكحون وبه تجرى أحكام ملة الإسلام. أ. هـ.

فما ذكره الآجرى رحمه الله تعالى هو ما قال به سلف الأمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم والأئمة الأعلام من الفقهاء والمحدثين رضى الله عنهم أجمعين.

روى أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله تعالى بسنده أن رجلا قال عند ابن مسعود رضى الله عنه: أنا مؤمن. فقال ابن مسعود: أفأنت من أهل الجنة؟ فقال: أرجو. فقال ابن مسعود: أفلا وكلت الأولى كما وكلت الأخرى.

وروى عن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه قال: سمعت يحيى بن سعيد يقول: (ما أدركت أحدا إلا على الاستثناء).

وهذا مقرر فى كتاب الله عز وجل وفى سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

---

(١) الشريعة ص ١٣٦.

وقال ﷺ فى السلام على أهل القبور : (السلام عليكم دار قوم مؤمنين . وإنا إن شاء الله بكم لاحقون) [1] .

وقال قال الإمام الشافعى رضى الله عنه بجواز الاستثناء فى الإيمان .

قال أبو البقاء الفتوحى الحنبلى رحمه الله تعالى : ويجوز الاستثناء فيه أى فى الإيما بان يقول : أنا مؤمن إن شاء الله، نص على ذلك الإمام أحمد والإمام الشافعى وحكى عن ابن مسعود رضى الله عنهم، وقد عاب بعض العلماء على الإمام الشافعى القول بجواز الاستثناء فى الإيمان يرد هذا الاعتراض على الشافعى رضى الله عنه الإمام الفخر الرازى رحمه الله [2] فيقول : عابوا على الشافعى قوله : أنا مؤمن إن شاء الله .

والجواب : أن هذا القول منقول عن كثير من السلف . قيل للحسن : أمؤمن أنت؟ فقال : إن شاء الله . فقيل له : تستثنى يا أبا سعيد فى الإيمان؟ فقال : أخاف أن اقول : نعم . فيقول الله : كذبت .

وقال إبراهيم : إذ قيل لك : أمؤمن أنت؟ فقل : لا إله إلا الله، وقال مرة أخرى فقل : أنا لا أشك فى الإيمان . وسؤالك إياى بدعة .

وقيل لعلقمة : أمؤمن أنت؟ فقال : أرجو إن شاء الله . وقال : سفيان الثورى من قال : أنا مؤمن عند الله فهو من الكذابين . ومن قال : أنا مؤمن حقا . فهو مبتدع – هكذا حكى البيهقى فى هذا الباب عن السلف .

والإشكال فيه : أنه إن كان الرجل جازما بكونه مؤمنا، كان توقفه باطلا لأنه من كان مؤمنا فى نفسه كان مؤمنا عند الله، كما أن من كان طويلا أو شيخا فى نفسه كان عند الله كذلك . وإن كان شاكا فى إيمانه كان غير مؤمن .

وجوابه : إن هذا الاستثناء ليس للشك بل لوجوه أخرى هى :

(أ) إن الإيمان أفضل الصفات . فإذا قال الرجل . أنا مؤمن حقا فقد وصف نفسه بأفضل الصفات فكان هذا تزكية للنفس وتزكية النفس مذمومه، قال الله

---

(١) مسلم ١ / ٢١٨ .

(٢) مناقب الإمام الشافعى ص ١٣٧ – ١٣٩ .

تعـالى: ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [النجم: ٣٢] وقـال تعـالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ [النساء: ٤٩] فالمقصود من قولنا: إن شاء الله هضم النفس وترك تزكيتها.

(ب) المقصود منه التأدب بذكر الله تعالى في جميع الأمور قال الله تعالى: ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف: ٢٣ – ٢٤] ثم لم يقتصر على ذلك في حق العباد. بل ذكر ذلك في كلام نفسه فقال: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ ﴾ [الفتح: ٢٧] وكان تعالى عالما بانه يدخل لا محالة، وكان النبي ﷺ إذا دخل المقابر قال: (السلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله عن قريب بكم لاحقون) وهذا اللحوق غير مشكوك فيه، لكن المقصود رعاية الأدب فكذلك ههنا.

(جـ) إنه تعالى شرف قوما بقوله: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾

[الأنفال: ٤]

والمقصود منه، كونهم كاملين في نتائج الإيمان وثمراته فقولنا: أنا مؤمن إن شاء الله. عائد إلى كمال حال الإيمان. وذلك الكمال هو فعل الطاعات والاجتناب عن المحرمات ويدل عليه. قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الحجرات: ١٥].

وقال عليه الصلاة والسلام: (الإيمان بضع وسبعون بابا).

فقولنا: إن شاء الله. عائد إلى الشك في حصول هذه الكمالات.

(د) إن الإيمان عند الشافعي اسم لمجموع الإقرار والاعتقاد والعمل، ولا شك أن العمل قد يوجد وقد لا يوجد. فكان المراد بقولنا: إن شاء الله ليس هو الشك في الاعتقاد والإقرار بل الشك في كمال الأعمال بلى من كان مذهبه أن الإيمان هو التصديق بالقلب فقط. لم يجز له أن يقول: إن شاء الله، وأما الشافعي فلما كان مذهبه أن الإيمان اسم لمجموع هذه الثلاثة كان الشك قائما في العمل فكان الاستثناء حسنا جائزاً.

(هـ) أن يكون المراد منه خوف الخاتمة أى: إن شاء الله أكون مؤمنا فى آخر الحياة. والدليل عليه. قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] وهو ما كان سقيما فى تلك الحالة لكنه لما علم أنه سيصير سقيما حسن قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ الا ترى أن الرجلين إذا تصارعا وعلم من حال أحدهما أنه ينصرع فقد يقال قبل انصراعه. إنه منصرع وإنه مغلوب بمعنى أنه سيصير كذلك، فهنا قوله: أنا مؤمن إن شاء الله أى أبقى مؤمنا عند الموت إن شاء الله . أ.هـ .

وخلاصة القول فى هذا الأمر هو ما ذكره الإمام الشافعى رضى الله عنه فى كتابه الفقه الأكبر ونصه:

(واعلموا أن قول أهل السنة والجماعة: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى، ليس فيه شك فى الإيمان الحاصل الحاضر لهم وإنما الشك فى الإيمان المثاب عليه، فذلك منوط بالعاقبة. والعاقبة مغيبة عنا فالشك واقع فى المغيب لا فى الحاصل الموجود) .

● **الفرق بين الإسلام والإيمان:**

اختلف سلف الأمة حول هذه المسألة فمنهم من قال بأنهما اسمان لمسمى واحد. ومنهم من قال: إنهما شيئان متغايران، قال الزهرى: (الإسلام هو الكلمة والإيمان العمل) .

وممن قال بالرأى الأول الإمام الشافعى رضى الله عنه، والإمام البخارى رضى الله عنه والإمام محمد بن نصر المروزى رحمه الله تعالى وغيرهم مستدلين بقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] .

وممن يقول بالرأى الثانى: الزهرى وأحمد بن حنبل وابن منده رضى الله عنهم، قال عبد الملك الميمونى: سألت أحمد بن حنبل: أتفرق بين الإيمان والإسلام فقال لى نعم. قلت له بأى شئ نحتج؟ قال لى: قال الله عز وجل:

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات: ١٤] وقال: وأقول مؤمن إن شاء الله. وأقول: مسلم ولا أستثنى. أ.هـ.

إن الإمام الشافعى رضى الله عنه يرى أن الإيمان والإسلام اسمان لمسمى واحد – كما أسلفنا –.

قال الزعفرانى: قال أبو عبد الله الشافعى. وفى هذا الحديث والذى قبله – أى حديث الجارية – الدلالة على أن وصف الإسلام إسلام يوجب لصاحبه اسم الإسلام. والإسلام: إيمان قال البيهقى: وفى هذا إشارة من الشافعى رحمه الله إلى أن الإيمان والإسلام اسمان لمسمى واحد. إذا كانا حقيقة أو كانا باللسان دون العقيدة فى حقن الدم وإنما يفترقان إذا كان أحدهما حقيقة والآخر بمعنى الاستسلام خوفا من السيف. أ.هـ.

(٢) دليل الوحدانيـــــــة :

روى محمد بن إسماعيل بن الحبال الحميرى عن أبيه قال:

كان محمد بن إدريس الشافعى رجلا شريفا فذكر الحكاية فى ابتداء تعلمه ورحلته إلى مالك بن أنس. ثم خروجه إلى اليمن ثم حمله إلى العراق ثم رجوعه ثم حمله إلى العراق مرة أخرى مقيدا واجتماعه مع محمد بن الحسن وبشر المريسى. فى مجلس هارون الرشيد.

قال: فقال له بشر: أخبرنى ما الدليل على أن الله تعالى واحد؟

فقال الشافعى: يا بشر. ما تدرك من لسان الخواص فأكلمك على لسانهم إلا أنه لا بد لى من أن أجيبك على مقدارك من حيث أنت الدليل عليه به ومنه وإليه. واختلاف الأصوات من المصوت إذا كان المحرك واحدا دليل على أنه واحد. وعدم الضد فى الكلام على الدوام دليل على أن الله واحد وأربع نيرات مختلفات فى جسد واحد متفقات الدوام على تركيبه فى استقامة الشكل. دليل على أن الله واحد. وأربع طبائع مختلفات فى الخافقين أضداد غير أشكال مؤلفات على إصلاح الأحوال. دليل على أن الله واحد.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي

﴿فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

كل ذلك دليل على أن الله واحد لا شريك له.

فقال له بشر: وما الدليل على أن محمدا رسول الله؟

قال: القرآن المنزل وإجماع المسلمين عليه. والآيات التى لا تليق بأحد غيره - يعنى المعجزات التى ظهرت عليه دون غير - وتقرير المعلوم فى كون الإيمان بدليل واضح دليل على أن رسول الله ﷺ لا بعده مرسل نقر له.

وذكر باقى الحكاية وفيها: فقال له بشر: ادعيت الإجماع فهل تعرف شيئا أجمع الناس عليه؟ قال: نعم. أجمعوا على أن هذا الحاضر أمير المؤمنين فمن خالفه قتل فضحك الرشيد وأمر بأخذ القيد عن رجله وخلع عليه وأمر له بخمسين ألف درهم.

قال البيهقى رحمه الله وقد أخبرنى به الثقة من أصحابنا أن أبا نعيم أنبأه إجازة فذكره.

لقد بين هذه الدلائل وفسرها الإمام فخر الدين الرازى رحمه الله تعالى قال: إن الشافعى ذكر أنواعا من الدلائل فيجب علينا أن نفسرها أولا. ثم نبين دلالتهما على الوحدانية ثانيا.

النوع الأول: مما ذكره هو اختلاف الأصوات من المصوت.

أعلم: أن الأعضاء التى هى الآلات فى تكوين الأصوات والحروف. أعضاء مخصوصة وهى: الحلق والحنجرة واللسان والأسنان والشفتان. ثم إنك ترى جميع الناس مع اشتراكهم فى هذه الآلات مختلفين فى الأصوات حتى أنك لا ترى فى الدنيا إنسانين يتشابه صوتاهما من جميع الوجوه فلولا أن الصانع القادر الحكيم خصص خلق كل إنسان وحنجرته ولسانه وأسنانه وشفتيه بكيفيات مخصوصة لأجلها صار هو مختصًا بذلك الصوت المعين. وإلا لم يحصل ذلك

الاختصاص ولا يمكن إضافة تلك الاختصاصات إلى طبيعة النطفة والرحم والطبائع والأفلاك والأنجم فإن نسبته الكل إلى الكل على السوية فلم يبق إلا الجزم باستنادها إلى الفاعل المختار وكما أنك لا تجد فى الدنيا إنسانين تتشابه صوتاهما فكذلك لا تجد فى الدنيا إنسانين يتشابه صورتاهما من جميع الوجوه. وذلك أيضا من أعظم الدلائل على الصانع الحكيم.

وإلى هذين النوعين من الدلالة الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢].

النوع الثانى: قوله: عدم الضد فى الكل على الدوام.

وتفسيره: إن بدن كل إنسان ينتقل من حال إلى حال. مثل: أن يكون صبيا ثم شابا ثم كهلا. ثم شيخا، وأيضا: يكون سمينا ثم يصير هزيلا. وبالضد ويكون حارا ثم يصير باردا وبالضد. ثم إنا نرى الإنسان مع اختلاف هذه الأحوال باقيا على نهجه الأول فى الصوت والصورة. ولو كانت هذه الأحوال معللة بما فيه من الطبائع والأمزجة لوجب اختلافها عند اختلاف أحوال الطبائع والأمزجة.

ولما رأينا أن الصوت والصورة باقيتان مصونتان عن الضد مع اختلاف هذه الأمور. علمنا: أن بقاءهما بسبب أن الفاعل الحكيم المختار يبقيهما على تلك الأحوال والهيئات.

النوع الثالث: قوله: وأربع نيرانيات مختلفات فى جسد واحد متفقات على ترتيبه على استقامة الشكل. دليل على أنه واحد.

وتفسيره: أن فى البدن نيرانا أربعة:

أحدها: نار الشهوة. وهى الحرارة التى تثور فى بدن الإنسان عند قضاء الشهوة من الجماع.

وثانيها: حرارة الغضب. وهى الحرارة التى تثور عند استيلاء الغضب.

وثالثها: الحرارة القائمة بأعضاء الغذاء وهى الحرارة الغريزية المؤثرة فى هضم الغذاء.

ورابعها: الحرارة الغريزية المتولدة فى قلبه. وهى الحرارة المؤثرة التى بها يتم أمر الحياة.

فهذه الأنواع الأربعة من الحرارة: نيران مختلفة بالماهية. ثم إنها اجتمعت فى بدن الإنسان وتبقى كل واحدة منها على صفتها المخصوصة وطبيعتها المخصوصة. وهى كامنة فى بدن الإنسان. لا تظهر إلا عند وقت الحاجة إليها، ثم إنها مع اختلافها وتباينها متوافقة متعاونة على تحصيل مصلحة الإنسان. وموجبة لاستقامة سلامة ذلك الجسد.

النوع الرابع: قوله: وأربع طبائع مختلفات فى الخافقين. أضداد غير أشكال مؤلفات على صلاح الأحوال.

وتفسيره: أن أبدان الحيوانات – على قول الاطباء – متولدة من الأرض والماء والهواء والنار. ومن الأخلاط الأربعة. وهى: الصفراء. والسوداء والبلغم والدم ثم إنها أضداد – متغايرة – متنافرة. متعاندة بطبائعها فاجتماعها فى البدن الواحد. لا بد وأن يكون بقدرة قادرة وتدبير مدبر قدير وما ذلك إلا الصانع الحكيم، وإذا عرفت تفسير هذه الكلمات فنقول: إنها دالة على وجود الصانع القديم وكمال قدرته وعلمه وحكمته. وهى أيضا: دالة على كون الصانع واحدا، لأنه لو كان الصانع أكثر من واحد. لما حصل هذا النظام فى المخلوقات. بل كان يحصل الفساد. كما قال الله تعالى ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

فثبت بما ذكرنا أن الوجوه التى ذكرها الشافعى: دالة على وحدانية الصانع ولمثل هذا التقدير قال تعالى: ﴿ **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾ ثم احتج على وحدانيته بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ إلى قوله ﴿ **لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ومعلوم: أن دلالة هذه الأشياء على صحة قوله تعالى ﴿ **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** ﴾ ليست إلا بالطريق الذى ذكرناه.

فثبت : أن كلام الشافعي في هذا الباب على وفق دلائل القرآن من غير تفاوت أصلا .

ثم قال الرازي رحمه الله تعالى : وأقول : الدليل على نبوة محمد ﷺ إما القرآن . وإما سائر المعجزات .

أما القرآن : فدلالته على نبوة - محمد عليه السلام - موقوفة على مقدمتين :

إحداهما : أن القرآن معجزة في نفسه . وإليه الإشارة بقول الشافعي : (القرآن المنزل) .

والمقدمة الثانية : كون القرآن مختصا بمحمد - عليه السلام - بمعنى أنه ظهر عليه ولم يظهر على غيره . وذلك لا يعلم إلا بالتواتر . وإليه الإشارة بقوله (وإجماع الناس إذ لا ينبغي أن يظن بالشافعي أنه جعل اتفاق أمة محمد عليه السلام على نبوته دليلا على نبوته فإن فساد هذا مما لا يخفى على الصبيان فكيف على شيخ العلماء وإمام أهل الدين .

وأما قوله : (والآيات التي لا تليق بأحد غيره) فهو إشارة إلى ما سوى القرآن من المعجزات . فهذا تفسير هذه الكلمات (القليلة) على ما خطر بالبال والله أعلم بالمراد على سبيل الحقيقة .

وكان الإمام الشافعي - رضي الله عنه - في هذه الكلمات القليلة أكثر مما ذكره المتكلمون في الكتب الطويلة . وهذا يدل على أنه كان متقنا في علم الأصول والله الموفق [1] أ . هـ .

وذكر البيهقي في مناقب الشافعي رضي الله عنه قال : قال الشافعي في تحميد ربه عز وجل قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** ﴾ [الأنعام : ١] .

قال الشافعي : والحمد لله الذي لا يؤدى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة منه

---

(١) مناقب الإمام الشافعي من ١٠٢ إلى ١٠٧ .

توجب على مؤدى ماضى نعمه بادائها . نعمة حادثة يجب عليه شكره بها ولا يبلغ الواصفون كنه عظمته الذى هو كما وصف نفسه وفوق ما يصفه به خلقه .

وأحمده حمدا كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله . وأستعينه استعانة من لا حول له ولا قوة إلا به . وأستهديه بهداه الذى لا يضل من أنعم به عليه وأستغفره لما أزلفت وأخرت استغفار من يقر بعبوديته ويعلم انه لا يغفر ذنبه ولا ينجيه منه إلا هو . وأشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له . وأن محمدا عبده ورسوله .

ثم ساق الكلام إلى آخره – مقدمة كتاب الرسالة .

ثم قال : وقال فى كتاب (الرسالة القديمة) : وأنا أسأل الله المبتدئ لنا بنعمه قبل استحقاقها . المديمها علينا بإفضاله مع تقصيرنا الجاعلنا فى خير أمة أخرجت للناس . أمة خير خلقه : محمد عبده ورسوله ﷺ . أن يأخذ بأسماعنا وقلوبنا وألسنتنا إلى طاعته . وأن يملك لنا أنفسنا وألسنتنا وجميع جوارحنا عما يخالف طاعته . وأن لا يكلنا إلى أنفسنا . فإنه إن وكلنا إليها وكلنا إلى غير كاف . وأن يحضرنا العصمة والتوفيق . وينطق ألسنتنا بالحق الذى لا تخلطه الشبه ولا تميل به الأهواء ولا تخونه الغفلات وله دعوات حسان قد نقلت أكثرها إلى كتاب الصلاة والحج من كتاب المعرفة وبالله التوفيق والعصمة أ . هـ .

(٣) أسماء الله وصفاته عز وجل :

مسألة الأسماء والصفات اختلف حولها المتكلمون سلفهم وخلفهم إن كل فرقة من الفرق الكلامية قد تناولت هذه المسألة تناولا خاصا لعب العقل فيه دورا كبيرا وغاب فيه النص عند فرق عديدة وأتى بعد العقل عند المعتزلة والقدرية واختلطت المفاهيم عند سلفية هذا العصر .

أما الإمام الشافعى رضى الله عنه فإنه قد تكلم فى مسألة الأسماء والصفات بمنهج سلف الأمة، من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم .

قال الشافعى رحمه الله تعالى فى كتابه « الفقه الأكبر » :

(وهذه صفات أزلية موجودة بذاته، يعنى : ليست بعرض حادثة ولا

محدثة لم يزل ولا يزال بهذه الصفات، ولا يشبه شئ منها شيئا من صفات المخلوقات كما لا تشبه ذاته . ذات المخلوقين) .

وقال الفخر الرازى رحمه الله [1] : اعلم : أن الصفات، إما صفات الجلال وإما صفات الإكرام .

أما صفات الجلال : فالمراد منها : تنزيهه تعالى عن الجسمية والجوهرية والمكان وذكر الشافعى فى خطبة كتاب «الرسالة» أنه لا يبلغ الواصفون كنه عظمته وأنه كما وصف نفسه وفوق ما يصفه به خلقه .

وهذا الكلام يدل على أنه كان يعتقد أنه تعالى ليس بجسم ولا فى جهة وإلا لبلغ الواصفون كنه عظمته . وهذا القدر، وإن كان كلاما قليلا إلا أنه كاف فى الغرض . كما أن قوله تعالى ﴿ **ليس كمثله شئ** ﴾ كاف فى هذا الغرض .

وأما صفات الإكرام : فالمراد منها كونه تعالى قادرا عالما حيًّا .

واعلم أنه ذكر فى كتاب «الإيمان» : (أن من حلف بشئ غير الله تعالى فلا كفارة عليه كما إذا قال : والكعبة ورأس فلان) .

ثم قال : (من حلف بعلم الله وبقدرة الله وبحق الله فإن أراد بعلم الله معلومه وبقدرة الله : مقدوره وبحقه : ما وجب له تعالى على العباد فهذا لا يوجب الكفارة، لأن هذا حلف بغير الله تعالى وإن أراد به : الحلف بصفات الله فهذا يوجب الكفارة) .

قال الأصحاب : وهذا يدل على أن صفات الله تعالى عنده ليست أغيارا لذاته، لأنه لما زعم أن الحلف بغير الله لا يوجب الكفارة . وزعم أن الحلف بصفات الله يوجب الكفارة . كان هذا دليلا على أنه يعتقد أن صفات الله تعالى : ليست أغيارا لذاته .

فإن قيل : فلعله كان يعتقد أن صفات الله عز وجل هى عين ذاته .

قلنا : هذا باطل فى بديهة العقل، لأن وصف الشئ بعين ذاته محال فى

---

(١) مناقب الإمام الشافعى ١٠٨، ١٠٩ .

العقول ووصفه تعالى بأنه عالم قادر غير ممتنع فى العقول، فهذا يدل على أن هذه الأوصاف ليست غير ذاته ولا عين ذاته . أ. هـ .

وروى البيهقى فى المناقب قال: حدث يونس بن عبد الاعلى قال: سمعت الشافعى رحمه الله يقول: (إذا سمعت الرجل يقول: الاسم غير المسمى فاشهد عليه بالزندقة).

ومن صفات الله تعالى صفة الكلام ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ .

والقرآن الكريم كلام الله عز وجل القديم غير مخلوق .

روى أبو يحيى الساجى إجازة قال: سمعت أبا سعيد المصرى يقول: سمعت محمد بن إدريس الشافعى يقول: القرآن – كلام الله تعالى. غير مخلوق وروى ابن خزيمة قال: سمعت الربيع يقول:

لما كلم الشافعى رحمه الله حفص الفرد. فقال حفص: القرآن مخلوق قال الشافعى: كفرت بالله العظيم.

وعن أبى محمد الزبيرى قال: قال رجل للشافعى: أخبرنى عن القرآن خالق هو؟ .

قال الشافعى: اللهم لا. قال: فمخلوق؟ قال الشافعى: اللهم لا.

قال: فغير مخلوق. قال الشافعى: اللهم نعم. قال: فما الدليل على أنه غير مخلوق؟.

فرفع الشافعى رأسه، وقال: تقر بأن القرآن كلام الله؟ قال: نعم.

قال الشافعى: سبقت فى هذه الكلمة. قال الله تعالى ذكره ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦] وقال ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤].

قال الشافعى: فتقر بأن الله كان وكان كلامه، أو كان الله ولم يكن كلامه؟.

فقال الرجل: بل كان الله وكان كلامه، قال: فتبسم الشافعى وقال: يا كوفيون: إنكم لتأتونى بتعظيم من القول إذا كنتم تقرون بأن الله كان قبل القبل.

وكان كلامه فمن أين لكم الكلام إن الكلام الله أو سوى الله أو غير الله أو دون الله ؟ .

قال : فسكت الرجل . وخرج .

وأخبر أبو عبد الرحمن السلمى أن محمد بن إسماعيل الأصبهانى حدث بمكة فقال : سمعت الجارودى يقول : ذكر الشافعى ابراهيم بن إسماعيل بن عليه فقال : أنا مخالف له فى كل شئ وفى قوله : لا إله إلا الله لست أقول كما يقول : أنا أقول لا إله إلا الله الذى كلم موسى من وراء حجاب وذاك يقول : الذى خلق كلاما أسمعه موسى من وراء حجاب .

هذا ويقول الإمام الشافعى رضى الله عنه فى الفقه الأكبر [1] :

إن كلام البارى - سبحانه - قديم أزلى موجود بذاته ليس بمخلوق ولا محدث ومن قال إنه مخلوق فهو كافر لا محالة، وهو مكتوب فى مصاحفنا محفوظ فى قلوبنا مقروء بألسنتنا متلو فى محاربنا مسموع بأسماعنا ليس بكتابة ولا حفظ ولا قراءة ولا تلاوة ولا سمع، لأن ذلك محدث عن عدم وكلام الله قديم، كما أن البارى - سبحانه - مكتوب فى كتبنا معلوم فى قلوبنا مذكور بألسنتنا وليس ذات البارى - سبحانه - كتابه ولا ذكرا) أ.هـ ، ثم هو يثبت الرؤيا للمؤمنين فى الآخرة بقوله تعالى ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ .. ويقول « لما حجب الكفار فى السخط دل على أن الأولياء يرونه فى الرضا » .

وعن سعيد بن أسد قال : قلت للشافعى : ما تقول فى حديث الرؤية ؟ فقال لى : (يا ابن أسد : اقض على سواء كنت حيا أو ميتا . إن كل حديث يصح عن رسول الله ﷺ فإنى أقول به . وإن لم يبلغنى) ونص عبارة الشافعى فى الفقه الأكبر فى هذه المسألة : (واعلموا أن الله سبحانه وتعالى : يرى نفسه فيما لم يزل ولا يزال من غير اتصال شعاع ولا مقابلة . ويجوز للخلق أن يروه عقلا . لأنه موجود وكل موجود يصح أن نراه) أ.هـ .

---

(١) هامش مناقب الإمام الشافعى للرازى ص ١١٠ .

(٤) قضية خلق الأعمال :

إن هذه المسالة يتفق فيها رأى الإمام الشافعى رضى الله عنه مع ما هو مقرر فى مذهب أهل السنة . وهو أيضا ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين ويدل على ذلك ما يلى :

الحجة الأولى : ما كتبه الإمام الشافعى فى خطبة كتابه (الرسالة) يقول : الحمد لله الذى لا يؤدى شكر نعمة من نعمه . إلا بنعمة منه، توجب على مؤدى ذلك الشكر، شكرا آخر . .) .

وتفسيره : أنه لا يمكن شكر نعم الله تعالى إلا بتوفيقه . وذلك التوفيق نعمة جديدة من الله تعالى فيفتقر إلى شكر آخر .

ومن هذا المنطلق كانت السيدة : رابعة العدوية رضى الله عنها تقول : (استغفارنا يحتاج إلى استغفار) كما كانت تقول : (أستغفر الله من قلة قولى أستغفر الله) .

ثم قال الشافعى فى هذه الخطبة : (واستهدى بهداه، الذى لا يضل من أنعم به عليه) .

الحجة الثانية : حكى الربيع بن سليمان عن الإمام الشافعى أنه قال : قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ [الإنسان : ٣٠] . (فأعلم الله عباده . أن المشيئة له دون خلقه وأن مشيئتهم لا تكون إلا أن يشاء) .

قال الفخر الرازى رحمه الله تعالى : (واعلم أن الشافعى أشار فى هذا الكلام إلى الدليل الذى هو الدليل الأقوى لمثبتى القضاء والقدر .

وتقديره : أن صدور الفعل من العبد . موقوف على أن يحصل فى قلبه مشيئة لذلك الفعل وحصول تلك المشيئة ليس بمشيئة أخرى من قبل العبد . وإلا لزم التسلسل فلا بد من انتهاء تلك المشيئة إلى مشيئة . تحدث بمشيئة الله تعالى وعلى هذا التقدير : يكون الكل بقضاء الله .

ثم يقول : ولقد سالنى جمع من المعتزلة فى (خوارزم) عن قوله تعالى :

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] قالوا: وهذا تصريح بأن الكل بمشيئة العبد.

فقلت: بل هذه الآية من أقوى الدلائل على القول بالقضاء والقدر.

وذلك لأن الآية: دلت على أن صدور الفعل عن العبد موقوف على كونه شائيا لذلك الفعل. وقوله تعالى: ﴿وما تشاءون إلاَّ أن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ دليل على أن حصول المشيئة للعبد: موقوف على كون الله تعالى شائيا لتلك المشيئة والموقوف على الموقوف على الشئ موقوف على ذلك الشئ فهاتان الآيتان بمجموعهما دليل قاطع على أن الكل بقدر الله تعالى. أ. هـ.

الحجة الثالثة: روى الربيع: أن الشافعي سئل عن القدر فقال:

ما شئتَ كان وإن لم أشا	وما شئتُ - إن لم تشأ - لم يكن
خلقت العباد على ما علمت	ففى العلم يجرى الفتى والمسن
على ذا مننت وهذا خذلت	وهذا أعنت وذا لم تعن
فمنهم شقى ومنهم سعيد	ومنهم قبيح ومنهم حسن

ويقول الرازى فى ختام شرحه لهذه الأبيات: ومن تأمل فى هذه الأبيات التى ذكرها الإمام الشافعى. ووقف على الشرع الذى لخصناه عرف أنه لم يتفق لأحد من عظماء المتكلمين: من الدلائل النفسية فى هذه المسألة. ما ذكره هذا الإمام فى هذه الأبيات. ومما يقرب من هذه الأبيات قوله رحمه الله:

الهم فضل - والقضاء غالب	وكائن ما خط فى اللوح
فانظر الروح وأسبابه	أليس ما كتب من الروح؟

فقوله:

* الهم فضل والقضاء غالب *

معناه ما ذكره فى قوله:

ما شئتَ كان وإن لم أشا وما شئتُ - إن لم تشأ - لم يكن؟

فهو إشارة إلى أن الأمور المطلوبة عند اجتماع أسبابها الظاهرة قد لا تحصل

وعند اليأس من حصولها قد تحصل. وذلك يدل على أن حصولها ليس بجد الإنسان وبجهده بل بغيره.

الحجة الرابعة: حكى الربيع عن الشافعي أنه قال:

(الناس لم يخلقوا أعمالهم، بل هي خلق من الله تعالى، فعل للعباد).

يقول الرازي: هذا الكلام مأخوذ من القرآن، قال الله تعالى: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ**﴾ [الأنفال: ١٧] أي ما رميت خلقا إذ رميت كسبا. وقال تعالى: ﴿**كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ**﴾ [الأنفال: ٥] ثم قال تعالى: ﴿**إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ [التوبة: ٤٠] فأضاف ذلك الإخراج إلى نفسه تعالى بالخلق وإلى العبد بالكسب.

الحجة الخامسة: روى البيهقي بإسناده عن الشافعي عن يحيى بن سليم عن جعفر بن محمد عن أبيه عن عبد الله بن جعفر عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه خطب الناس فقال: أعجب ما في الإنسان قلبه فيه مواد من الحكمة وأضدادها من خلافها فإن سنح له الرجاء أولهه الطمع وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص وإن ملكه اليأس قتله الأسف. وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ وإن أسعده الرضا نسي التحفظ. وإن ناله الخوف شغله الحزن وإن أصابته المصيبة قصمه الجزع. وإن وجد مالا أطغاه الغنى وإن عضته فاقه شغله البلاء. وإن أجهده الجوع قعد به الضعف فكل تقصير به مضر وكل إفراط له مفسد.

قال: فقام رجل ممن شهد معه الجمل فقال: يا أمير المؤمنين: أخبرنا عن القدر. فقال: «بحر عميق فلا تلجه» فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن القدر. فقال: «بيت مظلم فلا تدخله» فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن القدر. فقال: «سر الله فلا تبحث عنه» فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن القدر. فقال: «لما أبيت. فإنه أمر بين أمرين. لا جبر ولا تفويض فقال يا أمير المؤمنين: إن فلانا يقول بالاستطاعة - وهو حاضر - فقال عليٌّ - رضي الله عنه -: على به فأقاموه، فلما رآه قال له: الاستطاعة تملكها مع الله. أو من دون الله؟ وإياك أن تقول أحدهما فتريد. قال: «قل: أملكها بالله - الذي إن شاء ملكنيها».

قال الإمام فخر الدين الرازى رحمه الله تعالى شارحا لكلام أمير المؤمنين رضى الله عنه: هذا الفصل الذى ذكره أمير المؤمنين: على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فصل فى غاية الجلالة ودال على صحة القول بالقضاء والقدر وبيانه: أن لا شك فى أن أفعال الجوارح مرتبطة بما يحصل فى القلوب من الدواعى والصوارف ثم إنه رضى الله عنه بين أن كل ما فى القلب من الدواعى والصوارف فإنه يحدث بسبب من الأسباب الخارجة عن قدرة الإنسان واختياره، وذلك أن الإنسان إذا رأى صورة شخص وسمع كلامه: ترتب على تلك الرؤية وذلك السماع رجاء لشئ ثم حصول ذلك الرجاء عقيب تلك الرؤية، وذلك السماع ليس باختيار الإنسان البتة بل هو حاصل سواء أراد الإنسان حصوله أو لم يرده، وإذا حصل ذلك الرجاء له، أولهه الطمع شاء أم أبى، وهذا برهان قاطع على أن أفعال العباد مرتبة على ما فى القلوب من الدواعى والصوارف، وأن تلك الدواعى والصوارف يترتب بعضها على بعض ترتبا اضطراريا وذلك تحقيق القول بالقضاء والقدر فما أشرف كلام أمير المؤمنين - رضى الله عنه - فى هذه المسألة.

وأما قوله رضى الله عنه: (فإنه أمر بين أمرين. لا جبر ولا تفويض).

فتفسيره: هو أن الجبر أن يحدث الشئ على خلاف الإرادة، وههنا فعل الإنسان يحدث على وفق إرادته فلا يكون جبرا. ثم إن حدوث تلك الارادة فى قلب الإنسان، ليس من الإنسان وإلا لافتقر إلى إرادة أخرى ولزم التسلسل وهو محال، بل من الله تعالى. وإذا كان الأمر كذلك ثبت أنه لا تفويض فثبت أن زبدة كلام العقلاء وحاصل أفكارهم ليس إلا ما أدرجه أمير المؤمنين (على بن أبى طالب رضى الله عنه) فى هذه الألفاظ الموجزة النفيسة.

ثم يقول: ونظير هذه الكلمة فى الجلالة ما نقل عنه عليه السلام أنه سئل عن التوحيد والعدل فقال: (التوحيد أن لا نتوهمه والعدل أن لا تتهمه).

وهاتان الكلمتان المختصرتان مشتملتان على جميع ما ذكره المتكلمون فى تصانيفهم الطويلة، ولو شرعنا فى شرحهما لطال الكتاب أ.هـ.

الحجة السادسة: روى البيهقى عن الشافعى - رضى الله عنه -: أن المؤذن

إذا قال: حى على الصلاة حى على الفلاح، فالسنة أن يقول المستمع: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. والمعنى: أن الإنسان إذا دعى إلى الصلاة وإلى الفلاح فهو يقول: لا حول ولا قوة ولا طاقة فى الإتيان بهذه الطاعة إلا بإعانة الله وتوفيقه.

وروى البيهقى عن الشافعى أيضا أنه قال:

قــــــدر الله واقــع	حــيث يقــضى وروده
قد مضى فيك حكمه	وانقـــضى مـــا يريده
فــــأرد مــــا يكو	ن إلّم يكن مــا يريده

قال المزنى قلت للشافعى: من القدرية؟ فقال: هم الذين يزعمون أن الله تعالى لا يعلم المعاصى حتى تكون. أو قال: إلا بعد وقوعها.

وقال الرازى: واعلم أن مذهب المعتزلة. لا يستقيم إلا بهذا القول قالوا: لأنه تعالى لو علم الأشياء قبل وقوعها لكان جبرا لازما، من حيث أن خلاف المعلوم ممتنع الوقوع. أ. هـ.

هذا: ويقول الدكتور السقا على هامش مناقب الإمام الشافعى للرازى ما نصه: الذى كتبه المؤلف - الرازى - عن الشافعى فى أفعال العباد هو مذكور بالمعنى فى الفقه الأكبر المنسوب إلى الشافعى ففى ذلك الكتاب الفصول التالية:

١ - ما شاء الله كان. ٢ - ما فى الكون من إراردة الله.

٣ - الخلق لله والكسب للعبد. ٤ - الكسب اختيار العبد.

٥ - قدرة العبد استطاعة لا خلق.

٦ - استطاعة العبد جزئية لفعل واحد. ٧ - لا نهاية لقدرة الله. أ. هـ.

(٥) النبـــوة:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥].

روى أن النبى ﷺ قال: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله

واليوم الآخر وما فيه وأن تؤمن بالقدر خيره وشره) زواه الشيخان عن عمر رضى الله عنه من حديث جبريل على السلام فالإيمان بالنبوة والأنبياء ركن من أركان الإيمان وعليه أجمعت الأمة، وقد نازع فى ذلك البراهمة حيث أنكروا النبوة.

حكى أبو منصور البغدادى رحمه الله تعالى: أن الإمام الشافعى – رضى الله عنه – أول من صنف فى الرد على البراهمة المنكرين للنبوات.

ونقل البيهقى رحمه الله تعالى أن الشافعى كان يقول: ما أعطى الله لنبى شيئا. إلا وأعطى محمدا ﷺ ما هو أكثر منه. فقيل له: أعطى عيسى ابن مريم إحياء الموتى فقال الشافعى: (حنين الجذع أعظم منه لأن إحياء الخشبة أعظم من إحياء الميت).

وقيل: إذا كان لموسى عليه السلام فلق البحر عارضناه بانشقاق القمر. وهو أعجب منه لأنه آية سماوية. ولو قيل: عن انفجار الماء من الحجر قلنا: إن نبع الماء من بين أصابع محمد ﷺ أعجب. لأن خروج الماء من الحجر معتاد أما خروجه من اللحم والدم فأعجب. ولو سئلنا عن تسخير الريح لسليمان عليه السلام فإنا نقول: إن رحلة المعراج أعجب، وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه فى كتاب الذبائح: (واجب أن نكثر الصلاة على النبى ﷺ لأن ذكر الله – عز وجل – والصلاة على النبى ﷺ إيمان بالله وعبادة له).

(٦) مذهبه فى الخلفاء والصحابة رضى الله عنهم:

قال الإمام الشافعى رضى الله عنه فى الفقه الأكبر: (واعلموا أن الإمام الحق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر رضى الله عنه، والدليل عليه إجماع الصحابة على إمامته.

واعلموا أن الإمام الحق بعد أبى بكر: عمر بن الخطاب رضى الله عنه. والدليل عليه أن أبا بكر نص على أنه خليفة من بعده وعهده إليه. ثم اجتمعت الصحابة عليه من غير تنازع واعلموا أن الإمام الحق بعد عمر رضى الله عنه: عثمان رضى الله عنه يجعل أهل الشورى اختيار الإمام لعبد الرحمن بن عوف فاختار عثمان واجتمعت الصحابة عليه، واعلموا أن الإمام الحق بعد عثمان: على

ابـن أبـى طالـب رضى الله عنه. وثبـتت إمـامتـه بمبـايعة أكـابر الصـحابة ورضـا الباقين) أ.هـ.

وروى الربيع بن سليـمان رحـمـه الله أن الإمام الـشافعى رضى الله عنه: كان يقـول بتـفـضـيل أبى بكر وعـمـر وعـثـمان وعلى - رضى الله عنهـم - وكـان يحـتج على إمامة أبى بكر رضى الله عنه بعد الدلائل المشهورة بوجوه من الأدلة:

١ - روى الشافعى عن ابراهيم بن سعد عن أبيـه عن محـمـد بن جبـير بن مطعم عن أبيه أن امرأة أتت النبى ﷺ فسألته عن شئ فامرها أن ترجع فقالت: يا رسـول الله إن رجـعت فلم أجـدك - كـأنهـا تعنى الموت - فـقـال عليـه الصـلاة والسـلام: (فـأتـى أبا بكـر) وهـذا منـه ﷺ إشـارة إلى أن أبـا بكـر، هو القـائـم بعده.

٢ - روى الشافعى عن سفيان بن عيينة عن عبد الملك بـن عمير عن ربعى ابن جـراش عن حذيفـة: أن النبى ﷺ قـال: (اقـتـدوا بالذين من بعـدى بأبى بكر وعمر).

٣ - وقال بعضهم للشافعى: ما رأيت هاشميا يقدم أبا بكر وعمر عَلَ عِلِىّ غـيرك؟ فـقـال الشـافـعى: (على ابن خـالتى وابن عـمى. لأنى رجل من بنى عبـد مناف وأنت رجل من بنى عبد الدار ولو كـان الأمر كـما قلت. لكنت أولى بهـذه الكرامة ولكن ليس الأمر كما تتمنى).

قال البيهقى رحمه الله تعالى: قول ذلك الرجل للشافعى «ما رأيت هاشـميا غـيـرك إنما قـال ذلك لما ذكـرناه فى باب نـسب الـشـافـعى: أنه من جـهـة أمـهـات أجداده: هاشمى.

٤ - ونقل أنه ذكر عنده على بن أبى طالب رضى الله عنه. فـقـال رجل من القوم: ما نقر الناس من علىّ إلا لأنه كان لا يبالى بأحد فقال الشافعى: (كان فيه أربع خصال لا تكون خصلة واحدة منها فى إنسان إلا ويحق له أن لا يبالى بأحد: إنه كـان زاهـدا. والزاهد لا يبـالى بأحـد. وكـان عـالما والعـالم لا يبـالى بأحـد وكـان شجاعا والشجاع لا يبالى بأحد وكان شريفا والشريف: لا يبالى بأحد.

٥ – وعن الربيع بن سليمان أنه قال: سمعت الشافعى يقول:

شـهـدت بأن الله لا رب غـيـره	وأشـهـد أن البـعـث حق وأخلص
وأن عـرى الإيمان قـول مـبين	وفـعل زكى قـد يزيد وينقص
وأن أبا بكر خليـفـة أحـمـد	وكان أبو حفص على الحق يحرص
وأشـهـد ربى أن عـثـمان فـاضل	وأن عليـا فـضله متـخـصص
أئمـة دين يقـتـدى بفـعـالهم	لحـا الله من إياهـم يتـنقص
فـمـا لغـواة يشـتـمـون سـفـاهة	ومـا لسفـيه لا يخـاف فيـخرص

٦ – وروى ابن عبد الحكم عن الشافعى أنه قال:

(أما أرى أن الله تعالى لا يمنع الناس عن شتم أصحاب رسول الله ﷺ إلا ليزيدهم ثوابا عند انقطاع أعمالهم.

وقال رضى الله عنه فى عموم الصحابة رضى الله عنهم:

وقد أثنى الله – سبحانه وتعالى – على أصحاب رسول الله ﷺ فى القرآن والتوراة والإنجيل، وذكرهم رسول الله ﷺ بأنواع الفضائل وهم أدوا إلينا سنن الرسول ﷺ وشاهدوا الوحى ينزل فلا جرم علموا مالا نعلمه من العام والخاص والإرشاد والإيجاب . فهم فوقنا فى كل علم واجتهاد وورع وعقل. فإن اجتمعوا كان قولهم حجة، وإن قال أحدهم ولم يخالفه غيره، أخذنا بقوله) أ . هـ.

وهكذا تبين لنا فى وضوح أن الإمام الشافعى رضى الله عنه كان على دراية تامة بمسائل ومباحث «الفقه الأكبر» أو ما يسمى بعلم العقيدة أو علم الكلام أو علم التوحيد أو علم أصول الدين. وتلك كانت آراؤه التى استخلصناها ولخصناها من بعض مؤلفاته وبحوثه ومما كتبه عنه الإمامان: البيهقى والفخر الرازى. وكذا كتابات أخرى معاصرة: أشعرية أو من دعاة السلفية وقد رأينا الإمام الشافعى رضى الله عنه على عقيدة سلف الأمة من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم. ولم يكن يميل إلى فذلكات المتكلمين وفلسفاتهم كما أنه لم يكن

ينهج – فى تناوله لمسائل العقيدة – نهج دعاة السلفية المعاصرة – مدرسة ابن تيمية وأتباعه كما ادعى أحدهم فى بحثه «منهج الإمام الشافعى فى إثبات العقيدة»[1].

فالإمام الشافعى رضى الله عنه كان قرآنى العقيدة سنى النزعة سلفى المنهج (طريقة أصحاب الرسول ﷺ).

لذلك ظنه بعض المبتدعة أنه يميل إليهم. وهو الإمام الكبير القدر العالى الهمة الذى ملأ الدنيا علما فبايعته الأمة كلها بالإمامة والريادة لقد ادعى فيه ثلاث طوائف من أهل البدعة أنه يميل إليهم: المشبهة. والمعتزلة والرافضة.

(أ) أما المشبهة: فقد زعموا أن الإمام الشافعى رضى الله عنه كان منهم واحتجوا على ذلك بأمرين:

الأول: إن الإمام الشافعى كان يبغض علم الكلام ويكره الاشتغال به كما كان فى غاية المحبة لظواهر الكتاب والسنة ولم يكن يميل إلى التأويل وذلك يدل على أنه كان على ذلك المذهب حسب زعمهم.

الثانى: مما هو معلوم أن الإمام أحمد بن حنبل كان يحب الإمام الشافعى ويقدره ويعظمه، وكان فى غاية الإنكار لمذاهب المتكلمين فى التنزيه وذلك يوجب أن الشافعى كان على ذلك المذهب.

(ب) وأما المعتزلة: فقد زعموا هم أيضا أن الإمام الشافعى منهم. وذلك لأمرين:

الأول: ذكر القاضى عبد الجبار بن أحمد الهمدانى فى كتابه (طبقات المعتزلة) إن إبراهيم بن أبى يحيى المزنى، أخذ المذهب عن عمرو بن عبيد. ولا نزاع فى كون ابراهيم معتزليا ومسلم بن خالد الزنجى أخذ المذهب عن غيلان والشافعى كان تلميذا لإبراهيم بن أبى يحيى ولمسلم بن خالد، فاجتمع للشافعى رجلان من أهل الحق من القائلين بالعدل والتوحيد: إبراهيم ومسلم.

---

(١) د. محمد بن عبد الوهاب العقيل عفا الله عنه.

الثاني: قال بعض المعتزلة إن الإمام الشافعي قد اختار في بعض الآيات قراءات دالة على مذهب المعتزلة. مثل:

١ - أنه قرأ في سورة الأعراف، قوله تعالى: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَسَاءَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فالقراءة المشهورة تفيد أن له - تعالى - أن يعذب من يشاء كما شاء.

وهذه القراءة - بالسين - تفيد - أنه تعالى - لا يعذب إلا من أتى بالفعل (السيئ).

٢ - قرأ في سورة سبأ ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ بالنون وكسر اللام في - كل - والفائدة فيه: إنه على هذا التقدير يصير قوله تعالى: ﴿خلقناه﴾ صفة لـ: كل شئ والتقدير: إن كل شئ هو مخلوق لنا فهو بقدر وهذا يقتضى أن كل ما خلقه الله تعالى فإنه خلقه بقدر ولا يقتضى أن يكون خالقا لكل شئ. أما إذا قرأنا «إنا كل شئ» بنصب اللازم كان التقدير: إنا خلقنا كل شئ بقدر وهذا يقتضى أن يكون تعالى خالقا لكل الأشياء وأنه إنما خلقها بقدر.

(جـ) وأما الرافضة: فزعموا أنه منهم. واستدلوا على ذلك بما يلي:

١ - رويت أشعار للشافعي مشعرة برغبته في المذهب الشيعي.

روى أن المزني قال: قلت للشافعي، إنك رجل توالى أهل البيت فلو عملت في هذا الباب أبياتا. فقال:

وما زال كتمانيك حتى كأنني ... برد جواب السائلين لأعجم

وأكتم ودى مع صفاء مودتي ... لتسلم من قول الوشاة وأسلم

وقال:

أنا الشيعي في ديني ... وأهلي بمكة. ثم داري عسقلية

بأطيب مولد وأعز فخر ... وأحسن مذهب يسمو البرية

وقال أيضا:

يا راكبا قف بالمحصب من منى ... واهتف بقاعد جمعها والناهض

سحرا إذا فاض الحجيج إلى منى | فيضا كملتطم الفرات الفائض
إذا كان رفضا حب آل محمد | فليشهد الثقلان أنى رافضى

ونقل عن الربيع أنه قال: حججنا مع الشافعى. فما ارتقى نجدا ولا هبط واديا إلا وهو يبكى. وينشد هذه الأبيات الثلاثة:

وقال أيضا:

آل النبى ذريعتى | وهم إليك وسيلتى
أرجو بأن أعطى غدا | بيد اليمين: صحيفتى

٢ – لقد اتهم يحيى بن معين الإمام الشافعى بأنه رافضى وقال: طالعت كتابه في السير فوجدته لم يذكر إلا على بن أبى طالب رضى الله عنه. وذلك يدل على ما قلناه.

٣ – ذكر أنه حين كان باليمن انضم إلى بعض العلوية وكان ينصرهم. ولهذا السبب أخذه هارون الرشيد حتى وقع ما وقع.

فهذا خلاصة ما قيل فى الطعن على الإمام الشافعى رضى الله عنه كما ذكر البيهقى والرازى فهذه المزاعم من تلك الطوائف مزاعم واهية ولا تقدح فى شخصية الإمام الشافعى رضى الله عنه. يرد هذه المزاعم الإمام فخر الدين الرازى فيقول [1]: واعلم أن وجوه إحسان الله تعالى إلى الشافعى كثيرة ومن جملتها: أن بين المعتزلة والمشبهة مضادة عظيمة لأن المعتزلة بالغوا فى التنزيه حتى قربوا من التعطيل. والمشبهة بالغوا فى الإثبات حتى وقعوا فى التشبيه فلما ادعت كل واحدة من هاتين الطائفتين المتنافيتين: أن الشافعى كان منهم فقد تعارضت هاتان الدعوتان فتساقطا وبقى الإمام المطلبى مبرأ عن شبهة التشبيه وريبة التعطيل.

ثم نقل: الصداقة التى كانت حاصلة بينه وبين أهل الظاهر. لا توجب كونه على مذهبهم فإنه لا يبعد أن يقال: إنه ما خاض معهم فى علم الأصول فلهذا السبب حصلت تلك الصداقة.

---

(١) مناقب الإمام الشافعى ١٣٢ – ١٣٤.

وأما قول – قاضى القضاة . عبد الجبار – ففى غاية الضعف . لأن كون الإنسان مستفيدا علم الفقه والحديث من إنسان معتزلى لا يوجب كونه معتزليا لا سيما وقد نقلنا الأشعار الكثيرة عن الشافعى الدالة على بعده عن مذهب المعتزلة فبطل ما ذكروه .

أما تمسكهم بالقراءات التى رويناها فهو دليل محتمل وقد نقلنا عنه نقلا ظاهرا أقوالا منافية لأقوال المعتزلة . فبطل ما ذكروه .

وأما دعوى الرافضة فباطلة لأنه قد اشتهر عنه . أنه كان يقول بإمامة الخلفاء الراشدين وكان كثير الطعن فى الرافض قال يونس بن عبد الأعلى سمعت الشافعى يقول : (أجيز شهادة أهل الأهواء كلهم إلا الرافضة فإنهم يشهدون بعضهم لبعض) .

وقال يونس : كان الشافعى يعيب على الروافض ويقول : (هم شر عصابة) وأما مدح على عليه السلام . وحبه والميل إليه فذاك لا يوجب القدح بل يوجب أعظم أنواع المدح .

وأما طعن يحيى بن معين فالجواب عنه : ما روى البيهقى عن أبى داود السجستانى أنه قيل لأحمد بن حنبل : إن يحيى بن معين ينسب الشافعى ابن إدريس إلى التشيع فقال أحمد ليحيى بن معين كيف عرفت ذلك ؟ فقال يحيى : إنى نظرت فى تصنيفه فى قتال أهل البغى فرأيته قد احتج من أوله إلى آخره بعلى ابن أبى طالب عليه السلام فقال أحمد : يا عجبا لك . فيمن كان يحتج الشافعى فى قتال أهل البغى ؟ فإن أول من ابتلى من هذه الأمة بقتال أهل البغى هو على بن أبى طالب – عليه السلام – قال فخجل يحيى من كلامه .

وأيضا : فإن يحيى بن معين كان شديد الحسد للشافعى . وكان يلوم أحمد ابن حنبل على تعظيمه للشافعى وكان أحمد بن حنبل يلومه على ذلك الحسد وقد طعنوا فى يحيى بن معين بسبب كثرة طعنه فى الناس . وقالوا فى حقه شعرا :

ولا بن معين فى الرجال وقيعة　　　سيسأل عنها والمليك شهيد

فإن كان صدقـا يدعيـه فغيبـة وإن كان كاذبًا فالعذاب شديد

ولما سمع الشافعي أن بعض الناس رماه بالتشيع. أنشد وقال:

إذا نحن فضلنا عليا فإننا روافض بالتفضيل عند ذوى الجهل

وفضل أبى بكر إذا ما ذكرته رميت بنصب عند ذكرى للفضل

فلا زلت ذا رفض ونصب كليهما أدين به حتى أوسد فى الرمل ـ أ.هـ

وهكذا تبين لنا أن الإمام الشافعي رضى الله عنه، كان على علم ودراية بعلم العقيدة على طريقة الصحابة والتابعين رضى الله عنهم وليس على منهج السلفية المعاصرة ولا منهج المتكلمين من علماء الكلام، كما أنه لم يشتغل بعلم الكلام لاشتغاله بعلوم الفقه وأصوله والسنة وعلومها، رحمه الله رحمة واسعة.

* * *

الفصل الرابع

الإمـــام الفقيـه

يعد الإمام الشافعي رضى الله عنه من كبار الأئمة بلا منازع كما يعد من أبرز الفقهاء المجتهدين فى معرفة الأحكام الشرعية. وامتيازه فى معرفة أدواتها من علوم القرآن وعلوم الحديث واللغة وآدابها. وصنف فى كتبه وأماليه القيمة النافعة الغنية فى مادتها والرائعة فى أسلوبها ونظمها.

تكلم فى الفقه وأصوله تدريسا وتأليفا ومحاورة ومناقشة وقد كان فى ذلك الأستاذ والعالم والفقيه، شهد له بذلك أحبابه وحاسدوه. وهو وأمثاله لا بد أن يحسدوا لتفوقهم على أقرانهم.

(أ) أصول الفقه:

لم يسبق الإمام الشافعي رضى الله عنه أحد فى تدوين علم أصول الفقه فقد كانت مسائله مبعثرة فى كتب الأئمة والعلماء ممن سبقه أو عاصره ولكنه هو الذى رتبها وقد قيل: إن محمداً بن الحسن الشيباني وأبا يوسف صاحبًا أبى حنيفة رضى الله عنه قد كتبا فى علم الأصول وكذا بعض فقهاء المالكية وهذا قول غير صحيح لأنه لم يصلنا شئ من هذا.

وعلى كل حال لم يصلنا سوى ما كتبه الإمام الشافعي رضى الله عنه فى كتابه: (الرسالة البغدادية) – القديمة – و(الرسالة الجديدة) التى كتبها فى مصر وترجع أهم الأسباب التى جعلت الإمام الشافعي يضع علم الأصول ويدون مسائله إلى ما يلى:

(١) كان الشافعي فى زمن اشتد فيه النزاع بين العلماء فى مصادر الفقه الإسلامى فمنهم من يرد خبر الواحد أو يشك فى صحة ثبوته وكان المالكية يشترطون للعمل به. أن يكون مشهورا بين أهل المدينة.

(٢) كثرة روايات الحديث وتعدد طرقه وإيهام التعارض بين ظواهر

الأحاديث فكان ضروريا للمجتهد أن يبين الطريق الصحيح في الجمع والترجيح والنسخ .. إلخ ليزول ما يدعو إلى ظهور الاختلاف حول الحديث وفهمه.

(٣) كان لاختلاط الأعاجم بالعرب أثره على الفقه في إضعاف الملكات عن إدراك ما تهدف إليه الشريعة الإسلامية.

(٤) عاش الإمام الشافعي رضى الله عنه في عصر تدوين العلوم والمناهج والأصول لذلك رأى بثاقب فكره ورجاحة عقله، أنه من الضرورى جمع مسائل الأصول وتدوين هذا العلم وجعله علما قائما بذاته وجرده من مسائل الفقه المختلطة به. وعلم أصول الفقه – كما نعلم – هو العلم الذى يبحث في مصادر التشيع وأدلة الأحكام كما يلى:

(١) القرآن الكريم:

وهو المصدر الأول للتشريع (عقيدة وشريعة وأخلاقا) ولا ينازع فى هذا عالم أو جاهل، لأن القرآن الكريم هو تنزيل من رب العالمين، قال الإمام الشافعى رحمه الله: (ومن جماع كتاب الله عز وجل العلم بأن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب. والمعرفة بناسخ كتاب الله ومنسوخه. والغرض فى تنزيله والأدب والإرشاد والإباحة، والمعرفة بالوضع الذى وضع الله نبيه صلوات الله ﷺ من الإبانة عنه فيما أحكم فرضه فى كتابه وبينه على لسان نبيه ﷺ. وما أراد بجميع فرائضه أأراد كل خلقه أم بعضهم دون بعض؟ وما افترض على الناس من طاعته والانتهاء إلى أمره. ثم معرفة ما ضرب فيها من الأمثال الدَّوال على طاعته المبينة لاجتناب معصيته وترك الغفلة عن الحظ والإزدياد من نوافل الفضل فالواجب على العالمين ألا يقولوا إلا من حيث علموا).

ثم ساق الكلام إلى أن قال: (والقرآن يدل على أن ليس فى كتاب الله شئ إلا بلسان العرب. قال الله عز وجل: ﴿ **وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾ [الشعراء: ١٩٢ – ١٩٥] وقال الله عز وجل ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا** ﴾ [الرعد: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾ [الشورى:

٧]) فأقام حجته بأن كتابه عربى . ثم أكد ذلك بأن نفى عنه كل لسان غير لسان العرب فى آيتين من كتابه فقال تبارك وتعالى ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ** ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ** ﴾ [فصلت: ٤٤]

وقال: ولعل من قال: إن فى القرآن غير لسان العرب. ذهب إلى أن شيئا من القرآن خاصا يجهله بعض العرب ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا ولا يحيط بجميع علمه إنسان غير نبى ولكنه لا يذهب منه شئ على عامة أهل العلم. كالعلم بالسنة عند أهل الفقه. لا نعلم رجلا جمعها فلم يذهب منها شئ عليه. فإذا جمع علم عامة أهل العلم بها أتى على السنن والذى ينطق العجم بالشئ من لسان العرب فلا ينكر - إذا كان اللفظ قيل تعلما أو نطق به موضوعا - أن يوافق لسان العجم أو بعضه قليل من لسان العرب) فبسط الكلام فيه [(١)] . أ. هـ .

فالقرآن الكريم هو المصدر الأول للشريعة وليس فيه شئ من كلام الأعاجم وإنما نزل بلسان عربى مبين. إلا أن الشافعى رضى الله عنه كان يرى عدم جواز الاستدلال بالقراءة الشاذة لأنه لا يجوز الاحتجاج بها.

(٢) السنة النبوية الشريفة:

وقد تكلم الشافعى رضى الله عنه فى كتبه وخاصة (الرسالة) عن حجية السنة وبيان علاقتها بالقرآن الكريم وكونها المصدر الثانى للشريعة الإسلامية فأفاض فى إقامة البرهان على حجية السنة وبين أنها توضح ما أبهمه القرآن الكريم وتفسر مجمله وتفصله وتكلم عن الناسخ والمنسوخ فبين أن الكتاب قد ينسخ بعض آياته رحمة للعالمين بالتوسعة عليهم. وأبان أن الكتاب لا ينسخ إلا بالكتاب وأن السنة لا تكون ناسخة له. وإنما هى تبع له بمثل ما نزل به نصا ومفسرة معنى ما أنزل الله تعالى منه مجملا. وبين أن السنة لا ينسخها إلا سنة وأنها إذا نسخت

---

(١) أحكام القرآن ج ١ ص ٢٢، ٢٣ للبيهقى.

بالقرآن فلا بد أن يكون معها سنة أخرى تبين أنها منسوخة وهو بذلك يحذر الناس من أن يأخذوا بعموميات الآيات القرآنية ويتركوا السنة المخصصة. ويستدل بالسنة على تخصيص الحكم فى بعض النصوص كما فى آيتى المواريث والوصية إذ روى أن النبى ﷺ قال (لا وصية لوارث) فهذا الحديث قد منع الوارث من أن يوصى له بشئ لكى لا يتميز على غيره من باقى الورثة.

وتكلم عن علل الحديث وأفاض فى بيانها وشرحها من جهة تلقيها عن رسول الله ﷺ. ثم تكلم عن ناسخ السنة ومنسوخها وضرب على ذلك الأمثلة الكثيرة وأتى بأحاديث عديدة تختلف ظواهرها فأبان وجه اختلافها وكيف يكون عمل المجتهد فى الجمع والترجيح بينها ثم بين خبر الواحد وأقام الحجة على ثبوته ودافع عنه دفاعا مستميتا.

روى الفخر الرازى فى المناقب: قال الربيع: سمعت الشافعى يقول: (إذا وجدتم سنة عن رسول الله ﷺ خلاف قولى فخذوا بالسنة ودعوا قولى: فإنى أقول بها) وقال أيضا: (كل حديث صح عن رسول الله ﷺ فإنى أقول به وإن لم يبلغنى).

(٣) الإجمــاع:

هو: اتفاق مجتهدى أمة محمد ﷺ بعد وفاته فى عصر من الأعصار على أمر من الأمور كما عرفه علماء الأصول.

وقد رفض حجية الإجماع: الشيعة الإمامية والنظام وبعض فرق الخوارج وابن حزم ورفض آخرون القول بحجية إجماع أهل المدينة وحدهم لأنهم بعض الأمة والاجماع الحجة هو اتفاق الجميع.

وقد قال الإمام الشافعى رضى الله عنه بحجية الاجماع وأنه أحد مصادر التشريع يقول الفخر الرازى فى المناقب (١): ورأيت فى بعض الكتب أنهم طالبوه – أى الشافعى – بأن يستخرج دليلا من كتاب الله تعالى على أن الإجماع حجة فقرأ القرآن ثلثمائة مرة حتى وجد قوله تعالى ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا**

(١) مناقب الإمام الشافعى: ١٤٥.

تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥].

وورد فى كتاب «الرسالة» (١): قال الشافعى: فقال لى قائل: قد فهمت مذهبك فى أحكام الله ثم أحكام رسوله وأن من قبل عن رسول الله – ﷺ – فعن الله قبل بأن الله افترض طاعة رسوله وقامت الحجة بما قلت بأن لا يحل لمسلم علم كتابا ولا سنة أن يقول بخلاف واحد منهما. وعلمت أن هذا فرض الله فما حجتك فى أن تتبع ما اجتمع الناس عليه، مما ليس فيه نص حكم لله ولم يحكوه عن النبى – ﷺ –؟ أتزعم ما يقول غيرك أن إجماعهم لا يكون أبدا إلا على سنة ثابتة وإن لم يحكوها؟ .

قال: فقلت له: أما ما اجتمعوا عليه فذكروا أنه حكاية عن رسول الله – ﷺ – فكما قالوا. إن شاء الله.

وأما ما لم يحكوه، فاحتمل أن يكون قالوا حكاية عن رسول الله – ﷺ – واحتمل غيره ولا يجوز أن نعده له حكاية لأنه لا يجوز أن يحكى إلا مسموعا ولا يجوز أن يحكى شيئا يتوهم يمكن فيه غير ما قال.

فكنا نقول بما قالوا به اتباعا لهم. ونعلم أنهم إذا كانت سنن – رسول الله ﷺ – لا تعزب عن عامتهم وقد تعزب عن بعضهم ونعلم أن عامتهم لا تجتمع على خلاف لسنة رسول الله – ﷺ – ولا على خطأ إن شاء الله.

فإن قال: فهل من شئ يدل على ذلك وتشده به؟

قيل: أخبرنا سفيان عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه: أن رسول الله – ﷺ – قال: (نضر الله عبدا سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأداها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله والنصيحة للمسلمين ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم) (٢).

(١) الرسالة ٢ / ٤٧١ وما بعدها.

(٢) رواه الشافعى والبيهقى فى المدخل ورواه أحمد والترمذى وأبو داود وابن ماجة والدارمى عن زيد بن ثابت.

أخبرنا سفيان عن عبد الله بن أبى لبيد عن ابن سليمان بن يسار عن أبيه: أن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – خطب الناس بالجابية [1] فقال: إن رسول الله – ﷺ – قام فينا كمقامى فيكم. فقال: أكرموا أصحابى. ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يظهر الكذب حتى إن الرجل ليحلف ولا يستَحلَف ويشهد ولا يستشهد ألا فمن سره بحبحة الجنة فليلزم الجماعة. فإن الشيطان مع الفذ. وهو من الاثنين أبعد ولا يخلون رجل بامرأة فإن الشيطان ثالثهم ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن) [2].

قال: فما معنى أمر النبى – ﷺ – بلزوم جماعتهم؟.

قلت: لا معنى له إلا واحد.

قال: فكيف لا يحتمل إلا واحدا؟.

قلت: إذا كانت جماعتهم متفرقة فى البلدان لا يقدر أحد أن يلزم جماعة أبدان قوم متفرقين وقد وُجدت الأبدان تكون مجتمعة من المسلمين والكافرين والأتقياء والفجار فلم يكن فى لزوم الأبدان معنىً لأنه لا يمكن ولأن اجتماع الأبدان لا يصنع شيئا فلم يكن للزوم جماعتهم معنىً. إلا ما عليهم جماعتهم من التحليل والتحريم والطاعة فيهما.

ومن قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم ومن خالف بما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التى أُمِرَ بلزومها. وإنما تكون الغفلة فى الفُرقة فأما الجماعة فلا يمكن فيها كافة غفلةٌ من معنى كتاب ولا سنة ولا قياس إن شاء الله. أ.هـ. ما قاله الإمام فى كتابه الرسالة. وفيه قرر حجية الإجماع.

---

(١) قرية من أعمال دمشق.

(٢) الحديث بهذا الإسناد مرسل لأن سليمان بن يسار لم يدرك عمر رضى الله عنه ولكنه حديث صحيح معروف عن عمر رواه أحمد فى مسنده ١ / ١٨، ٢٦ والطيالسى والترمذى وصححه الذهبى.

قال المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة [١] : ولقد قسم الشافعى الأحكام المشتقة من الأدلة الشرعية إلى أحكام فى الظاهر والباطن : وهى : الأحكام التى تؤخذ من النصوص المتواترة قرآنا أو سنة متواترة .

وأحكام يؤخذ بها فى الظاهر وهى : أخبار الآحاد وما كان ثابتا بالإجماع أو القياس ولذا قال رضى الله عنه « يحكم بالكتاب والسنة المجتمع عليها التى لا اختلاف فيها فنقول : حكمنا بالحق فى الظاهر والباطن ويحكم بالسنة من طريق الانفراد – أى أخبار الآحاد – ولا يجتمع عليها الناس فنقول : حكمنا بالحق فى الظاهر لأنه قد يمكن الغلط فيمن روى الحديث ونحكم بالإجماع ثم القياس . وهو أضعف من هذا لأنه لا يحل القياس والخبر موجود » أ.هـ.

والإمام الشافعى رضى الله عنه زعم أنه يقول بحجية الإجماع إلا أنه يشك فى إمكان تحقق الإجماع ولقد تساءل عنه ذلك التساؤل فقال فى كتاب جماع العلم : « من هم أهل العلم الذين إذا أجمعوا قامت بإجماعهم حجة؟ فقال : مناظره : هم من نصبه أهل بلد من البلدان فقيها رضوا قوله وقبلوا حكمه » ثم يقول ردا على ذلك بعد مجاوبة « ليس من بلد إلا وفيه من أهله الذين هم بمثل صفته من يدفعونه عن الفقه وينسبونه إلى الجهل أو إلى أنه لا يحل له أن يفتى ولا يحل لأحد أن يقبل قوله . وعلمت تفرق أهل كل بلد فيما بينهم ثم علمت تفرق كل بلد مع غيرهم » ثم يقول « فأين اجتمع هؤلاء على تفقه واحد » ثم يتساءل عن موقف علماء الكلام أيدخلون ضمن صفوف المجتهدين فيقول : « أيعدون من العلماء الذين يتألف منهم أم لا يعدون » .

ويعلق على ذلك القول الشيخ أبو زهرة فيقول [٢] : وبهذا يتبين أن الإمام الشافعى يثير الكلام حول إمكان الإجماع معترضا على إمكانه .

أولا : بالتفرق بين البلدان وعدم التقاء الفقهاء .

وثانيا : مما يرى من وقوع الاختلاف بين فقهاء كل بلد من الحواضر الإسلامية .

---

(١) أصول الفقه ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

وثالثا: بعدم الاتفاق على تعيين من ينعقد بهم الإجماع.

ورابعا: بعدم الاتفاق على تعريف صفة العلماء الذي يعدون ذوى رأى فى الفقه.

وبإثارة هذا كله فى مناظراته توهم الكثيرون أنه لا يقول بإمكان الإجماع حتى لقد سأله سائل قائلا: هل من إجماع؟ فيجيبه: نعم بحمد الله كثير فى جملة الفرائض التى لا يسع أحدا جهلها فذلك الإجماع الذى لو قلت أجمع الناس لم تجد حولك أحد يعرف شيئا يقول ليس هذا بإجماع فهذه الطريق يصدق فيها من ادعى الإجماع.

فالشافعى إذا يقرر وجود الإجماع فى أصول الفرائض وإن كنا نقول: إن الحجية فى أصول الفرائض ليست لذات الإجماع إنما هى من الأدلة القطعية المكونة من النصوص القرآنية القطعية فى سندها ودلالاتها ومن السنة النبوية العملية المتواترة التى لا مجال للطعن فى نسبتها إلى النبى ﷺ. أ.هـ.

وحاصله: أن الإمام الشافعى رضى الله عنه، قال بحجية الإجماع وأنه قد أمكن تحقيقه فى عصر الصحابة رضى الله عنهم قبل أن يتفرقوا فى الأمصار. وإذا تيسر لمجتهدى الأمة من الفقهاء غير المبتدعة كالخوارج والشيعة فإنه حينئذ يكون ممكنا.

وأقول: إنه قد أصبح فى زمننا هذا ممكن تحققه وذلك لتقدم وسائل الاتصالات والمواصلات الأمر الذى يمكن معه أن يلتقى علماء الأمة بأبدانهم أو بأصواتهم فى مكان واحد فى أى بلد إسلامى.

هذا وقد استدل الإمام الشافعى رضى الله عنه على حجية الإجماع بدليلين هما:

أولهما: الآثار الواردة والصحيحة. بأن الأمة لا تجتمع على ضلالة. فما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن. كما ورد فى حديث عمر رضى الله عنه بالجابية وقد سبق.

وثانيهما: قول الله تعالى: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** ﴾

[النساء: ١١٥]

فاتباع غير سبيل المؤمنين حرام لأن من يفعل ذلك يشاقق الله ورسوله، ويقرر الإمام الغزالى رحمه الله تعالى، أن الاستدلال بهذه الآية على حجية الإجماع من أقوى الأدلة فى هذا الشأن.

والإجماع على مرتبتين هما:

أولهما: الإجماع الصريح، وهو الذى اتفق جمهور الفقهاء على حجيته. وقد فسره الشافعى بقوله: (لست تقول ولا أحد من أهل العلم هذا مجتمع عليه إلا لما تلقى عالما أبدا إلا قاله لك).

وهذا النوع من الإجماع حجة قطعية شرعية.

ثانيهما: الإجماع السكوتى، وقد أجازه البعض، ولم يعتبره الشافعى وآخرون حجة. وهم أكثرية الفقهاء.

وأقول: الإجماع حجة شرعية وممكن تحققه فى عصرنا هذا ولم يعد الأمر مستعصيا.

(٤) القياس والاجتهاد:

عرفه علماء الأصول بقولهم: القياس هو: بيان حكم أمر غير منصوص على حكمه بالحاقه بأمر معلوم حكمه بالنص عليه فى الكتاب أو السنة.

ويعرفونه أيضا: بانه إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه للاشتراك بينهما فى علة الحكم.

فعن أبى مليح الهذلى قال: كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه:

(أما بعد: فإن القضاء فريضة محكمة. وسنة متبعة فافهمه إذا أدنى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له، لا يمنعك قضاء قضيته راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن تراجع الحق، فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى

فى الباطل . الفهم الفهم فيما يختلج فى صدرك مما لم يبلغك فى الكتاب والسنة . أعرف الأمثال والأشباه ثم قس الأمور عندك . فاعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى . . إلخ) .

يقول الإمام جلال الدين السيوطى معلقا على هذه القطعة من رسالة سيدنا عمر رضى الله عنه :

هذه قطعة من كتابه وهى صريحة فى الأمر بتتبع النظائر وحفظها ليقاس عليها ما ليس بمنقول وفى قوله (فاعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق) إشارة إلى أن من النظائر ما يخالف نظائره فى الحكم لمدرك خاص به وهى الفن المسمى بالفروق الذى تذكر فيه الفرق بين النظائر المتحدة تصويرها المختلفة حكما وعلة . وفيما نرى إشارة إلى أن المجتهد إنما يكلف بما ظنه صوابا وليس عليه أن يدرك الحق فى نفس الأمر ولا أن يصل إلى اليقين وإلى أن المجتهد لا يقلد غيره) (١) .

وإمامنا الشافعى رضى الله عنه يقول بالقياس والاجتهاد فى المسائل والقضايا التى لم يرد فيها نص من الكتاب أو من السنة أو الإجماع وقد أكد على هذا كثيرا فى سائر كتبه ومصنفاته وخاصة كتابه « الرسالة » قال فيه :

(قال : فمن أين قلت . يقال بالقياس فيما لاكتاب فيه ولا سنة ولا إجماع؟ أفا لقياس نص خبر لازم؟ .

قلت : لو كان القياس نص كتاب أو سنة . قيل فى كل ما كان نص كتاب « هذا حكم الله » وفى كل ما كان نص السنة « هذا حكم رسول الله ﷺ » ، ولم نقل له قياس .

قال : فما القياس؟ أهو الاجتهاد؟ أم هما مفترقان؟

قلت : هما : اسمان لمعنى واحد .

قال : فما جماعهما؟ .

قلت : كل ما نزل بمسلم ففيه حكم لازم أو على سبيل الحق فيه دلالة

---

(١) الأشباه والنظائر فى الفروع ص ٥ .

موجودة وعليه إذا كان فيه بعينه حكم اتباعه وإذا لم يكن فيه بعينه طلب الدلالة على سبيل الحق فيه بالاجتهاد والاجتهاد القياس.

قال: أفرأيت العالمين إذا قاسوا على إحاطتهم من أنهم أصابوا الحق عند الله؟ وهل يسعهم أن يختلفوا فى القياس؟ وهل كلفوا كل أمر من سبيل واحد أو سبل متفرقة؟ وما الحجة فى أن لهم أن يقيسوا على الظاهر دون الباطن؟ وأنه يسعهم أن يتفرقوا؟ وهل يختلف ما كلفوا فى أنفسهم وما كلفوا فى غيرهم؟ ومن الذى له أن يجتهد فيقيس فى نفسه دون غيره؟ والذى له أن يقيس فى نفسه وغيره؟.

فقلت له: العلم من وجوه: منه إحاطة فى الظاهر والباطن ومنه حق فى الظاهر.

فالإحاطة منه ما كان نص حكم لله أو سنة لرسول الله - ﷺ - نقلها العامة عن العامة فهذان السبيلان اللذان يشهد بهما فيما أحل أنه حلال وفيما حُرم أنه حرام وهذا الذى لا يسع أحداً عندنا جهله ولا الشك فيه [1].

وعلم الخاصة سنة من خبر الخاصة يعرفها العلماء ولم يكلفها غيرهم. وهى موجودة فيهم أو فى بعضهم بصدق الخاص المخبر عن رسول الله بها. وهذا اللازم لأهل العلم أن يصيروا إليه، وهو الحق فى الظاهر كما نقتل بشاهدين، وذلك حق فى الظاهر، وقد يمكن فى الشاهدين الغلط وعلم إجماع، وعلم اجتهاد بقياس على طلب إصابة الحق فذلك حق فى الظاهر عند قايسه لا عند العامة من العلماء ولا يعلم الغيب فيه إلا الله.

وإذا طلب العلم فيه بالقياس فقيس بصحة: أيتفق المقايسون فى أكثره وقد نجدهم يختلفون والقياس من وجهين: أحدهما أن يكون الشئ فى معنى الأصل فلا يختلف القياس فيه. وأن يكون الشئ له فى الأصول أشباه. فذلك يلحق بأولاها به وأكثرها شبها فيه، وقد يختلف القايسون فى هذا ... إلى آخر ما قاله رضى الله عنه مما أورده من أمثلة يستدل بها على ما ذهب إليه.

ثم استدل على جواز الاجتهاد بحديث عمرو بن العاص رضى الله عنه: أنه

---

(١) الرسالة ص ٤٧٦ - ٤٨٠ ثم ما بعدها.

سمع رسول الله – ﷺ – يقول: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر» (١).

وورد فى مختصر المزنى (٢) «الفقهاء من عصر رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا استعملوا المقاييس فى جميع الأحكام فى أمر دينهم وأجمعوا على أن نظير الحق حق ونظير الباطل باطل فلا يجوز لأحد إنكار القياس لأنه تشبيه الأمور والتمثيل عليها».

وقد أخذ بالقياس والاجتهاد الجمهور ونفاه نفيا مطلقا وهم الظاهرية والشيعة الإمامية والجمهور يستدل بالقياس بالتسوية بين المتماثلين وشذ بعض أتباع المذاهب الفقهية فتوسعوا فى الأقيسة وحاولوا الجمع بين أشياء لا اشتراك بينها فى علة الحكم ثم زادوا فى قوة القياس أحيانا فجعلوه مخصصا لبعض عمومات الكتاب والسنة. وهو ما يرفضه الإمام الشافعى رضى الله عنه هذا والقياس مكون من أربعة أركان هى:

(١) الأصل: وهو المصدر من النصوص الذى بين الحكم وقيل: هو موضوع هذا المصدر والمعنيان متلاقيان.

(٢) الفرع: وهو الموضوع الذى لم ينص على حكمه.

(٣) الحكم: الذى اتجه القياس إلى تعديه من الأصل إلى الفرع.

(٤) العلة المشتركة بينهما.

ولا شك أن القياس والاجتهاد ضرورة ملحة إذ بمقتضاه يمكن للعلماء التعامل مع القضايا والمسائل التى لم يرد بشأنها نص فى الكتاب أو فى السنة أو الإجماع ولا يكون القياس إلا فى أمرين متماثلين فى علة الحكم أحدهما أصل ورد فيه النص بالحكم والثانى فرع لم ينص عليه وكانت العلة بينهما مشتركة.

(٥) الاستحسان:

معناه عند من يجوز الأخذ به: أنه استعمال مصلحة جزئية فى موضع يعارضه فيها قياس عام، وبه يأخذ الأحناف والمالكية.

---

(١) حديث رواه الترمذى أيضا.

(٢) أصول الفقه أبو زهرة: ٢٠٥، ٢٠٦.

عرفه أبو الحسن الكرخي من الحنفية بقوله : هو أن يعدل المجتهد عن أن يحكم فى المسألة بمثل ما حكم به فى نظائرها لوجه أقوى يقتضى العدول عن الأول .

وعرفه ابن العربى من المالكية بتعريف قريب من هذا التعريف فقال :

« الاستحسان : إيثار ترك الدليل والترخيص بمالفته لمعارضته دليل آخر فى بعض مقتضياته .

وقسمه إلى أربعة أقسام : وهى : ترك الدليل للعرف ، وتركه للإجماع ، وتركه للمصلحة ، وتركه للتيسير ودفع المشقة » .

وروى عن الإمام مالك رضى الله عنه أنه قال : « الاستحسان تسعة أعشار العلم » .

ولم يأخذ به إمامنا الشافعى رضى الله عنه ونفى القول به فى مواضع عديدة فى كتبه .

قال فى كتابه الرسالة : قال هذا كما قلت والاجتهاد لا يكون إلا على مطلوب .والمطلوب لا يكون ابدا إلا على عين قائمة تطلب بدلالة يقصد بها اليها . .أو تشبيه على عين قائمة .وهذا يبين أن حراما على أحد أن يقول بالاستحسان . إذا خالف الاستحسان الخبر . والخبر من الكتاب والسنة عين يتاخي معناها المجتهد ليصيبه كما البيت يتأخاه من غاب عنه ليصيبه أو قصده بالقياس وأن ليس لأحد أن يقول إلا من جهة الاجتهاد . والاجتهاد ما وصفت من طلب الحق فهل تجيز أنت أن يقول الرجل : أستحسن بغير قياس؟

فقلت : لا يجوز هذا عندى – والله أعلم – لأحد . وإنما كان لأهل العلم أن يقولوا دون غيرهم لأن يقولوا فى الخبر باتباعه فيما ليس فيه الخبر بالقياس على الخبر ولو جاز تعطيل القياس جاز لأهل العقول من غير أهل العلم أن يقولوا فيما ليس فيه خبر بما يحضرهم من الاستحسان .

وإن القول بغير خبر ولا قياس لغير جائز بما ذكرت من كتاب الله وسنة رسوله – ﷺ – ولا في القياس) .

ويعلق الشيخ أحمد شاكر على ما قاله الإمام الشافعي رضي الله عنه بقوله على هامش الرسالة (1) :

(قد كان ما خشى الشافعي أن يكون بل خرج الأمر في هذه العصور عن حده فصرنا نرى كل من عرف شيئا من المعارف زعم لنفسه أنه يفتي في الدين والعلم وأنه أعلم به من أهله وخاصة من أشربوا في قلوبهم علوم أوروبا وعقائدها . يزعمون أن عقولهم تهديهم إلى إصلاح الدين . وإلى الحق في التشريع وخرجوا عن الخبر وعن القياس إلى الرأي والهوى حتى لنكاد نخشى أن تخرج بلاد المسلمين عن الإسلام جملة والعلماء ساهون لاهون أو مستضعفون يخافون الناس ويخافون كلمة الحق فإنا لله وإنا إليه راجعون وانظر الأم ج7 ص ٢٧٣) أ.هـ.

وأقول : جزاك الله يا أستاذنا عن الإسلام خيرا . وجزى الله إمامنا الشافعي خير الجزاء وأعظم له المثوبة فإن ما خاف الشافعي رضي الله عنه من وقوعه قد وقع فلقد دس أناس من المتعالمين أنوفهم في الشريعة الإسلامية وباركهم في ذلك بعض العلماء من طلاب الدنيا فقالوا على الله بغير علم ونحوا النصوص جانبا باسم التنوير والحداثة . والمعاصرة والتحضر فازداد خوف المتدينين على دينهم وعقيدتهم ولعب الشيطان بعقول البعض وزين لهم أعمالهم . أرجو الله تعالى أن يهديهم إلى معرفة طريق الصواب ثم يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه (2) :

(وإذا كان هذا هكذا كان على العالم أن لا يقول إلا من جهة العلم وجهة العلم : الخبر اللازم بالقياس بالدلائل على الصواب حتى يكون صاحب العلم أبدا متبعا خبرا وطالب الخبر بالقياس كما يكون متبع البيت بالعيان وطالب قصده بالاستدلال بالأعلام مجتهدا .

ولو قال بلا خبر لازم ولا قياس كان أقرب من الإثم من الذي قال وهو غير عالم وكان القول لغير أهل العلم جائزا .

---

(1) ص ٥٠٥ . (2) الرسالة ص ٥٠٧ – ٥١١ .

ولم يجعل الله لأحد بعد رسول الله - ﷺ - أن يقول إلا من جهة علم مضى قبله. وجهة العلم بعد الكتاب والسنة والإجماع والآثار وما وصفت من القياس عليها.

ولا يقيس إلا من جمع الآلة التى يكون له القياس بها وهى العلم بأحكام كتاب الله، فرضه. وأدبه. وناسخه ومنسوخه وعامه وخاصه وإرشاده.

ويستدل على ما احتمل التأويل منه بسنن رسول الله - ﷺ - فإذا لم يجد سنة فبإجماع المسلمين. فإن لم يكن إجماع فبالقياس.

ولا يكون لأحد أن يقيس حتى يكون عالما بما مضى قبله من السنن وأقاويل السلف وإجماع الناس واختلافهم ولسان العرب.

ولا يكون له أن يقيس حتى يكون صحيح العقل وحتى يفرق بين المشتبه ولا يعجل بالقول به دون التثبيت ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه لأنه قد يتنبه بالاستماع لترك الغفلة ويزداد به تثبيتا فيما اعتقد من الصواب وعليه فى ذلك بلوغ غاية جهده والإنصاف من نفسه حتى يعرف من أين قال ما يقول وترك ما يترك. ويكون بما قال أغنى منه بما خالفه حتى يعرف فضل ما يصير إليه على ما يترك إن شاء الله فأما من ثم عقله ولم يكن عالما بما وصفنا فلا يحل له أن يقول بقياس وذلك أنه لا يعرف ما يقيس عليه كما لا يحل لفقيه عاقل أن يقول فى ثمن درهم ولا خبرة له بسوقه.

ومن كان عالما بما وصفنا بالحفظ لا بحقيقة المعرفة فليس له أن يقول أيضا بقياس لأنه قد يذهب عليه عقل المعانى.

وكذلك لو كان حافظا مقصر العقل أو مقصرا عن علم لسان العرب. لم يكن له أن يقيس من قبل نقص عقله عن الآلة التى يجوز بها القياس.

ولا نقول يسع هذا - والله أعلم - أن يقول أبدا إلا اتباعا لا قياسا. أ. هـ.

وهكذا يرفض الشافعى التقليد وينفيه ولذلك يقول لمن حفظ وكان مقصر العقل أو غير متمكن من لسان العرب أنه يتبع ما عرف من العلم ويمنعه من أن

يقيس ولكنه لم يجز له أن يكون مقلدا ثم هو يقول فى كتابه (اختلاف الحديث) [1].

(العلم من وجهين: اتباع واستنباط، والاتباع اتباع كتاب. فإن لم يكن فسنة فإن لم يكن فقول عامة من سلفنا لا نعلم له مخالفا فإن لم يكن فقياس على كتاب الله عز وجل. فإن لم يكن فقياس على سنة رسول الله ﷺ. فإن لم يكن فقياس على قول عامة سلفنا لا مخالف له ولا يجوز القول إلا بالقياس وإذا قاس من له القياس فاختلفوا وسع كلا أن يقول بمبلغ اجتهاده ولم يسعه اتباع غيره فيما أدى إليه اجتهاده بخلافه).

وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه فى كتابه (إبطال الاستحسان) [2] ما يلى:

(وليس للحاكم أن يقبل ولا للوالى أن يدع أحدا. ولا ينبغى للمفتى أن يفتى أحدا. إلا متى يجمع أن يكون عالما علم الكتاب وعلم ناسخه ومنسوخه وخاصه وعامه. وأدبه. وعالما بسنن رسول الله ﷺ وأقاويل أهل العلم قديما وحديثا وعالما بلسان العرب عاقلا يميز بين المشتبه ويعقل القياس فإن عدم واحد من هذه الخصال لم يحل له أن يقول قياسا وكذلك لو كان عالما بالأصول غير عاقل للقياس الذى هو الفرع لم يجز أن يقال لرجل: قس وهو لا يعقل القياس. وإن كان عاقلا للقياس وهو مضيع لعلم الأصول أو شئ منها لم يجز أن يقال له: قس على ما لا تعلم. كما لا يجوز أن يقال: قس لأعمى وصفت له. اجعل كذا عن يمينك وكذا عن يسارك. فإذا بلغت كذا فانتقل متيامنا وهو لا يبصر ما قيل له يجعله يمينا ويسارا. أو يقال: سر بلادا ولم يسرها قط ولم يأتها قط، وليس له فيها علم يعرفه ولا يثبت له فيها قصد سمت يضبطه لأنه يسير فيها على غير مثال قويم كما لا يجوز لعالم بسوق سلعة منذ زمان ثم خفيت عنه سنة أن يقال له: قوم عبدا من صفة كذا وكذا لأن السوق تختلف. ولا لرجل أبصر بعض صنف من التجارات وجهل غير صنفه والغير الذى جهل لا دلالة له عليه ببعض

---

(١) ص ١٤٨، ١٤٩.

(٢) الأم ج ٧ ص ٢٧٤.

علم الذى علم قوم كذا كما لا يقال لبناء انظر قيمة الخياطة ولا لخياط انظر قيمة البناء) وقد أبطل الإمام الشافعى الاستحسان وذكر ذلك فى كتابيه الأم (كتاب إبطال الاستحسان) والرسالة وبنى ذلك على ستة أدلة ساقها فيهما نلخصها فيما يلى :

(١) الاستحسان ليس نصا ولا قياسا وليس إعمالا لأى منهما فهو يناقض الآية (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) .

(٢) الاستحسان ليس كتابا ولا سنة ولا ردا للكتاب والسنة . يقول تعالى ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ [النساء : ٥٩] والاستحسان تزيد على الكتاب والسنة .

(٣) لم يفت النبى ﷺ بالاستحسان أبدا وإنما كان ينتظر الوحى كما وقع فى آية الظهار وكفارته .

(٤) النبى – ﷺ – قد استنكر على الصحابة الذين أفتوا باستحسانهم عندما أحرقوا مشركا لاذ بشجرة . وعند ما قتل أسامة بن زيد رجلا نطق بالشهادتين .

(٥) الاستحسان لا ضابط له كالقياس إذ يضبط القياس الاعتماد على الأصل الوارد فيه النص أما الاستحسان فلا .

(٦) الاستحسان يعتمد على العقل وحده ولو كان جائزا لجاز ممن ليس عنده علم بالكتاب والسنة ومن لا علم عنده بالكتاب والسنة لا يجوز له أن يكون مجتهدا .

لذا يقول إمامنا رضى الله عنه (من استحسن فقد شرع) أى قال فى الدين برأيه وهواه وهو غير جائز وحرام كما نص عليه فى الرسالة .

وواضح أن الإمام الشافعى رضى الله عنه يرد الاستحسان الذى يشمل المصلحة المرسلة إذا لم يكن دليل سواها كما يشمل المصلحة التى تعارض الأقيسة والله تعالى أعلم .

قال الشيخ أبو زهرة رحمه الله تعالى [1]:

سلك علم أصول الفقه بعد الشافعى مسالك ذات شعب مختلفة كان فيها تنمية له. ذلك أن الشافعى قد لاحظ فى منهاجه الذى وضعه عن علم الأصول فى الرسالة وفى كتاب جماع العلم وكتاب إبطال الاستحسان أن يكون علم الأصول ميزانا ضابطا لمعرفة الصحيح من الآراء من غير الصحيح وأن يكون قانونا كليا تجب معرفته. ومراعاته عند استنباط الأحكام فى عصر من العصور ولقد استخدم هذا المنهاج فى مناقشة آراء الفقهاء التى وجدها بين يديه شائعة فاشية فناقش به آراء الإمام مالك فى كتاب اختلاف مالك وناقش آراء العراقيين ووزن الأوزاعى والرد عليه الذى كتبه أبو يوسف وبذلك أخضع الآراء الفقهية لمحكمة هذا القياس.

ولقد قيد نفسه فى الاستنباط بهذا المنهاج فلم يخرج عنه قيد أنملة وبذلك كانت أصوله هذه هى أصول مذهبه أيضا لا على أنها دفاع عن مذهبه. بل لأنه قبل أن يخرج على الناس بهذا المذهب فى العراق ومصر وقد وضع تلك الضوابط المحكمة وسار على منهاجها.

ولهذا كانت أصول الفقه عند الشافعى لا تتجه اتجاها نظريا فقط بل كانت تسير فى اتجاهات نظرية وعملية . أ.هـ .

* * *

---

(١) أصول الفقه ص ١٣، ١٤.

الفقه الشّافعى

الفقه لغة : هو الفهم العميق النافذ الذى يتعرف غايات الأقوال والأفعال .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا** ﴾ [النساء : ٧٨]

وقوله ﷺ : (من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين) .

وقوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

وفى اصطلاح الفقهاء : هو العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية وعلى ذلك يكون موضوع علم الفقه يتكون من جزءين :

أحدهما : العلم بالأحكام الشرعية العملية فالأحكام الاعتقادية كالوحدانية ورسالة الرسل وتبليغهم رسائل ربهم والعلم باليوم الآخر وما يكون فيه كل هذا لا يدخل فى مضمون كلمة الفقه بالمعنى الاصطلاحى وإنما هو موضوعات علم العقيدة .

والجزء الثانى : من موضوع علم الفقه . العلم بالأدلة التفصيلية لكل قضية من القضايا فإذا ذكر مثلا أن بيع السلم لا بد فيه من تسليم رأس المال وقت العقد أقام الدليل على ذلك من الكتاب أو من السنة أو من فتاوى الصحابة (١) . . . وهكذا أ . هـ .

إن لكل مذهب فقهى قواعده وأسسه التى تميزه عما عداه من المذاهب الأخرى، والمذهب الشافعى له قواعده التى يرتكز عليها - يقول الإمام جلال الدين السيوطى فى الأشباه والنظائر (٢) :

(حكى القاضى أبو سعيد الهروى أن بعض أئمة حنفية بهراة (مكان) بلغه

---

(١) أصول الفقه . أبو زهرة ص ٤ بتصرف .

(٢) ص ٥ ، ٦ .

أن الإمام أبا طاهر الدباس إمام الحنفية بما وراء النهر رد جميع مذهب أبى حنيفة إلى سبع عشرة قاعدة فسافر إليه وكان أبو طاهر ضريرا وكان يكرر كل ليلة تلك القواعد بمسجده بعد أن يخرج الناس منه. فالتف الهروى بحصير وخرج الناس وأغلق أبو طاهر باب المسجد وسرد من تلك القواعد سبعا فحصلت للهروى سعلة فأحس به أبو طاهر فضربه وأخرجه من المسجد ثم لم يكررها فيه بعد ذلك فرجع الهروى إلى أصحابه وتلا عليهم تلك السبع.

قال القاضى أبو سعيد: فلما بلغ القاضى حسين ذلك رد جميع مذهب الشافعى إلى أربع قواعد:

الأولى: اليقين لا يزال بالشك. وأصل ذلك قوله ﷺ: «إن الشيطان ليأتى أحدكم فى صلاته فيقول له أحدثت فلا ينصرف حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا».

الثانية: المشقة تجلب التيسير قال تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [الحج: ٧٨].

وقال ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة».

الثالثة: الضرر يزال، وأصلها قوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار».

الرابعة: العادة محكمة: لقوله ﷺ «ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن» انتهى قال بعض المتأخرين فى كون هذه الأربع دعائم الفقه كله نظر. فإن غالبه لا يرجع إليها إلا بواسطة وتكلف وضم بعض الفضلاء إلى هذه قاعدة خامسة وهى: الأمور بمقاصدها لقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات ..» وقال: «بنى الإسلام على خمس والفقه على خمس» قا العلائى وهو حسن جدا فقد قال الإمام الشافعى يدخل فى هذا الحديث: ثلث العلم. وقال الشيخ تاج الدين السبكى: التحقيق عندى أنه إن أريد رجوع الفقه إلى خمس بتعسف وتكلف وقول حملى، فالخامسة داخلة فى الأولى.

بل رجع الشيخ عز الدين بن عبد السلام الفقه كله إلى اعتبار المصالح ودرء المفاسد بل قد يرجع الكل إلى اعتبار المصالح فدرء المفاسد من جملتها، ويقال

على هذا واحدة من الخمس كافية والأشبه أنها الثالثة . وإن أريد الرجوع بوضوح فإنها تربو على الخمسين بل على المائتين) أ.هـ .

ومصادر الفقه عند الإمام الشافعي رضى الله عنه – كما بينا أصول الفقه عنده – هي :

١ – القرآن الكريم .

٢ – السنة النبوية الشريفة وقضاء الصحابة رضى الله عنهم .

٣ – الإجمـــاع .

٤ – القياس والاجتهاد .

ويرفض الإمام الشافعي رضى الله عنه الأخذ بما يلي :

١ – الاستحسان .

٢ – المصالح المرسلة .

٣ – العرف وسد الذرائع .

(لم يقبل الإمام الشافعي مذهب المتكلمين – علماء العقيدة – لتعارضه مع منهج السلف الصالح في فهم مسائل الشريعة . والسبب : أن المتكلمين حكموا العقل في كل أمر نظرى أو عملي . وجعلوه هاديا في فهم الشرع مع ما للعقل من هفوات وضيق أفق وما توصل إليه المتكلمون من تناقض في المسألة الواحدة وهذا شأن جميع الأئمة، فالإمام مالك لا يقبل شهادتهم ومحمد بن الحسن – تلميذ أبى حنيفة – ينصح المصلى خلف المعتزلى أن يعيد صلاته . وعدهم أبو يوسف من الزنادقة .

لم يقبل الشافعي منهجهم المعرفى لاختلاف الطرق وتباين المناهج في فهم الدين عند الشافعي وعند المعتزلة فهم يرفضون التقليد والسماع أما الشافعي فينصرف إلى الكتاب والسنة يأخذ منهما قواعد فقهه وأصول حججه يؤثر الاتباع والتقليد على الابتداع ولا يؤمن بقدرة العقل المعزول عن أنوار الشريعة في الوصول إلى الغايات والفهم .

قال الشافعي : «كل متكلم من الكتاب والسنة فهو الحق، وما سواهما هذيان».

وقال الإمام أحمد : «كان الشافعي إذا ثبت عنده الحديث قال به وخير خصاله أنه لم يكن يشتهي الكلام وإنما همته الفقه» وقال الشافعي : «ما من شئ أبغض إليَّ من الكلام وأهله» وقال المزني «كان مذهب الشافعي كراهية الخوض في الكلام وكان ينهانا عن الخوض في الكلام».

ويقسو - الشافعي - عليهم إلى درجة «أن يضربوا بالجريد ويحملوا على الإبل منكسين ويطاف بهم في العشائر والقبائل. ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام» [1].

وقد سبق لنا أن بينا رأيه في علم العقيدة والمتكلمين فيه الذين كان يرفض طريقتهم ومناهجهم الى استخدموها في هذا العلم الخطير رغم علمه بمسائل العقيدة وقضاياها إلا أنه كان لا يحب الخوض فيها كثيرا.

لقد كان الإمام الشافعي رضي الله عنه عالما يقتدى به وعابدا يتأسى به وفقيها واعيا يندر مثله إلا ما كان من نظرائه (أبو حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل) رضي الله عنهم على اختلاف مناهجهم وآرائهم لقد كان الأربعة سادة العلماء وأئمتهم. وكان إمامنا الشافعي رضي الله عنه أكثرهم تمسكا بالكتاب والسنة ولم يكن يجتهد في أمر من الأمور إلا إذا كان له ما يؤيده من النصوص (قرآن أو سنة) ولذلك كان القياس عنده قائما على هذا الأساس حدسه ديني إيماني حديثي لا عقلي، إذا أعوزه النص لجأ إلى القياس المحدود بقواعد دينية لا فلسفية.

كان - وما يزال - للشافعي رضي الله عنه تراث ضخم بالعراق وله هناك تلاميذ وأتباع، وقد أطلق على تراثه بالعراق (المذهب القديم).

ولما سافر إلى مصر والتف علماؤها حوله كان له بها تراث وتلاميذ أطلق عليه (المذهب الجديد).

---

(١) سيرة الإمام محمد بن إدريس الشافعي وعصره (مقدمة كتاب الأم) ص ١٣، ١٤.

عاد الشافعى إلى مكة بعد رحلته الأولى للعراق وكان يحمل معه ما سمعه من علم أهل الرأى الذى أخذه عن محمد بن الحسن تلميذ أبى حنيفة رضى الله عنه ومن فقهاء العراق .

وفى مكة المكرمة شرع فى إعادة النظر فى أصول المذاهب وفروعها واتخذ له حلقة فى المسجد الحرام وكان يقصده ذوو المكانة والمنزلة العليا فى العلم يستمعون إلى فقهه الجديد الذى ينتصر فيه لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وقد كان مبدعا فى استخدامه القياس والاجتهاد مما جعل خلق كثير من العلماء ومن غيرهم يلتفون حوله إعجابًا بمنهجه وحسن منطقه حتى بلغت شهرته الآفاق فطلب منه الحافظ الإمام عبد الرحمن بن مهدى أن يضع له كتابا يجمع مقبول الأخبار فيه وحجة الإجماع وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة وحجية السنة فألف كتاب « الرسالة » فاعجب به ابن مهدى كثيرا وقال قولته المشهورة عن الشافعى « لا أعرف له نظيرا فى الدنيا » .

وقد وفد الإمام أحمد بن حنبل إلى مكة حاجًّا فسمع من الشافعى وتتلمذ على يديه فقال : ما رأيت أحداً أفقه فى كتاب الله من هذا الفتى أى محمد بن إدريس، وقال إسحاق بن راهويه « كنت مع أحمد بمكه فقال لى « تعال حتى أريك رجلاً لم تر عيناك مثله فأرانى الشافعى » وقال بشر المريسى بعد اجتماعه بالشافعى « معه نصف عقل الدنيا » .

(أ) المذهب القديم (العراقى) :

انتشر فقه أهل الرأى بالعراق لاعتمادهم على مناهج وأصول لم تعهد عند الصحابة والتابعين وقد سمع من ذلك الشافعى آراء مختلفة أقلقته فسافر إلى العراق لينصر مذهب السنة والحديث كما كان معهودا عند السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين.

قصد الجامع الغربى حيث كانت تعقد حلقات العلم وبدأ يشرح أصول فقهه وقواعده واجتهاده المطلق . وقام العلماء بالعراق بامتحانه ومناظرته علهم يوقعون به بإبطال قوله أو بإضعافه ولكنه قد أسرهم بحججه وعذوبة منطقه وغلبهم بوافر علمه وحسن أدبه . فانقلبوا إليه صاغرين وتسابقوا على أخذ

أماكنهم فى حلقة درسه وكان منهم: الحسين بن على الكرابيسى الذى قال: (سألته عن مسألة فلم يزل يقول: قال الله: قال رسول الله ﷺ حتى أظلم علينا البيت فتركنا ما كنا فيه واتبعناه [١].

وقال إسحاق بن راهويه والكرابيسى وجماعة من الفقهاء «ما تركنا بدعتنا حتى رأينا الشافعى» [٢].

لقد ظهر أمر الإمام فى بغداد وتنافل الناس أقواله. وتحدث الناس فى أمره وكان يأتيهم كل يوم بأمر جديد وعلم وفهم صحيح لكلام الله عز وجل وحديث نبيه ﷺ حتى قال ابراهيم الحربى رحمه الله تعالى: «قدم الشافعى بغداد وفى الجامع الغربى عشرون حلقة لأصحاب الرأى فلما كان يوم الجمعة لم يثبت منها إلا ثلاث حلق أو أربع» [٣].

أقبل على حلقته الفقهاء والمحدثون وأهل الرأى. ينهلون من علمه وينتفعون باستنباطاته ويثنون عليه الثناء الجميل. بل ترك الكثيرون منهم مذهبه الذى كان عليه وترك منهجه فى الفقه وتمسكوا بطريقته والتزموا منهاجه كأبى ثور «فوجدوا عنده ما لم يجدوه عند غيره» [٤].

لقد ألف الإمام الشافعى رضى الله عنه كتابه «الحجة» فى مذهبه العراقى «القديم» فأعجب العلماء بطريقته فى التصنيف مثل ما أعجبوا بطريقته فى التدريس والفتوى حتى قال الإمام أحمد بن محمد بن حنبل رحمه الله تعالى: (ما من أحد مس محبرة وقلما إلا وللشافعى فى عنقه منة). وقال أيضا: (كان الشافعى أفقه الناس فى كتاب الله وفى سنة رسوله).

وهؤلاء هم أشهر تلاميذه بالعراق الذى قرأوا وسمعوا وحفظوا فقهه حتى كان لهم جميعا أثرا هاما فى تاريخ الحركة العلمية فى العراق وغيره وهم:

أحمد بن حنبل، إسحاق بن راهويه، الحارث بن سريح القفال، أحمد بن سنان القطان، أحمد بن خالد الخلال، أحمد بن سريح النهشلى، أحمد بن يحيى بن عبد العزيز البغدادى، الحسين بن على الكرابيسى والحسن بن محمد الزعفرانى، الحسين الفلاس، سليمان بن داود، ابراهيم بن خالد بن أبى اليمان،

---

(١) توالى التأسيس ص ٥٨.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ١ / ٦١.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات ١ /٦٣.

(٤) المصدر السابق ١ /٤٨.

أبو ثور، لقد ترك الشافعي بغداد وقفل راجعا إلى مكة المكرمة ينشر بها مذهبه بعد أن قضى بالعراق سنتين فالتف حوله بمكة الكثيرون من طلاب العلم والعلماء والفقهاء ينهلون من علمه ويستمدوه منه أصول مذهبه ويتعلمون منه طريقته في الدفاع عن السنة والحديث وفى مكة وضع بعض كتبه ثم عاد إلى العراق مرة ثالثة فوصلها فى سنة ١٩٨ هـ وأقام فيها أشهرا ثم تركها قاصدا مصر.

(ب) (المذهب الجديد) المصرى:

دخل الشافعى رضى الله عنه مصر سنة تسع وتسعين ومائة وقالوا: سنة مائتين وقيل إحدى ومائتين [1] وقد صحبه والى مصر متعهدا رعايته والاهتمام به فى الفسطاط جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه - وعند تركه العراق ودعه أهل بغداد بالحزن والأسى لفراقه يتقدمهم الإمام أحمد بن محمد بن حنبل رضى الله عنه فامسك الشافعى بيده وقد أحس بأنه لن يراه بعد الآن ثم قال:

لقد أصبحت نفسى تتوق إلى مصر ... ومن دونها أرض المهامة والفقر

ووالله لا أدرى ألـلعـز والغنى ... أساق إليها أم أساق إلى القبر؟

وصل الإمام الشافعى إلى الفسطاط ودعاه عبد الله بن عبد الحكم لى النزول عنده فاستجاب له فاعطاه من ماله ألف دينار واستمر الشافعى فى دار ابن عبد الحكم إلى وفاته.

كان أتباع أبى حنيفة ومالك رضى الله عنهما فى مصر كثيرين ولما سمعوا بقدوم الشافعى رضى الله عنه توافدوا عليه واستمعوا مه وفتنوا به فالتفوا من حوله حتى خاف أشهب بن عبد العزيز بن داود القيسى العامرى فقيه مصر وصاحب مالك فقد كان يدعو على الشافعى فى سجوده ويقول: «اللهم أمت الشافعى وإلا مات علم مالك» ويقول الشافعى «ما أخرجت مصر أفقه من أشهب لولا طيش فيه» قال هارون بن سعيد بن الهيثم الأيلى «ما رأيت مثل الشافعى قدم علينا مصر فجئناه وهو يصلى فما رأينا أحسن صلاة منه. ولا أحسن وجها فلما تكلم ما رأينا أحسن منه كلاما» [2].

---

(١) المصدر السابق ١/٤٨، ووفيات الأعيان ١/٥٦٦.

(٢) توالى التأسيس ٥٩.

وقام يستنبط الأحكام وينشر مذهبه الجديد فشهد له المخالفون بالبراعة وتحول كثير من الفقهاء إلى فقهه حتى أن عبد الله بن الحكم المالكى قال «لولا الشافعى ما عرفت كيف أرد على أحد وبه عرفت ما عرفت رحمه الله».

وفى مصر أعاد الشافعى النظر فى كتابه «الرسالة» فجددها كما أعاد النظر فى كتاب «الحجة» ووضع فى مصر كتبا كثيرة أهمها وأعظمها موسوعته الفقهية الكبرى «كتاب الأم» وفيه قيد مذهبه الجديد وقد أملى على تلاميذه بمصر الكتب والرسائل العديدة.

قال صاحب معجم الأدباء [1] «أن الشافعى كان يجلس فى حلقته بالمسجد بعد صلاة الصبح فيتحلق أهل القرآن فإذا طلعت الشمس جاء أهل الحديث فإذا ارتفعت الشمس قاموا وجاء أهل العربية والنحو والشعر فلا يزالون إلى قرب انتصاف النهار وعندها ينصرف الشافعى).

وقال الكرابيسى (ما رأيت مجلسا قط أنبل من مجلس الشافعى كان يحضره أهل الحديث وأهل الفقه وأهل الشعر).

لقد لازمه بمصر أربعة من علمائها «أبو يعقوب: يوسف بن يحيى البويطى، أبو إبراهيم اسماعيل ابن يحيى المزنى، محمد الربيع بن سليمان المرادى، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الحكم.

لم يكتف الإمام الشافعى رضى الله عنه بإملاء مذهبه على الشيوخ، والمريدين وإنما رابط فى الثغور امتثالا للحديث الصحيح «عينان لا تمسهما النار: عين بكت فى خشية الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله» نراه يصلى الصلوات الخمس فى المسجد الجامع - بالاسكندرية - ثم يصير إلى المحرس فيستقبل البحر بوجهه يحرس الشواطئ وهو جالس يقرأ القرآن الكريم كما ذكره ابن حجر العسقلانى فى توالى التأسيس، لقد ألف الإمام أكثر كتبه فى مصر فى مدة أربع

---

(١) ١/٣٠٤.

سنوات مع مرضه الخطير فهذا شئ يثير العجب قال محمد بن إسحاق بن راهويه : سئل أبى كيف وضع الشافعى هذه الكتب كلها ولم يكن كبير السن؟ فسمعته يقول (عجل الله له عقله لقصر عمره) [1].

وقال الربيع بن سليمان : (أقام الشافعى – فى مصر – أربع سنوات فأملى ألفا وخمسمائة ورقة وخرج كتاب الأم ألفى ورقة وكتاب السنن وأشياء كثيرة فى مدة أربع سنين وكان عليلا شديد العلة وربما خرج الدم وهو راكب حتى تمتلئ سراويله وخفه) [2] .

رحم الله الإمام أحمد بن حنبل الذى قال : (لقد كان الفقه قفلا ففتحه الشافعى) [3].

كان الشافعى يملأ ليله ونهاره بالتأليف لا يعرف طعم الراحة ولا لذة الكرى . ومن هنا كان السبب فى ذلك العدد الكبير من أسماء الكتب إلى حد أن يونس بن عبد الأعلى قال : كان الشافعى يضع الكتاب من غدوة إلى الظهر أى لا يستغرق وضع الكتاب أكثر من نصف النهار .

ثم إن بعض الكتب المذكورة للشافعى لم توضع فى مصر . فكتابه الشهير «الرسالة» قيل : إنه وضعه بمكة استجابة لطلب الإمام عبد الرحمن بن مهدى . ويرى الفخر الرازى أنه ألفه بالعراق وكذلك وضع بالعراق كتابه «الحجة» وهو يشكل مذهبه القديم . وكان الدافع إلى تأليفه الرد على أهل الرأى وطلب أصحاب الحديث منه أن يضع كتابه «الحجة» وقد رد فى الكتاب على مذاهب أهل الرأى وعرض لأهم مسائل الفقه الشافعى .

يقول الحافظ الذهبى فى تاريخه الكبير (سئل أحمد – بن حنبل – : ما ترى فى كتب الشافعى التى عند العراقيين أهى أحب إليك أم التى بمصر؟ .

قال : عليك بالكتب التى وضعها بمصر فإنه وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحكمها ثم رجع إلى مصر فأحكم تلك) .

(١ ، ٢) المصدر السابق ٧٩ ، ٨٣ .   (٣) مقدمة معرفة السنن والآثار ص ٢٧ .

ومذهب الشافعى الجديد وصل إلينا فيما ألفه بمصر من الكتب وقد سرد الإمام البيهقى فى المناقب كتب الشافعى ما ملخصه كما يلى :

(الرسالة القديمة - الرسالة الجديدة - اختلاف الحديث - جماع العلم - إبطال الاستحسان - أحكام القرآن - بياض الفرض - صفة الأمر والنهى - اختلاف مالك - اختلاف العراقيين اختلافه مع محمد بن الحسن - كتاب على عبد الله - فضائل قريش - كتاب الأم (مائة ونيف وأربعون كتابا) كتاب السنن - والمبسوط قال البيهقى : وبعض كتبه الجديدة لم يعد تصنيفها وهى : الصيام - والصداق - والحدود - والرهن الصغير - والإجارة - والجنائز فإنه أمر بقراءة هذه الكتب عليه فى الجديد وأمر بتحريق ما يغاير اجتهاده .

هذا ولم يذكر البيهقى كتاب الحجة الذى وضع فيه مذهبه القديم ولعله سقط سهوا من الناسخ .

● **رد افتــــراء :**

أجمع المؤرخون على أن كتاب « الأم » أملاه الإمام الشافعى فى مصر وهو رواية الربيع بن سليمان المرادى وسماعه وهو عالم جليل صدوق . وثقه . قال يحيى بن معين : وقد سئل عمن يكتب كتب الشافعى فقال : عن الربيع . ولهذا كان العلماء يرتحلون إليه ليسمعوا منه . قال محمد الطرائفى : حضرت الربيع بن سليمان يوما وقد حط على باب داره تسعمائة راحلة لسماع كتب الشافعى [1] .

وقال فيه الشافعى : (وأما أنت يا ربيع فأنت أنفعهم لى فى نشر الكتب) .

ولقد صدقت فيه نبوءة الشافعى وفراسته فكان الربيع مثالا للصدق والأمانة فى السماع والنقل والتدوين .

أخرج له ابن خزيمة فى صحيحه، وابن حبان فى صحيحه . والحاكم

(١) تهذيب الأسماء واللغات ١ /٤٨ .

النيسابورى فى المستدرك وقال ابن أبى حاتم (سمعت منه وهو صدوق . وسئل أبى عنه . فقال : صدوق) .

ولقد أنكر أناس أن يكون كتاب « الأم » من تأليف وإملاء الإمام الشافعى رضى الله عنه وقالوا إنه من تأليف البويطى ثم أعطاه للربيع الذى أضاف إليه ما رآه قال بهذا صاحب قوت القلوب وللأسف الشديد نرى الإمام أبو حامد الغزالى رحمه الله وهو شافعى المذهب يعتنق هذا الرأى وينقل فى كتابه احياء علوم الدين المجلد الثانى (الحق السابع : الوفاء والإخلاص) هذا الرأى دون أن يبنى حكمه على تحقيق علمى كى تظهر له الحقيقة . ولكنه سرد فى كتابه قصة العلاقة بين الإمام الشافعى ومحمد بن عبد الله بن الحكم الذى كان صديقا حميما للشافعى وكان يطمع فى أن يوليه الشافعى كرسى الأستاذية من بعده ولكنه اختار أبا يعقوب البويطى فسقط فى أيدى محمد ولكن الشافعى فعل ذلك طلبا لرضا الله وليس رضا المخلوقين مما أغضب ابن الحكم الذى ترك مذهب الشافعى وعاد إلى مذهب مالك رحمه الله ثم ألف كتابا سماه « الرد على الشافعى فيما خالف فيه الكتاب والسنة » .

ويقول الغزالى : وآثر البويطى الزهد والخمول ولم يعجبه الجمع والجلوس فى الحلقة واشتغل بالعبادة وصنف كتاب الأم الذى ينسب الآن إلى الربيع بن سليمان ويعرف به وإنما صنفه البويطى ولكن لم يذكر نفسه فيه ولم ينسبه إلى نفسه فزاد الربيع فيه وتصرف وأظهره [1] .

ولم يذكر الغزالى مصدر هذا الكلام الذى نقله منه . وهذا خطأ كبير وقع فيه الإمام الغزالى وهو من علماء المذهب الشافعى وكلهم يقرر قديما وحديثا . أن كتاب الأم من تأليف الشافعى تصنيفا وإملاء وقد أملاه على الربيع بن سليمان المرادى . ولم ينازع فى هذا أحد إلا ما ذكر . فتلك سقطة كبيرة وقع فيها الغزالى ولا عجب فهذه القصة التى ذكرها دون سند شأنها شأن نقول كثيرة ذكرها فى الإحياء لا سند لها ولا مصدر لها يعتمد عليه .

---

(١) الإحياء ٢ / ١٠٠ .

فهذه الرواية –إن صحت – فإن مصدرها إثنان :

الأول: إنسان قد أعماه الحقد والطمع والبغض للشافعى كهذا الذى – من علماء الأحناف – قال : إن الشافعى ليس قرشيا إنما هو من الموالى، وأظنه هو الذى ادعى أن كتاب الأم من تأليف البويطى وقد زاد فيه الربيع وأنقص منه . وليس من تأليف الشافعى رضى الله عنه .

الثانى: موقف مذهبى متعصب من أتباع مذهبى أبى حنيفة ومالك رضى الله عنهما .

وليس أدل على ذلك من سعى بعض علماء المالكية بمصر عند الحاكم لكى يطرد الشافعى من مصر وقد كاد أن يفعل إذ مات الحاكم بعد ثلاثة أيام من موافقته على طلبهم . وهذا هو أشهب بن عبد العزيز المالكى يدعو على الشافعى فى صلاته لكى يميته الله تعالى حتى لا يقضى على مذهب مالك .

وقد دفعهم هذا لما رأوا الناس قد التفوا حول الشافعى وجلسوا فى حلقة درسه بجامع عمرو وتركوا حلقات تدريس علماء المذهب الحنفى والمذهب المالكى .

ولقد صدق الإمام الغزالى رحمه الله فى قوله (إذا كثر أعداء الرجل فاعلم أنه يقول الحق) .

ورحم الله سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : (رحم الله الحق لم يدع لى صديقا) .

والحق الذى لامراء فيه ولا جدل حوله أن كتاب الأم قد وضعه الشافعى فى مصر إملاء وهو يمثل خلاصة أفكاره التى نضجت واستقرت وأثمرت فكان – بحق – قراءة جديدة وضرورية لجملة من الآراء التى اعتنقها فى مكة والمدينة والعراق واليمن كما أنه خلاصة ما اكتسبه من رحلاته العديدة وتجاربه المثمرة ولقاءاته بالعلماء المتكررة فكان – كما أجمع العلماء – موسوعة إسلامية فقهية تمثل مذهب الشافعى وأحكامه وآراءه النهائية التى تركها ذخيرة من بعده للأمة الإسلامية . ولقد أملى ذلك كله على تلميذه الواعى الربيع بن سليمان المرادى

الذى حقق ظن الشافعى فيه وصدقت فيه فراسته رحمه الله تعالى وأجزل له فى العطاء.

ورحم الله الإمام الغزالى عما رواه فى هذا الشأن دون بحث أو تمحيص وتلك آفة الرواية أرجو الله سبحانه وتعالى أن يعفو عنا وعنه إنه سميع مجيب.

مذهبان أم مذهب واحد؟

قالوا إن للإمام الشافعى رضى الله عنه مذهبين فى الفقه الإسلامى (قديم وحديث أو عراقى ومصرى) ولست ممن يقول ذلك ولا أومن به للأسباب التالية:

أولا: لا أتصور أبدا أن يكون لأى إمام مذهبان أو رأيان متغايران فى مسألة واحدة كون أحدهما مضادا ومعارضا للآخر.

ثانيا: الثابت أن الإمام الشافعى رضى الله عنه كان قد وضع كتابه «الحجة» فى الأساس للرد على أصحاب الرأى فى العراق ولم يكن بذلك يؤسس مذهبا وإنما هو يدفع قول أهل الرأى الذى لا يستند على نص من القرآن أو من السنة الشريفة.

ثالثا: إن مذهب الإمام الشافعى الحقيقى هو ما أسسه فى مصر. يدل على ذلك ما صنفه من الكتب الجديدة ككتاب «الأم» وكتاب «اختلاف مالك» وكتاب «جماع العلم» وغيرها.

وكذا ما أعاد النظر فيه وأعاد تأليفه من الكتب التى كتبها بمكة أو بالعراق ككتاب «السالة» الذى أعاد تصنيفه فى مصر ومعروف أن موضوعه هو «أصول الفقه».

رابعا: إن كل ما ألفه الإمام الشافعى من كتب فى مكة أو فى العراق أو فى مصر هى كلها تمثل مذهبه ولا تدل على أنه كان له مذهبان. فتعديل بعض الآراء والرجوع عن بعضها فيما كتبه بمصر لا يسوغ لنا أن نعتقد أن له مذهبين. لأن هذا التعديل فى الآراء والرجوع عن بعض الأقوال منشؤها سعة الخبرة الناتجة عن كثرة التحصيل للعلم وكثرة المقابلة والتحدث مع العلماء الموافقين والمخالفين.

ومـذهب العـالم – دائـمـا – يكون فى آخـر مـا كـتب من المصنفـات وهو مـا مات عليه .

خامسا : لو صح النقل عن العالم رأيين فى مسألة واحدة فالرأى الأخير ناسخ للرأى الأول ومبطل له وإلا وصف هذا العالم بالتردد وعدم الجزم بالقول . وتلك نقطة ضعف تشين علم العالم وتقلل من شأنه، والإمام الشافعى لم يكن كذلك بشهادة فحول العلماء من الأئمة والمحققين له بحسن الفهم وسعة العلم والخبرة مما جعل الكثير من العلماء يتركون مذاهبهم وينضمون تحت لواءه .

لذا فنحن نؤمن ونقر فى ثبات أن الإمام الشافعى رضى الله عنه له مذهب فقهى واحد بينه وأكد عليه فى كتابه « الرسالة الجديدة » وكتاب « الأم » الذى صنفهما فى مصر وأملاهما عل تلاميذه وخاصة الربيع بن سليمان المرادى رحمه الله تعالى .

وهذا رأيى فى هذه القضية فأنا لا أقول قديم أو حديث ولكنى أقول « مذهب الإمام الشافعى » وأقول . إن مذهب الشافعى هو أوسع المذاهب فى موضوعه وأدقها فى تصنيفه وأكثرها التزاما بنص الكتاب ونصوص السنة الشريفة وأحسنها توظيفا للعقل واستخدامه فى التأكد من صحة النص ومعرفة دلالته وتقرير حكمه ومرونة تطبيقه وسعته وتوسعه فى الأخذ بما صح روايته من سنة رسول الله ﷺ متواترا أو آحادا فكان الإمام الشافعى جديرا بهذه الصفة « ناصر السنة » رضى الله عنه وأرضاه .

* * *

مواقف ومحن للشافعي رضى الله عنه

لقد واجه العلماء الأعلام الكثير من المحن والمواقف فتغلبوا عليها وقهروها مكنهم من ذلك إخلاصهم وعلمهم فتفضل عليهم ربنا عز وجل بالنصر والتأييد والهدى والثبات ولقد حظى الإمام الشافعى رضى الله عنه فى مسيرة حياته بمواقف ومحن لو ووجه بها غيره لقضى عليه. ولكنه كان يواجه ذلك كله بالثبات والصبر فكان – دائما – هو المنتصر لذلك شاع أمره وذاع صيته.

(١) الشافعى فى قيد من حديد

كان الشافعى رضى الله عنه فى بلاد اليمن فاتهمه أميرها بالتشيع لأبناء على كرم الله وجهه فحمل إلى بلاد العراق ليلا وكان فى رجليه حديد لأنه كان من أصحاب عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب – رضى الله عنهم – وكان ذلك ليلة الاثنين لعشر خلون من شعبان سنة أربع وثمانين ومائة. وفى ذلك الوقت كان أبو يوسف على قضاء القضاة ومحمد بن الحسن على المظالم. فدخلا على الرشيد.

فقال محمد بن الحسن «الحمد لله الذى مكنك فى البلاد وملكك رقاب العباد من كل باغ وعاد إلى يوم المعاد ولا زلت مسموعا ومطاعا فقد علت الدعوة ﴿ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ [التوبة: ٤٨] إن شر ذمة من أصحاب عبد الله بن الحسن اجتمعوا وفيهم واحد ينوب عن الكل يقال له: محمد بن إدريس الشافعى يزعم أنه بهذا الأمر أحق منك ويدعى من العلم ما لم تبلغه سنه ولا يشهد له بذلك قوله وله لسان ورواء ويستجليك بلسانه وأنا خائف على هذه الدولة منه كفاك الله مهماتك وأقال عثراتك».

ثم أمسك فقال الرشيد لأبى يوسف: يا يعقوب كيف الأمر؟ فقال أبو يوسف: محمد صادق فيما قال. ثم أمر بالشافعى فأدخل على الرشيد مقيدا ورمى القوم بأبصارهم إليه. فقال الشافعى: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال الرشيد: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته بدأت بسنة لم

تؤمر بإقامتها ورددنا بفريضة قامت بذاتها ومن العجب أنك تتكلم فى مجلس بغير إذنى وأمرى.

فقال الشافعى: إن الله تعالى قال: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي ﴾ [النور: ٥٥].

وهو الذى إذا وعد وفى فقد مكننى فى أرضه وأمننى بعد خوفى.

يا أمير المؤمنين: فقد حدثت أنك لا تقتل قومك صبرا ولا تمكر بهم إذا أقاموا لديك عذرا قال الرشيد: هو كذلك فما عذرك بعد ما ظهر أن صاحبك لما بغى علينا واتبعه الأرذلون كنت رئيسا لهم؟ فقال الشافعى: لما استنطقتنى فسأتكلم عن العدل والإنصاف لكن الكلام مع ثقل الحديد صعب. فإن جدت على بفكه من قدمى بركت على ركبتى كسيرة آبائى عند آبائك وأفصحت عن نفسى وإن كانت الأخرى فيدك العليا ويدى السفلى والله غنى حميد.

فقال الرشيد لغلامه: يا سراج خل عنه فاخذ ما فى قدميه من الحديد. فجثا الشافعى على ركبتيه وقال: يا أمير المؤمنين: والله لئن يحشرنى الله تحت راية عبد الله بن الحسن – وهو كما علمت وشيج قرابة لأبيك لا تنكر عند اختلاف الآراء – أحب إلى وإلى كل مسلم من أن يحشرنى الله تحت راية «قطرى بن الفجاءة» المازنى الخارجى.

وكان الرشيد متكئا فاستوى جالسا. وقال: صدقت وبررت لأن تكون تحت راية رجل من أهل بيت رسول الله ﷺ خير من أن تكون تحت راية رجل خارجى طغى وبغى لكن ما حجتك على أن قريشا كلهم أئمة وأنت منهم؟.

فقال الشافعى: قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦] حاشى لله أن أقول ذلك (لقد أفك المبلغ وفسق وأثم) إن لى يا أمير المؤمنين حرمة

الإسلام وذمة النسب وكفى بهما وسيلة وأحق من أخذ بأدب الله : ابن عم رسول الله ﷺ (الذاب عن دينه المحامى عن أمته) .

قال : فتهلل وجه هارون . ثم قال : ليفرج روعك . فإنا نراعى حق قرابتك وعلمك وأمره بالقعود . ثم قال : كيف علمك بكتاب الله تعالى؟ فإنه أولى الأشياء أن يبتدأ به؟ فقال الشافعى : (عن أى كتاب الله تسألنى فإن الله تعالى أنزل كتبا كثيرة على الأنبياء إن الله تعالى أنزل مائة وأربعة من الكتب أنزل على آدم خمسين صحيفة وعلى شيث عشرين وعلى إدريس عشرين وعلى ابراهيم عشرة وأنزل التوراة على موسى والزبور على داود والإنجيل على عيسى والقرآن على محمد ﷺ .

وجمع الله فى القرآن كل ما فى سائر الكتب، قال الله تعالى : ﴿ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩] وقال : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ [هود: ١] .

فقال الرشيد : أحسنت فى تفصيلك ولكنى ما سألت إلا عن كتاب الله المنزل على ابن عمى وعمك رسول الله ﷺ فقال الشافعى : إن علوم القرآن كثيرة تسألنى عن محكمه أو متشابهه؟ وعن تقديمه أو تأخيره؟ وعن ناسخه أو منسوخه؟ وعما ثبت حكمه وارتفعت تلاوته أو عما ثبت تلاوته وارتفع حكمه؟ أو عما ضربه الله مثلا؟ أو عما جعله الله اعتبارا؟ أو عن أخباره؟ أو عن أحكامه؟ أو عن مكيه أو مدنيه؟ أو ليليه أو نهاريه؟ أو سفريه أو حضريه؟ أو تنسيق وضعه أو تسوية سوره؟ أو نظائره؟ أو إعرابه أو وجوه قراءته؟ أو عدد حروفه؟ أو معانى لغاته؟ أو عدد آياته؟ .

قال : وما زال الشافعى يعدد هذه العلوم حتى عد ثلاثة وسبعين نوعا من أنواع علوم القرآن .

فقال هارون : لقد أوعيت من القرآن علما عظيما .

فقال الشافعى : المحنة على الرجل العالم كالنار على الذهب الإبريز .

ثم قال الرشيد : فكيف بصرك بسنة رسول الله ﷺ ؟

فقال الشافعي : إنى لأعرف منها ما خرج على وجه الإيجاب فلا يجوز تركه . وما خرج على وجه الحظر فلا يجوز فعله . وما خرج على وجه الخاص فلا يشاركه فيه غيره وما خرج على وجه العموم فيدخل فيه غيره وما خرج جوابا عن سؤال سائل فليس لغيره استعماله . وما خرج من النبى ﷺ ابتداء لا زدحام العلوم فى صدره وما فعله النبى ﷺ فيقتدى به غيره وما خص به الرسول ﷺ فلا يقتدى به غيره .

فقال الرشيد : أجدت الترتيب يا شافعى لسنة رسول الله ﷺ ووضعت كل قسم فى مكانه الخاص به .

فقال الشافعي : ﴿ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ .. ﴾ [يوسف : ٣٨] وإنما شرفنا برسول الله ﷺ وبك .

فقال الرشيد : فكيف بصرك بالعربية ؟ .

فقال الشافعي : هى ميداننا طباعنا بها تقدمت والسنتنا بها جرت . ولقد ولدت ما أعرف اللحن فكنت كمن سلم من الداء فلم يحتج إلى الدواء . والقرآن شهد لى بذلك قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ [ابراهيم : ٤] وأنت وأنا منهم فالعنصر رصيف والجرثومة منيفة أنت أصل ونحن فرع .

فقال الرشيد : صدقت – بارك الله فيك – فكيف معرفتك بالشعر ؟

قال الشافعي : إنى لأعرف الجاهلى والمخضرم والمحدث . وأعرف طويله وكامله وسريعه ومجتثه ومنسرحه وخفيفه وهزجه ورجزه وحكمته وغزله وما ذكروه فى الأمثال والمراثى . والمدائح والنسيب وأروى المشهور والشاذ وما نبه المكارم وما شحذ بصيرة الصارم فقال الرشيد : فكيف علمك بالأحكام ؟ .

قال الشافعي : فى العبادات أم فى المعاملات ؟ أم فى العتاق والمناكحات ؟ أم فى السير والمحاربات ؟ أم فى العقول والديات ؟ أم فى الأشربة والبياعات ؟ أم فى الأشربة والمطعومات ؟ .

قال الرشيد : فكيف علمك بالنجوم ؟ .

قال الشافعي : أعرف الفلك الدائر والنجم السائر، والقطب الثابت . والمائي والترابي والهوائي والناري . وما كانت العرب تسميه الأنواء ومنازل النيرين والرجوع والاستقامة والسعود والنحوس وهيئاتها وطبعائها وما اهتدى به في بر وبحر وما يستدل به على أوقات الصلوات وأحوال الفصول والأوقات .

قال الرشيد : فكيف علمك بالطب؟ .

قال الشافعي : أعرف ما قالت الروم مثل (أرسطاطا ليس) و(أبقراط) و(جالينوس) (وفرفريوس) و(انبذ قليس) بلغاتها . وما نقله أطباء العرب وفتقته فلاسفة الهند ونمقته علماء الفرس مثل : (جاماشب) و(شاهمر دو) و(بزرجمهر) .

قال الرشيد : فكيف علمك بالأنساب؟ قال الشافعي : يا أمير المؤمنين : ذلك علم لم يسعنا جهله في الجاهلية . مع تمحض الكفر وتغمض الحق ليكون عونا على التعارف ومعرفة الأكفاء وإني لأعرف جماهير الأقوام . وأنساب الكرام ومآثر الأيام وفيها نسبة أمير المؤمنين ونسبتي ومآثر آبائه وآبائي .

قال : وكان هارون الرشيد متكئا . فلما سمع من الشافعي هذه الكلمات استوى جالسا وقال : يا ابن إدريس لقد ملأت صدري . وعظمت في عيني فعظني موعظة أعرف بها مقدار علمك وكنه فهمك .

فقال الشافعي : على شريطة يا أمير المؤمنين قال : هي لك فما هي؟ .

قال : طرح الحشمة . ورفع الهيبة . وإلقاء رداء الكبرياء عن منكبيك . وقبول النصيحة وإعظام حق الموعظة والإصاخة لها وبشرط أن تقيس نفسك وتنشر سرك وتجعل نفسك بين يدي ربك مسكينا .

فقال الرشيد : قد فعلت مثل ما قلت، فعظ وأوجز .

فجلس الشافعي، وحسر عن ذراعيه وجثا على ركبتيه ثم أشار إليه وقال : إنه من أطال عنان الأمن في الغرة طوى عنان الحذر في المهلة ومن لم يعول على طرق النجاة كان بمنزلة قلة الاكتراث من الله مقيما وصار في أمنه مثل نسيج العنكبوت لا يأمن على نفسه ولا يضئ له ما أظلم عليه من أمسه، أما لو اعتبرت

بما سلف واستقبلت بالحسنى المؤتنف ونظرت ليومك وقدمت لغدك وقصرت أملك وصورت بين عينيك عملك واستقصرت مدة الدنيا وتوجهت إلى ما يصلح حالك فى العقبى لما امتدت إليك يد الندامة ولا ابتدرتك الحسرات غدا فى القيامة ولكن ضرب عليك رواق الحيرة فإذا بدت لك يد موعظة لم تكد تراها ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠].

قال: فبكى هارون الرشيد كثيرا وارتفع صوته فقال بعض الحاضرين: يا هذا أسكت فقد أبكيت أمير المؤمنين. فنظر الشافعى إليهم مغضبا. وقال: يا عبيد الرجعة وأعوان الظلمة. الذين باعوا أنفسهم بمحبوب الدنيا الفانية واشتروا عذاب الآخرة الباقية أما رأيتم من كان قبلكم كيف استدرجوا بالإملاء ورفهوا بتواتر النعماء ثم أخذوا ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٤٢] أما رأيتم كيف فضح مستورهم وأمطروا بواكد الهوان عليهم فأصبحوا بعد سكنى القصور والنعمة الحبور بين الجنادل والصخور وأفناء القبور عرضا للدثور. ومن وراء ذلك وقوف بين يدى الله تعالى ومساءلته عن الخطرة وما هو أخف من الذرة: حصائد النقم ومدارج المثلات ونهبة الخوف والروعات فكن لله فى اليوم كما تحب أن يكون الله لك فى الغد فإنه ما ولى أحد أمر عشرة إلا جاء يوم القيامة ويداه مغلولتان إلى عنقه لا يفكهما إلا عدله. وأنت أعرف بنفسك فعظم بكاء الرشيد ههنا ثم قال: فداك يا ابن إدريس. فقد سللت علينا لسانك وهو أمضى من سيفك.

فقال الشافعى: هو لك يا أمير المؤمنين إن قبلتَ لك لا عليك.

فقال الرشيد: كيف السبيل إلى الخلاص؟

فقال الشافعى: أن تتفقد حرم الله وحرم رسوله بالعمارة وتؤمن السبيل وتنظر فى أمر الأمة وتعطى أولاد المهاجرين والأنصار حقهم من الفئ لئلا تزعجهم الحاجة عن أوطانهم وتنظر فى العامة والثغور وتبذل العدل والنصفة وتتخذ أهل العلم والورع شعارا وتشاورهم فيما ينوب وتعصى أهل الريب. ومن يزين لك قطع ما أمر الله به أن يوصل.

قال الراوى: فنظرت إلى محمد بن الحسن وقد تغير لونه. قال الرشيد: ومن يطيق ذلك؟

قال: من تسمى باسمك وقعد مثل مقعدك.

قال الرشيد: قد أمرت بصلة فاقبلها.

فقال الشافعي: كلا والله لا يرانى الله وقد سودت وجه موعظتى بقبول الجزاء عليها ولقد عاهدت الله عهدا أن لا أخلى ملكا من الملوك يكون فى غفلة إلا ذكرته الله.

ثم نهض الشافعي: فلما خرج أقبل الرشيد على أبى يوسف ومحمد. وقال: ما رأيت كاليوم قط أبهذا تغريانى؟ لقد بؤتما اليوم بإثم عظيم.

ثم إن الشافعي دخل بعد ذلك على الرشيد فأمر له بألف دينار فقبلها فضحك الرشيد وقال: ما أفطنك قاتل الله عدوك.

فلما خرج الشافعي أمر الرشيد غلامه (سراجا) باتباعه حتى يرى ما يفعل الشافعي قال: فجعل الشافعي يفرق ذلك الذهب قبضة قبضة حتى انتهى إلى خارج الدار وما معه إلا قبضة واحدة فدفعها إلى ذلك الغلام وقال: انتفع بها.

فرجع الغلام إلى الرشيد وأخبره بما رأى. أ.هـ هذه الرواية أصح الروايات وادقها وروى الشيخ اسماعيل البوشنجي قال: (إن الشافعي دخل فى بعض الأيام على الرشيد فامتحنه أبو يوسف ومحمد بن الحسن - صاحبى أبى حنيفة - بمسائل أثبتاها فى درج ودفعا ذلك إليه فى ذلك المجلس فأجاب عنها بأسرها فى الحال وسألهما عن مسألتين فعجزا عن الجواب).

لقد سالاه الجواب عن ستة عشر سؤالا فأجاب عليها وسألهما سؤالين فعجزا عن الجواب وكان ذلك فى مجلس هارون الرشيد نذكر منها على سبيل المثال وليس للحصر ما يلى:

(٢) الإمام الشافعي يجيب

سأل محمد بن الحسن وأبو يوسف: يعقوب بن ابراهيم فقالا:

ما تقول فى رجلين خطبا امرأة فحلت لأحدهما. ولم تحل للآخر وليست بمحرم له؟

فقال الشافعي : إن أحد الرجلين كان له أربع نسوة فحرمت عليه الخامسة .

فقالا : ما تقول في رجلين شربا خمرا فوجب على أحدهما الحد ولم يجب على الآخر وكانا مسلمين؟

فقال الشافعي : إن أحدهما كان حرا بالغا فوجب عليه الحد . والآخر كان صبيا لم يبلغ الحلم .

قالا : فما تقول في خمسة زنوا فوجب على أحدهم القتل . وعلى الآخر الرجم وعلى الثالث الحد . وعلى الرابع نصف الحد . والخامس لم يجب عليه شئ .

فقال الشافعي : أما الأول : فمشرك زنى بمسلمة . فوجب عليه القتل . وأما الثاني : فمحصن زنى فوجب عليه الرجم . وأما الثالث . فبكرزنى فوجب عليه الحد . وأما الرابع : فمملوك زنى فوجب عليه نصف الحد . وأما الخامس : فصبي أو مجنون .

قالا : فما تقول في جماعة صلحاء سجدوا لغير الله تعالى وهم في فعلهم مطيعون؟

قال الشافعي : إنهم الملائكة سجدوا لآدم عليه السلام .

قالا : رجل ذبح شاة في منزله . ثم خرج لحاجة وعاد . فقال لأهله كلوا أنتم الشاة فقد حرمت عليّ، فقال أهله ونحن أيضا حرمت علينا .

فقال الشافعي : هذا الرجل كان مشركا فذبح الشاة على اسم الأنصاب وخرج من منزلة لبعض المهمات فهداه الله تعالى وأسلم ثم عاد وقال لأهله : إن الله قد رزقني الإسلام وإن هذه الذبيحة حرمت عليّ فكلوها أنتم فلما سمع قومه ذلك فرحوا بإسلامه وأسلموا فحرمت الذبيحة عليهم أيضا .

وسألاه عن رجل قال لولده : إن مت فلك ألفا درهم ولوكنت ابن ابني كان لك عشرة آلاف درهم .

أجاب : إن الرجل كان يملك ثلاثين ألف درهم وكانت له ثمانية وعشرون بنتا فحصة كل بنت ألف دهم . وحصة الابن ألفان .

ولو كان ابن ابن كان للبنات الثلثان والباقى له . وهو : عشرة آلاف درهم وسألاه عن امرأة ادعت : أن زوجها ما قاربها منذ تزوج بها وأنها بكر كما خلقت أجاب : يدعى يقابله فتؤمر أن تحمل بيضة فإن غابت البيضة فقد كذبت وإن لم تغب فقد صدقت .

وسألاه : عن رجل دفع إلى امرأته كيسا ملآنا مربوطا مختوما وقال لها : أنت طالق إن فتحتيه أو فتقتيه أو كسرت ختمه أوخر قتيه وأنت طالق إن لم تفرغيه وتعطينى الكيس مربوطا مختوما فأجاب : إن الكيس كان مملوءا من السكر أو الملح فوضعته المرأة فى الماء حتى يذوب ثم دفعت الكيس إليه فارغا ولما أجاب الإمام الشافعى رضى الله عنه على هذه المسائل وغيرها عجب الرشيد من علم الشافعى ومن قوة خاطره ومن جودة فهمه وقال : لله درب بنى عبد مناف لقد بينت وفسرت وأحسنت وأبلغت وما تلعثمت .

(٣) الإمام الشافعى ليسأل :

قال الشافعى للرشيد . إنى لسائلهما عن مسألتين موجزتين لا أطيل عليهما فإن أجابا فلله الحمد – وذلك ظنى بهما – وإن لم يجيبا فإنى أسأل أمير المؤمنين أن يكف عنى شرهما ثم قال لأبى يوسف : ما يقول القاضى فى رجل مات وخلف ستمائة درهم . وفى جملة ورثته أخت لم يكن نصيبها إلا درهم واحد . فكيف تفرض هذه المسألة ؟ .

ثم قال لمحمد بن الحسن ما يقول الشيخ فى رجل تزوج بامرأة وتزوج ابنه بأمها فجاءت كل واحدة منهما بابن ما يكون هذا من ذاك وذاك من هذا ؟ .

قال : فاطرقا وطال فكرهما وما أجابا . . . فقال الرشيد : فسرهما فمالهما غيرك قال الشافعى : أما المسألة الأولى فقد بلغنى أن امرأة جاءت إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب – رضى الله عنه – وقد وضع رجله فى ركاب البغلة فقالت : يا

أمير المؤمنين قد توفى أخى وخلف ستمائة درهم فدفعت إلى منهما درهما واحدا فكيف فرضت هذه الفريضة. وأنت انت؟

فقال على: فرضتها بحكم الله تعالى: مات أخوك وخلف ستمائة درهم وخلف بنتين ولهما الثلثان أربعمائة درهم. وأما ولها السدس مائة درهم. وزوجة ولها الثمن خمسة وسبعون درهما. وخلف من الإخوة إثنا عشر أخذوا أربعة وعشرين درهما درهمين درهمين فلم يبق لك من الستمائة إلا درهم واحد فهذا حكم الله فى هذه المسألة.

فتبسم الرشيد. وقال: صدق أبو الحسن ووفق ولم يزل موفقا.

قال الشافعى: وأما المسألة الثانية. فجوابها: أن ابن الأم خال ابن البنت وابن البنت عم ابن الأم.

فأقبل الرشيد على أبى يوسف ومحمد وقال: اتركاه فإنكما لن توازياه ولن تعادلاه والله تعالى قد أثبت له حق القرابة من رسول الله ﷺ وحق الشرف وحق القرآن وحق العلم فاتركاه وإلا فانا خصمكما.

فقالا: نعوذ بالله من ذلك. فإن أمير المؤمنين هو المطاع فى جميع أحكامه.

ثم أمر للشافعى بألف دينار فخرج وفرق الكل على الحاشية والخدم فأخبر الرشيد بذلك فقال: ألا إن بنى المطلب ما فارقوا رسول الله ﷺ فى شرف ولا فى سخاوة. والله الموفق.

(٤) الإمام الشافعى يناظر ابن الحسن:

ذكروا: أن الشافعى لما أحضر مع العلويين من اليمن وأحضر باب الرشيد. اتفق أن كان ذلك فى وهن الليل وكانوا يدخلون عشرة عشرة منهم إلى الرشيد فجعل يقيم واحدا واحدا منهم ويتكلم معه من داخل الستر ويأمر بضرب عنقه.

قال الشافعى: فلما انتهى الأمر إلى قلت: يا أمير المؤمنين عبدك وخادمك محمد بن إدريس فقال: يا غلام اضرب عنقه فقلت: يا أمير المؤمنين كأنك

اتهمتنى بالإنحراف عنك والميل إلى العلويين وسأضرب لك مثلا فى هذا المعنى : ما تقول يا أمير المؤمنين فى رجل له ابنا عم . أحدهما خلطه بنفسه وأشركه فى نسبه وزعم أنه ماله حرام عليه إلا بإذنه . وأن ابنته حرام عليه إلا بتزويجه والآخر زعم أنه دونه بل كالعبد له فهذا الرجل إلى أيهما يميل؟ فهذا مثلك يا أمير المؤمنين ومثل هؤلاء العلويين.

قال : فاستعاد الرشيد هذا القول ثلاث مرات وكنت أعبر عن هذا المعنى بألفاظ مختلفة فقال الرشيد : احبسوه فحبسونى فى دار العامة فضاق قلبى فى الحبس فنظرت فما رأيت أحدا أستأنس به إلا محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة رضى الله عنه – وكنت أميل إليه للفقه وأؤمل أن يشفع لى عند السلطان فحضر يوما واقبل يذم المدينة ويضع من أهلها ويعظم من أصحاب نفسه ويرفع من اقدارهم وذكر أنه وضع على أهل المدينة كتابا وزعم أنه لو عرف أن أحدا من أهل الدنيا ممن بمكة يمكنه أن ينقض منها حرفا لذهب إليه وناظره .

قال الشافعى : فرأيت وجوه أولاد المهاجين والأنصار اسودت مما سمعوه من ذم المدينة وأهلها . ورأيت وجوه أصحاب محمد بن الحسن أشرقت عند سماع تلك الكلمات .

قال : فبقيت أتردد أن أجيبه عن كلامه وأبيض وجوه أولاد المهاجرين والأنصار ويزداد غضب السلطان علىَّ وبين أن أسكت رجاءَ أن يصير محمد بن الحسن شفيعا لى عند السلطان .

ثم اخترت رضَى الله تعالى فى ذلك وقلت : يا أبا عبد الله أراك تهجو المدينة وتذم أهلها . فإن كنت أردتها فإنها حرم رسول الله ﷺ ودار هجرته بها نزل الوحى وفيها دفن رسول الله ﷺ وبها قبره سماها رسول الله ﷺ « طابة » وذكر أن فيها روضة من رياض الجنة .

وإن كنت أردت أهلها فهم أصحاب رسول الله ﷺ وأحبابه وأنصاره وأصهاره الذين مهدوا الإيمان وحفظوا الوحى وجمعوا السنن .

وإن كنت أردت من بعدهم فهم التابعون والعلماء فى هذه الأمة .

وإن كنت أردت من القوم رجلا واحدا وهو « مالك بن أنس » فما عليك لو سميت من أردت ولم تذكر المدينة وأهلها.

قال: ما أردت إلا « مالك بن أنس » وأردت فساد قوله في القضاء بالشاهد واليمين فإن ذلك على خلاف قوله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]

قال الشافعي: فقلت: قد قرأت كتابك الذى وضعته عليهم فوجدت ما بين قولك « بسم الله الرحمن الرحيم » وقولك « وصلى الله على محمد وآله الطيبين » كله خطأ وذلك لأنك قلت فى رجلين تداعيا جدارا ولا بينة لهما. إن الجدار لمن يليه أنصاف اللبن وقلت فى متاع البيت يدعيه الزوجان ما كان يصلح للرجال فهو للرجل وما كان يصلح للنساء فهو للمرأة. وقلت فى رجل يجحد ولدا جاءت به امرأته ويقول: لم تلديه ولكن استعرتيه إنه تقبل شهادة القابلة وقلت فى الرفوف إذا ادعاها صاحب الحانوت وساكنه إن كانت منفصلة غير مسمرة فهى للساكن وإن كانت متصلة مسمرة فهى لرب الحانوت. فقضيت للمدعى فى هذه الصورة بغير بينة ولا يمين ثم أنكرت علينا الشاهد واليمين. وهو سنة رسول الله ﷺ وقول على بن أبى طالب رضى الله عنه.

فلما سمع محمد بن الحسن هذه الكلمات من الشافعى اصفر وجهه وسكت.

قال الشافعي: فعارضنى رجل من أصحابه فى ذلك المجلس. فقال: ما تقول فى رجل دخل منزل رجل فرأى بطة فرماها. ففقأ عينها ماذا يجب عليه؟.

قلت: ينظر إلى قيمتها وهى صحيحة وإلى قيمتها وقد ذهبت عينها فيغرم ما بين القيمتين لكن ما تقول أنت وصاحبك فى مُحرم نظر إلى فرج امرأة فانزل ولم يكن لمحمد بن الحسن حذاقة بالمناسك. قال: فصاح به محمد بن الحسن. وقال: ألم أقل لك لا تسأله.

وروى أن لما وصل خبر هذه المناظرة إلى الرشيد. قال: أما علم محمد بن الحسن أن رسول الله ﷺ قال: «إن عقل الرجل من قريش عقل الرجلين من غير قريش» ثم أرسل إليه بأنه قد رضى عنه.

وسأله أن يوليه على قضاء اليمين.

فقال الشافعى: لا حاجة له فيه ولكن حاجتى أن أعطى من سهم ذوى القربى بمصر.

فقبل الرشيد ذلك. وقال «أكثر الله فى أهلى مثلك».

(٥) دعـــاء:

روى أن الشافعى رضى الله عنه لما دخل على هارون الرشيد، وكان خائفا منه.

قرأ أولا: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾.

ثم قال: وأنا أشهد بما شهد الله به واستودع الله هذه الشهادة. وهذه الشهادة وديعة لى عند الله تعالى يردها إلى يوم القيامة.

اللهم إنى أعوذ بنور قدسك. وعظمة طهارتك وبركة جلالك عن كل سوء وآفة وعاهة. ومن طوارق الليل والنهار. ومن طوارق الجن والإنس إلا طارقا يطرق بخير اللهم أنت غياثى فبك أستغيث، وأنت عياذى فبك أعوذ وأنت ملاذى فبك ألوذ يا من ذلت له رقاب الجبابرة. وخشعت له أعناق الفراعنة. أعوذ بك من خزيك وعن كشف سترك. ومن نسيان ذكرك والانصراف عن شكرك أنا فى حرزك وكنفك وكلئك فى ليلى ونهارى ونومى وقرارى. وظعنى وأسفارى وحياتى ومماتى ذكرك شعارى وثناؤك دثارى لا إله إلا أنت سبحانك ونحمدك. تشريعا لعظمتك وتكريما وتنزيها لسبحات وجهك أجرنى من خزيك ومن عقابك ومن شر عبادك واضرب على سرادقات حفظك وقنى سيئات عذابك. وأدخلنى فى حفظ عنايتك. وجد على بخير يا أرحم الراحمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم والصلاة على النبى المصطفى محمد وآله وصحبه وسلم كثيرا.

يقول الفخر الرازى: (ومن الناس من روى هذا الدعاء عن رسول الله ﷺ ولكن الإسناذ ضعيفٌ والله تعالى أعلم).

استنباطات الشافعي

كان الإمام الشافعي رضى الله عنه على درجة كبيرة فى تحصيل العلم وحسن الفهم وقوة الإدراك كما كان ذا مقدرة عالية فى الاستنباط من كتاب الله تعالى وسنة الرسول ﷺ وتلك ميزة تميز بها الفقه الشافعي عن غيره. مما أكسبه ذيوعا وانتشارا فى العالم الإسلامى وسنورد بعضا من لطائف استنباطاته كنماذج تبين لنا عن عبقرية الإمام وخصوبة ما حصله من العلوم والمعارف ومقدرته الفائقة فى الاستنتاج والاستدلال لرجاحة عقله وقوة ذكائه وفطنته وتلك هى النماذج:

١ – فى مجلس الإمام مالك رضى الله عنه.

روى محمد بن جرير الطبرى – صاحب التفسير – عن الربيع قال:

كان الشافعي جالسا يوما من الأيام بين يدى مالك بن أنس فجاء رجل إلى مالك: فقال: يا أبا عبد الله: إنى رجل أبيع القمرى. وإنى بعت يومى هذا قمريا – طائر – فبعد زمان أتانى صاحب القمرى. فقال: إن قمريك لا يصيح فتشاجرنا إلى أن حلفت بالطلاق على أن قمرى ما يهدأ من الصياح. قال مالك: طلقت امرأتك فانصرف الرجل حزينا.

فقام الشافعي إليه. وهو يومئذ ابن أربع عشرة سنة. وقال للسائل: أصياح قمريك أكثر أم سكوته؟ قال السائل: بل صياحه أكثر.

فقال الشافعي: امض فإن زوجتك ما طلقت .. ثم رجع الشافعي إلى الحلقة فعاد السائل إلى مالك وقال: يا أبا عبد الله تفكر فى واقعتى لتستحق ثواب الجواب.

فقال مالك: الجواب ما تقدم. قال: فإن عندك من قال لى: إن الطلاق غير واقع.

فقال مالك. من هو؟ فقال السائل: هو هذا الغلام .. وأومأ إلى الشافعي. فغضب عليه مالك. وقال: من أين لك هذا الجواب؟.

فقال الشافعي: لأني سألته. أصياحه أكثر أم سكوته؟ فقال: إن صياحه أكثر.

فقال مالك: وهذا الدليل أقبح. وأي تأثير لكثرة صياحه وقلة سكوته في هذا الباب؟.

فقال الشافعي: لأنك حدثتني عن عبد الله بن يزيد عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن فاطمة بنت قيس: أنها أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله. إن أباجهم ومعاوية خطباني فأيهما أتزوج؟ فقال النبي ﷺ: (أما معاوية فصعلوك وأما أبو جهم فرجل لا يضع عصاه عن عاتقه) [1] وقد علم رسول الله ﷺ أن أباجهم كان يأكل وينام ويستريح فعلمنا أن النبي ﷺ عنى بقوله (لا يضع عصاه عن عاتقه) على تفسير: أن الأغلب من أحواله ذلك. قلت: فكذا ههنا. حملت قوله: هذا القمري لا يهدأ عن الصياح على أن الأغلب من أحواله ذلك.. قال: فلما سمع مالك ذلك. تعجب من الشافعي ولم يقدح في قوله البتة [2]. وفي رواية نور الأبصار بزيادة وقال له: (يا شافعي أفت فقد آن لك أن تفتي).

٢ – وروى البيهقي في مناقب الشافعي [3]: قال: حضر الشافعي في مجلس ابن عيينة فروى ابن عيينة عن الزهري عن علي بن الحسين رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ مر به رجل في بعض الليل. وهو مع امرأته «صفية» فدعا الرجل وقال له: «هذه امرأتي صفية» فقال الرجل «سبحان الله يا رسول الله» فقال النبي ﷺ: (إن الشيطان يجري في الإنسان مجرى الدم) [4].

ثم قال ابن عيينة للشافعي: ما فقه هذا الحديث؟.

فقال الشافعي: إن كان القوم اتهموا النبي ﷺ فقد كفروا لكنه عليه السلام أدب من بعده وقال: إذا كنتم هكذا فافعلوا هكذا حتى لا يظن بكم ظن السوء.

---

(١) رواه مالك في الموطأ ٢/ ٥٨٠ رواه الشافعي في كتاب الرسالة ٣٠٩.

(٢) مناقب الإمام الشافعي للرازي: ٣٠٢، ٣٣ ومناقب الشافعي للبيهقي: ٢/ ٢٣٩.

(٣) المناقب ١/ ٣٠٩، ٣١٠.

(٤) صحيح مسلم ٤/ ١٧١٢.

فقال ابن عيينة : جزاك الله خيرا يا أبا عبد الله ما نرى منك إلا ما نحب .

وروى الفخر الرازى رحمه الله تعالى : كان الشافعى يقول بمكة سلونى عما شئتم أخبركم عنه من كتاب الله تعالى . فقيل له : ما تقول فى المُحرم يقتل الزنبور ؟ .

فقال : بسم الله الرحمن الرحيم . قال الله تعالى : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعى بن حراش عن حذيفة بن اليمان عن النبى ﷺ أنه قال : (اقتدوا باللذين من بعدى : أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما -) وحدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر بن كرام عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) أنه أمر المحرم بقتل الزنبور .

٣ - وروى البيهقى والرازى [١] قالا : دخل أحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه ويحيى بن معين مكة وأرادوا عبد الرزاق فدخلوا المسجد الحرام فرأوا رجلا شابا على كراسى وحوله الناس وهو يقول : يا أهل الشام ويا أهل العراق . سلونى عن سنن رسول الله ﷺ قال إسحاق بن راهويه . فقلت لبعض الناس، من هذا الجالس ؟ .

قالوا : إنه الشافعى المطلبى . قال إسحاق فقلت لأحمد بن حنبل : تعال حتى نذهب إليه فلما ذهبنا إليه قلت لأحمد بن حنبل يا أبا عبد الله سله عن قوله ﷺ (أمكنوا الطيور فى أوكارها) [٢] .

قال أحمد : تفسير هذا معلوم . ومعناه : دعوا الطيور فى ظلمة الليل فى أوكارها فقال إسحاق لأحمد والله لأسألنه : يا مطلبى ما تفسير هذا الحديث ؟ .

فقال الشافعى : كان أهل مكة فى الجاهلية إذا أرادوا سفرا عمدوا إلى طير فسرحوها فإن أخذت يميناً استحسنوا ذلك الفال . وإن أخذت شمالا أورجعت

---

(١) البيهقى ١ / ٣٦٢ والرازى ٣٠٣، ٣٠٤ .

(٢) سنن أبى داد ٣ / ١٣٨ .

إلى الخلف تطيروا ورجعوا فلما بعث النبى ﷺ نهى عن ذلك فقال : (أمكنوا الطيور فى أوكارها وبكروا على اسم الله تعالى) .

فقال إسحاق لأحمد : يا أبا عبد الله . لو لم نرحل من العراق إلى الحجاز إلا لطلب تفسير هذا الحديث لكانت لنا غنيمة . فقال أحمد : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦] .

٤ – روى البيهقى [1] قال : كان حفص الفرد ينكر أخبار الآحاد . فقال للشافعى : يا أبا عبد الله . تقولون : لم يرو عن النبى ﷺ حديث إلا وفيه فائدة فأى فائدة فيما روى عنه ﷺ أنه أتى سباطة قوم فبال قائما (رواه فى السنن الكبرى ١ / ١٠١) .

فقال الشافعى : بل فيه أعظم الفوائد ، أما تعلم أن العرب تقول : إذا كان بالرجل وجع الظهر كان البول قائما شفاء منه . وإنما فعل النبى ﷺ هذا لهذا السبب .

٥ – وروى الرازى [2] قال : سألوا الشافعى : هل الصبر على المحنة أفضل . أم الشكر على النعمة؟ فقال : إنه إذا امتحن فصبر . ثم مكن من النعمة . كان ذلك أفضل لأن التمكين درجة الأنبياء ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة . ألا ترى أنه تعالى أمتحن ابراهيم عليه السلام ثم مكنه . وامتحن موسى عليه السلام صغيرا ثم مكنه وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكنه . قال الله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ [ص : ٤٣] .

وامتحن سليمان عليه السلام . ثم مكنه وأعطاه ملكا لا ينبغى لأحد من بعده .

* * *

(١) مناقب الشافعى ١ / ٣٢٤ .

(٢) مناقب الإمام الشافعى ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

توثيق الشافعى

إن الإمام الشافعى رضى الله عنه لم ينازع أحد من أئمة وعلماء أهل السنة فى إمامته ولم يكن أحدهم مجاملا له. أو يتملقه لغرض فقد أجمع على إمامته الموافقون والمخالفون وقد تناوله النقاد جرحا وتعديلا كغيره من الرواة فكل من تناوله من النقاد وثقه، نقل الحافظ ابن حجر عن الحاكم قوله: (تتبعنا التواريخ وسواد الحاكيات عن يحيى بن معين فلم نجد فى واية واحد منهم طعنا على الشافعى. ولعل من حكى عنه غير ذلك قليل المبالاة بالوضع على يحيى. والله أعلم) [1]... إن يحيى بن معين رحمه الله تعالى وثق الشافعى رضى الله عنه، لقد بهر الشافعى الناس بسعة علمه ورجاحة عقله وقوة حجته. وحسن منطقه وطلاقة لسانه، يناظر مخالفه فى أدب جم. ويناقش فى سرعة بديهة. وكان قبل ذلك وبعد ذلك أعلاهم نسبا وأشرفهم حسبا فهو المطلبى القرشى من أبناء عمومة الرسول ﷺ فهو من علماء بيت النبوة سخى فى كرم ومتواضع فى حياء وعالم معلم فى أدب لقد سبق عقله عمره.

شهد له الأئمة والعلماء: مسلم بن خالد الزنجى وسفيان بن عيينة واسماعيل ابن قسطنطين ومالك بن أنس ومحمد بن الحسن ووكيع بن الجراح وأشهب بن عبد العزيز وأحمد بن حنبل ووثقه يحيى بن معين والنسائى والبخارى ومسلم وأبو حاتم وأبى زرعة وقتيبة بن سعيد والحاكم والطبرى وابن راهويه.

قال النسائى: (كان الشافعى عندنا أحد العلماء ثقة مامونا).

ودافع الإمام مسلم فى كتابه «الانتفاع بأهب السباع» عن الشافعى دفاعا لا مثيل له وبين مكانته وعلو منزلته بين المحدثين كما ذكر الحافظ ابن حجر فى تهذيب التهذيب.

وقال ابن حجر فى توالى التأسيس: (قال الإمام أحمد: ما من احد وضع الكتب منذ ظهرت أتبع للسنة من الشافعى).

---

(١) تهذيب التهذيب ٩ / ٣٠.

وروى البيهقى فى المناقب قال: قال يونس بن عبد الأعلى فى وصفه: كان من أعقل الناس. وكان لا يأخذ فى شئ إلا نقول: هذه صناعته إذا أخذ فى الشعر والعربية نقول هذه صناعته.

وروى أيضا: أن أبا يوسف أرسل إليه يقول: (صنف الكتب فإنك أولى من صنف فى زمانك).

وروى أيضا: ذهب جماعة إلى أن الشافعى: اشتغل بعلم الطب مستدلين بقوله: (علم الفقه للأديان. وعلم الطب للأبدان وما سوى ذلك فبلغه مجلس وقوله الوراق إنما يأكل من دية عينه).

وقال الجاحظ: (لم أر أحسن تاليفا من المطلبى، كان فوه ينظم دراً إلى در وقال إسحاق بن راهويه: (عجل الله له عقله لقلة عمره).

وقال الإمام أحمد بن حنبل: (ما رأيت أحدا أفقه فى كتاب الله من هذا الفتى القرشى) وسأله ابنه أى شخص كان الشافعى يا أبت؟.

فقال: (كان الشافعى كالشمس للدنيا وكالعافية للناس).

وقال محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة: (كان أصحاب الحديث رقودا حتى أيقظهم الشافعى رضى الله عنه).

وقال قتيبة بن سعيد: (مات الشافعى وماتت السنن).

وقال أبو زرعة: صدق أحمد بن حنبل. ما أعلم أحدا أعظم منة على الإسلام فى زمن الشافعى من الشافعى. ولا أحدا ذب عن سنن رسول الله ﷺ مثل ما ذب الشافعى) وقال الحميدى: (حدثنا سيد الفقهاء. الشافعى).

وقال الإمام أحمد: (كان الفقه قفلا على أهله حتى فتحه الله بالشافعى).

وقال الحميدى: (صحبت الشافعى من مكة إلى مصر فكنت أستفيد منه المسائل وكان يستفيد منى الحديث).. فقد كان يأخذ ما عنده من الحديث لا لجهله به ولكن لزيادة تحصيله، روى البيهقى قال: قال الربيع

المرادى (فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه عن تفسيره ومعانيه) .

وقال داود بن على الظاهرى تلميذ الشافعى : (وجمع للشافعى رحمه الله من الفضائل معرفته بصحة الحديث وسقمه) .

وروى ابن عساكر فى تاريخه بسنده إلى هلال بن العلاء قوله : (الشافعى أصحاب الحديث عيال عليه فتح لهم الأقفال) .

وروى البيهقى فى المناقب عن يحيى بن معين قال : سمعت يحيى بن سعيد يقول : (أنا أدعو الله للشافعى فى صلاتى منذ أربعين سنة) .

وروى أيضا : أن الشافعى لما ألف كتاب «الرسالة» وبعث به إلى الإمام عبد الرحمن بن مهدى قال عبد الرحمن : ما أصلى صلاة إلا وأدعو للشافعى فيها .

وعلق عبد الرحمن بن مهدى على كتاب الرسالة بقوله (هذا كلام رجل فهم) .

وروى البيهقى أيضا : عن عمرو بن العباس قال : قلت لعبد الرحمن بن مهدى : إن الشافعى لا يورث من المرتد . فقال عبد الرحمن : إن الشافعى شاب مفهم . لأن النبى ﷺ قال : «لا يتوارث أهل ملتين» أخرجه ابن ماجة فى سننه وقال الربيع بن سليمان : سمعت أيوب بن سويد يقول : (ما ظننت أنى أعيش حتى أرى مثل الشافعى) .

وقال على بن المدينى – من علماء الجرح والتعديل – : (الشافعى أحد أئمة أهل العلم بالحديث) .

وقال ابنه محمد قال لى أبى : (لا تترك للشافعى حرفا واحدا إلا كتبته فإن فيه معرفة) .

وقال قتيبة بن سعيد : (مات الثورى ومات الورع ومات الشافعى وماتت السنن ويموت أحمد بن حنبل وتظهر البدع) .

وروى البيهقى أن الزعفرانى قال :

(ما حمل أحد محبرة إلا وللشافعى عليه منة) .

وقال أيضا : (ما رأيت الشافعى لحن قط . وكان يُقرأ عليه من كل الشعر فيعرفه) .

وقال على بن معبد المصرى : (ما عرفنا الحديث حقا حتى جاءنا الشافعى رضى الله عنه) .

وبعد : فهذا قليل من كثير من شهادات الأئمة والعلماء للإمام الشافعى وتوثيقهم له واعترافهم بفضله وسعة علمه وأثره الكبير فى العلوم الشرعية وفنون الأدب واللغة والطب والفلك . فجزاه الله عما قدم للأمة من جهد خير الجزاء [1] .

* * *

(١) أنظر مناقب الشافعى للبيهقى والرازى ونور الابصار ومقدمة بيان خطأ من أخطأ على الشافعى .

الفصل الخامس
علم الشافعى باللغة وآدابها

اللغة العربية هى لغة القرآن الكريم. ولقد حافظ عليها المتكلمون بها قديما وحديثا وهى لغة ثرية تجدد نفسها بنفسها ولقد أثراها القرآن الكريم وأضاف إليها ما جددها وما خلصها من بعض اللكنات الشاذة وجدد فى ألفاظها فمحا منها ما كان غريبا على اللسان العربى وعلى العرف والتقاليد والآداب. وهذا هو سر خلودها وبقائها.

ولقد أبرز الله من بين علماء الأمة من قاموا بتدوينها ووضع أصولها وقواعدها وبيان علومها وآدابها ولكل فرع من فروعها علماؤه وطلابه بعد أن كانت تؤخذ بالسماع فى جاهليتها وبعد ظهور الإسلام ونزول القرآن تكونت اللغة مما يلى:

- النحو.
- الصرف.
- البلاغة.
- الأدب والنقد.
- فقه اللغة.
- متن اللغة.

وقد أنشئت المدارس والمعاهد على مدى تاريخ الإسلام التى تقوم بتعليم اللغة وآدابها. وصنفت الكتب المتعددة فى علوم اللغة وآدابها.

وما زالت اللغة العربية فى حيويتها وعظمتها بتراثها الضخم فى بلاد المسلمين. مما جعل الغرب والشرق يوافقون على اعتبارها لغة تخاطب عالمية فى الأمم المتحدة أعلم: أن المتقدمين من أئمة اللغة والمتأخرين منهم. أعترفوا للشافعى بالتقدم فى علم اللغة وأقروا له بكمال الفصاحة.

نقل عن الأصمعي أنه قال: قرأت ديوان الهذليين على شاب من شباب قريش يقال له: محمد بن إدريس الشافعي - رضى الله عنه -.

وحكى ابن دريد عن أبى حاتم السجستانى عن الأصمعي أنه قال: قرأت شعر الشنفرى على محمد بن إدريس الشافعي - رضى الله عنه -.

وحكى المبرد عن المازنى أنه كان يقول: قول محمد بن إدريس الشافعي - رضى الله عنه - حجة فى اللغة.

وكان الجاحظ يقول: نظرت فى كتب هؤلاء النابغة. الذين نبغوا فى العلم فلم أر أحسن تأليفا من المطلبى - الشافعي - كأن لسانه ينظم الدر.

وروى غلام ثعلب قال: سمعت أبا العباس: ثعلبا يقول: العجب أن بعض الناس يأخذون اللغة على الشافعي وهو من بيت اللغة فالشافعي يجب أن تؤخذ منه اللغة لا أن تؤخذ عليه اللغة (١).

قال الفخر الرازى رحمه الله تعالى: مما يدل على قوة الشافعي فى علم اللغة: أن الإمام أبا منصور الأزهرى - ولا شك أنه كان من عظماء العلماء فى علوم العربية - قد اعترف للشافعي رضى الله عنه بالكمال والتمام فى هذا العلم. وصنف كتابا فى شرح مشكلات ألفاظه وذكر فى صدر ذلك الكتاب ثناء عظيما ومدحا عاليا للشافعي.

وأما الإمام أبو سليمان الخطابى. فإنه كان فى النهاية القصوى فى علم اللغة وفى الحديث. وهو كان من أصحاب الشافعي ومن المعترفين بتقدمه فى علم العربية.

وأجمع أهل خراسان على أنه ما كان بخراسان أبرع فى اللغة والنحو من أبى الحسن على بن القاسم الخوافى صاحب كتاب «مختصر العين فى اللغة والنحو» وهو كان قد افتخر فى أشعاره بالشافعي فقال:

تلقيت دينى عن قريش وهاشم ... ومن بيته كان الحطيم وزمزما

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقى والرازى.

ففزت بدين الهاشمي محمد وبالعروة الوثقى التى لن تفصما
أدين بدين الشافعي وهديه وأبرأ إلى الرحمن ممن تهجما

وأما أبو عبد الله : ابراهيم بن محمد بن عرفه النحوى الأزدى : نفطويه فله كتاب معروف فى مناقب الشافعي يذكر فيه ألفاظه الفصيحة .

وأما أبو القاسم : محمود بن عمر الزمخشرى (صاحب الكشاف فى التفسير) ولا نزاع أنه كان فى درجة عالية وأبهة عظيمة فى علم العربية – ولا نزاع أنه كان فى درجة عالية وأبهة عظيمة فى علم العربية – فإنه اعترف فى « الكشاف » للشافعي بالتقدم فى علم العربية .

ثم قال : وكان محمد ابن بنت الشافعي يقول :

أقام الشافعي على تعلم العربية وأيام الناس عشرين سنة . وقال : ما به إلا الاستعانة على الفقه .

وكان الشافعي يقول : أصحاب العربية جن الإنس . يبصرون مالا يبصره غيرهم .

وكان أحمد بن حنبل يقول : « الشافعي فيلسوف فى أربعة أشياء : فى اللغة وأيام الناس والمعانى والفقه » .

وقال أيضا الرازى : واعلم أنه نقل عن الشافعي أنهم سألوه عن بعض المسائل بألفاظ غريبة فأجاب عنها فى الحال [1] .أ. هـ .

لقد شهد له علماء اللغة والدين بعلمه بعلوم العربية وتفوقه فيها على أقرانه ويرجع ذلك إلى سببين رئيسيين هما :

أولا : كونه مطلبى قرشى وبلغة قومه نزل القرآن الكريم .

وثانيا : لقد دفعت به أمه رحمها الله تعالى إلى البادية ليحفظ اللغة ويحافظ عليها فيقوى لسانه ويجمع أشعار البادية ويحفظها . وقد كان له ما أرادت أمه رضى الله عنها . فحفظ شعر هذيل وغيرها .

---

(١) مناقب الإمام الشافعي للرازى بتصرف ص ٢١٥ – ٢٣٩ .

يقول الإمام الشافعي رضى الله عنه :

ولولا أن الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد
وأشجع فى الوغى من كل ليث وآل مهلب وآل يزيد
ولولا خشية الرحمن ربى جعلت الناس كلهم عبيدى

● **نماذج من شعره ونثره :**

روى البخارى عن أبى بن كعب رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة) .

إن نظم الشعر وإنشاءه لا بأس به شريطة أن لا يتعارض مع مبادئ الدين وقيمه وأن لا يكون قبيحا فحسنه حسن وقبيحه قبيح لذا روى أن النبى ﷺ استنشد من شعر أمية بن أبى الصلت مائة بيت . وقال (إن كاد ليسلم) .

واستنشد من أبى بكر – رضى الله عنه شعر قس بن ساعدة :

فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر

وذكر الإمام الشافعى ضى الله عنه من أن (الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح) وكان من معجزات النبى ﷺ أنه لم ينظم الشعر ولم يخط بيمينه ﷺ قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : لا يكاد يجود شعر القرشى وذلك لأن الله تعالى قال لنبيه ﷺ ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ [يس : ٦٩] .

ولا يكاد يجود خط القرشى لأن النبى ﷺ ما كان يكتب بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٨] .

لقد كان الإمام الشافعى رضى الله عنه شاعرا فحلا ولكنه لم يسترسل فى الشعر لانشغاله الدائم بالكتاب والسنة والفقه والتشريع والمساجلات والمناظرات مع العلماء من هنا أو من هناك كما أنه كان يرى فى قرض الشعر للعالم مضيعة

لوقته ونقيصة فى حقه ولم يؤثر عنه من الشعر إلا ما نظمه فى الدين والفضائل والنطق بالحكمة وقول الحق ولم يكن للشعر أغراض أخرى - كسائر الشعراء - عند الإمام الشافعى رضى الله عنه وإليك نماذج من شعره تدل على شاعريته وصدق أحاسيسه رضى الله عنه قال:

ومنزلة السفيه من الفقيه ... كمنزلة الفقيه من السفيه
فهذا زاهد فى علم هذا ... وهذا أزهد منه فيه
إذا غلب الشقاء على سفيه ... تنطع فى مخالفة الفقيه

وقال أيضا:

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل ... خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يخفى عليه يغيب
غفلنا لعمر الله حتى تداركت ... علينا ذنوب بعدهن ذنوب
فياليت أن الله يغفر ما مضى ... ويأذن فى توباتنا فنتوب

وقال أيضا:

ليت الكلاب لنا كانت مجاورة ... وليتنا لا نرى ممن نرى أحدا
إن الكلاب لتهدى فى مواطنها ... والناس ليس بهاد شرهم أبدا
ففز بنفسك واستأنس بوحدتها ... تبق سعيدا إذا ما كنت منفردا

وقال الربيع بن سليمان رحمه الله تعالى: رأيت أشهب بن عبد العزيز ساجدا. وهو يقول فى سجوده:

(اللهم أمت الشافعى، وإلا لذهب علم مالك بن أنس).

فسمع الشافعى ذلك فتبسم، وأنشأ يقول:

تمنى رجـــال ان أمـــوت وإن أمت ... فتلك سـبيل لست فيـهـا بأوحـد
فقل للذى يبغى خلاف الذى مضى ... تهـيـأ لأخـرى مـثلهـا فكأن قـد
وقـد علمـوا لـو ينفع العلم عندهم ... لئن مت مـــا الداعى علىّ بمخلد
كل العـداوات قـد ترجى إمـاتتـهـا ... إلا عـداوة من عـاداك من حـسـد

وقال رحمه الله تعالى:

وذو حسد يغتابنى حيث لا يرى ... مكانى ويثنى صالحا حيث أسمع
تورعت ان اغــتـــابه من ورائه ... ومـا هو إذ يغـتـابنى مـتـورع

وقال رضى الله عنه:

نعـيـب زمـاننا والعـيب فـينا ... ومـا لزمـــاننا عـيب سـوانا
وقـد نهـجـو الزمان بغـيـر جـرم ... ولو نطق الزمـــان به هجـــانا
ديانتنا التصنـــع والتـــرائى ... فنحن به نخـــادع من يرانا
وليس الذئب يأكل لحم ذئب ... ويأكل بعـضنا بعـضـا عـيانا
لبـسنا للتـخـادع مـسك ضأن ... فـــويل للمـــعين إذا أتانا

وقال أيضا:

سأضرب فى طول البلاد وعرضها ... لأطلب علمـا أو أموت غـريبـا
فـإن تلفت نفـسى فلله درها ... وإن سلمت كان الرجوع قريبا

وقال أيضا:

احـفظ لسـانك أيهـا الإنسـان ... لا يلدغنّك إنه ثعـــبـــان
كم فى المقـابر من قـتـيل لسـانه ... قـد كـان هاب لقـاءه الأقـران

وكما كتب الشافعى رضى الله عنه الشعر فإنه كتب النثر أيضا فى إجادة وفصاحة نذكر منه هذه النماذج التى تدل على علو قدره فى اللغة وحسن بلاغته وفصاحته.

قال محمد بن عيسى الزاهد : بلغنى أن عبد الرحمن بن مهدى مات له ابن فجزع عليه جزعا شديدا حتى امتنع عن الطعام والشراب فبلغ ذلك الشافعى فكتب إليه : (بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد : فعز نفسك بما تعزى به غيرك . واستقبح من فعلك ما تستقبحه من فعل غيرك واعلم بأن أمعن المصائب فقدان سرور مع حرمان أجر فكيف إذا اجتمعا على اكتساب وزور وأقول :

إنى معزيك لا أنـى علـى ثقـة　　من الخلـود ولكـن سنـة الـدين

فما المعـزى بباق بعد صاحبـه　　ولا المعـزى وإن عاشـا إلى حين

وروى عنه أيضا قال :

العلم حر . وطالبه عبد فإن خدم العلم قبله العلم، وإن تجبر عليه العبد فالعلم أولى أن يتجبر عليه . ثم قال :

مـــا تم حلـم ولا علـم بـلا أدب　　ولا التـجاهل فى قـوم حليـمان

وما التجاهل إلا ثوب ذى دنس　　وليس يلبـســه إلا سـفـيـهـان

وقال الربيع : كتب الشافعى إلى رجل :

(إن الأفئدة مزارع الألسن فازرع الكلمة الكريمة . فإنها إن لم تنبت كلها نبت بعضها وإن من المنطق ما هو أشد من الصخر وأنفذ من الإبر وأمرَّ من الصبر وأدور من الرحى . وأحد من الأسنة – السيوف – وربما اغتفرت كثيرا على جوائب – حرارة – مخافة أن يكون أحر وأمر وأنكر) .

ومن أقواله أيضا :

(الكلام يقظة العقل والسكون نومه، فانظر كيف مراعاتك له فى يقظته ونومه) .

(العاقل من عَقَلَه . عَقْلُه عن كل مذموم) .

(لا يكمل المرء فى الدنيا إلا بخصال أربع : الديانة والصيانة والرزانة والأمانة) .

(للمروءة أربعة أركان : حسن الخلق والتواضع والسخاء والنسك) وهكذا

كان الإمام الشافعى رضى الله عنه من علماء العربية وآدابها وقد بذ أقرانه فى هذا الأمر وتلك فضيلة تضاف إلى فضائله الكثيرة والمتعددة والمتنوعة، واللغة العربية أداة أصلية من أدوات ومفاتيح كتاب الله وسنة نبيه ﷺ أى أن تعلم العربية أمر لازم لعلماء الأمة وعلى رأسهم الأئمة الأعلام.

فائـــدة :

لقد كان الإمام الشافعى رضى الله عنه على دراية وعلم واسع بعلوم وفنون: الطب والفلك والرمى والفراسة فقد كان له بهذه العلوم وتلك الفنون دراية تامة ومعرفة كاملة مما جعلنا نجزم فى يقين أن الإمام الشافعى رضى الله عنه كان موسوعة علمية متنوعة .

* * *

مسائل وألفاظ غريبة أجاب عنها الشافعى

لقد نقل عن الإمام الشافعى رضى الله عنه، أنهم سالوه عن بعض المسائل بألفاظ غريبة فأجاب عنها فى الحال، مما يدل على سعة علمه وقدرة تمكنه من اللغة العربية.

وقد ذكر بعضها الإمامان البيهقى والرازى فى المناقب ونقلها عنهما كثير من الذين كتبوا عنه. ونحن نذكر بعض هذه المسائل كما ذكرها الرازى [1] رحمه الله تعالى وهى:

فأحدها: قيل له: كم قرو أم فلاح؟ فأجاب على البديهة: من ابن ذكاء إلى أم شملة والمراد بالقرو: الوقت - وأم الفلاح: الفجر: وهو كنية الصلاة. والسؤال واقع عن مدة صلاة الفجر. وقول الشافعى: من ابن ذكاء: أى من وقت صلاة الصبح وهو كنيته. إلى أم شملة. وهى: كنية الشمس. أى إلى طلوع الشمس وهذا التفسير: منسوب إلى الخطابى.

(وهذا معناه: أن وقت صلاة الصبح: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس).

وثانيها: سئل: إذا نسى أبو دارس درسه قبل غيبة الغزالة بلحظة. ماذا يجب على أمة؟

فقال: عليها قضاء وظيفة العصرين.

قال السائل: بجناية جناها أبو دارس؟ قال الشافعى: لا بل كرامة استحقتها أمـه.

وتفسيره: أن نقول: أبو دارس: كنية فرج النساء.. والدرس: الحيض.

يقال: نسى درسه (الرحم) أى ترك حيضه والغزالة: الشمس والمراد بأم دارس المرأة. إذ أم الشئ أصله.

---

(١) مناقب الإمام الشافعى ٢٢٠ - ٢٢٢.

وحاصل السؤال: أنه إذا كان قد انقطع حيض المرأة قبل غروب الشمس. ماذا يجب عليها من الصلوات؟ أجاب: بالعصرين. وهو: أنه يجب عليها الظهر والعصر.

فإن قيل: كيف سمى الظهر عصرا؟.

قلنا: العرب قد يسمون أحد الشيئين باسم الآخر تغليبا كقولهم: سيرة العمرين.

والمراد: أبو بكر وعمر – رضى الله عنهما – وقال تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ [النساء: ١١].

والمراد: الاب والام. وقال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الاعراف: ٢٧] وقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠] والمراد: أبوه وخالته.

وفى الحديث: «البيعان كل واحد منهما بالخيار» (١).

وقال سلمان الفارسى – رضى الله عنه – (أحيوا ما بين العشاءين) أى المغرب والعشاء وقالت عائشة – رضى الله عنها – (لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ وما لنا طعام إلا الأسودان) أى التمر والماء.

وثالثها: سئل رضى الله عنه: فارس المعركة إذا قضي عليه أبو مضاء قبل أن يحمى الوطيس هل يستحق السهم؟ قال: نعم إذا أدرك الواقعة.

والوطيس: التنور. وقوله: حمى الوطيس. أى اشتد الحرب وأبو مضاء: كنية الفرس وقضى عليه. قتل.

وجواب الشافعي: معناه: إذا قتل على الفرس بعد قيام الحرب وحضور الواقعة.

ورابعها: سئل رضى الله عنه. هل تسمع شهادة الخالق؟.

قال: لا. ولا روايته، والخالق: الكاذب. قال الله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧].

---

(١) روى بمعناه أبو داود وروى الخمسة إلا ابن ماجه (البائع والمبتاع بالخيار حتى يتفرقا).

وخامسها: سئل: هل من وضوء على من خنقه الحتق. فاستشاط؟.

قال: لا يجب عليه الوضوء. والحتق: شدة الحقد. والاستشاطة: شدة الغضب.

وسادسها: سئل: إذا حضر ابن الذكاء والزوجان في الحركة هل يضر صومهما؟

فقال: إن نزع من غير مكث لم يضر وقوله: حضر ابن الذكاء يعنى: طلوع الفجر من هذا الذى أوردناه قد بان لنا كيف كانت مقدرة الإمام الشافعى رضى الله عنه فى تحصيل العلم وقدرته على الاستنتاج وتمكنه من اللغة العربية. يقول أبو منصور الأزهرى (ولا شك أنه – الشافعى – كان من عظماء العلماء فى علوم العربية.

وهذا أبو الحسن: على بن القاسم الخوافى صاحب كتاب «مختصر العين فى اللغة والنحو» يفتخر فى أشعاره بالشافعى فيقول:

تلقيت دينى عن قريش وهاشم	ومن بيته كان الحطيم وزمزما
ففزت بدين الهاشمى محمد	وبالعروة الوثقى التى لن تفصما
أدين بدين الشافعى وهديه	وأبرأ إلى الرحمن ممن تهجما

ولقد انتصر الإمام الزمخشرى صاحب الكشاف فى التفسير. للإمام الشافعى رضى الله عنه بالتقدم فى علم العربية. وعرض رأيه فى موضعين صحح فيها رأى الشافعى على رأى غيره وهما:

أولا: تفسير الشافعى لقوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا** ﴾.

وثانيهما: قوله تعالى: ﴿ **فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ** ﴾ فليراجع ذلك فى تفسير الكشاف فى سورتى النساء والمائدة.

وكان محمدا بن بنت الشافعى يقول:

أقام الشافعي على تعلم العربية وأيام الناس عشرين سنة . وقال : ما به إلا الاستعانة على الفقه .

وكان الشافعي يقول : أصحاب العربية . جن وإنس . يبصرون ما لا يبصره غيرهم وكان احمد بن حنبل يقول : الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء : (في اللغة . وأيام الناس والمعاني . والفقه) .

وروى ابن حجر العسقلاني : [1] : عن الربيع بن سليمان أنه كان يقول مرارا : لو رأيت الشافعي وحسن بيانه وفصاحته منه . ولو أنه ألف هذه الكتب على عربيته التي كان يتكلم بها معنا في المناظرة لم يقدر على قراءة كتبه لفصاحته وغرائب لفظه غير أنه كان في تأليفه يجتهد في أن يوضح للعوام» رضي الله عنه ورحمه رحمة واسعة .

* * *

---

(١) توالي التأسيس ١٧٦ .

الفصل السادس

الشافعي العابد الزاهد المتصوف

إن لله رجالا أحرارا عقلاء. نظروا إلى الدنيا نظرة فاحصة متأنية واعية فوقفوا على حقيقتها وعلموا أنها مصدر المتاعب والمشاق والقلق والحيرة فأعرضوا عنها ولم تغريهم بلذاتها وشهواتها فأعلنوا براءتهم منها، إنهم تركوا الدنيا وأقبلوا على ربهم معلنين خشوعهم وخضوعهم لله .

ووقفوا على بابه ملحين فى صبر وعزيمة ففتح الله لهم أبواب رضاه ومنحهم نعمه وضوانه ولسان الحال يقول: أهلا بكم يا عبادى لقد أخلصتم العبادة وأحسنتم العبادة فأنتم أهل محبتى ومعرفتى إنى أعددت لكم فى الجنان ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ورحم الله تعالى إمامنا الشافعى رضى الله عنه لقد كان ضمن قافلة التوحيد والإيمان فعبد ربه فى إحسان وزهد فى الدنيا فى صدق. وقال قوله المشهور «من ادعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها فى قلبه فقد كذب» وصدق الله العظيم ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٨].

لقد أحب الله تعالى وأحب نبيه المصطفى ﷺ ونذر نفسه لخدمة الإسلام والدعوة. حتى صار فارسا فى ميدان العلم والعلماء صادقا فى ميدان العبادة والزهد والتصوف.

روى أنه كان يقسم الليل أثلاثا ثلثا للعلم وثلثا للعبادة وثلثا للنوم وأما يومه فكان يقضيه بين العبادة ومدارسة العلم وتدريسه وكتابته أو ملائه على تلاميذه وأتباعه فأحبه الله تعالى وزع محبته فى قلوب العباد .

ولقد بلغ من تعظيمة لله تعالى أنه كان كما قال: (ما حلفت بالله تعالى لا صادقا ولا كاذبا).

وسئل عن مسألة فسكت، فقيل له: ألا تجيب رحمك الله؟

فقال: حتى أرى الفضل فى جوابى أم فى سكوتى ..!!

وكان من إجلاله لربه عز وجل أنه كان يعظم القرآن الكريم وروى عنه أنه كان يختمه مرة فى اليوم والليلة ولقد بلغ من إجلاله لمولاه أنه كان يؤخذ بالقرآن أخذا شديدا وسحر ببيانه وفصاحته وعظمته وعجيب نظمه وشرائعه. يقول رحمه الله تعالى فى سوة العصر «لو لم ينزل من القرآن سوى هذه السورة لكفت».

قال الإمام الغزالى رحمه الله تعالى: (التوحيد أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته إلى الأسباب والوسائل فلا يرى الخير والشر إلا منه. ومن ثمرة ذلك التوصل وترك شكاية الخلق وترك الغضب عليهم والرضا والتسليم لحكم الله تعالى) [1].

تلك كانت رؤية الشافعى رضى الله عنه. فكان إيمانه بالله عز وجل إيمانا يقينا خالصا بعيدا عن الشك والشرك. راضيا قانعا بما قسمه الله له:

روى عبد الله بن مروان قال: كان الشافعى يدعو بهذا الدعاء.

(اللهم امنن علينا بصفاء المعرفة وهب لنا تصحيح المعاملة فيما بيننا وبينك على السنة، وارزقنا صدق التوكل عليك وحسن الظن بك وامنن علينا بكل ما يقربنا إليك مقرونا بعوافى الدارين برحمتك يا أرحم الراحمين) وكان الشافعى رضى الله عنه يخاف ربه ويرهبه.

سمع الحارث بن لبيد يوما يقرأ قول الله تعالى: ﴿ **هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ * وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ** ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦] فتغير وجهه واقشعر جلده واضطرب اضطرابا شديدا وخر مغشيا عليه. فلما أفاق جعل يقول: (أعوذ بك من مقام الكاذبين وإعراض الغافلين اللهم خضعت لك قلوب العارفين وذلت لك رقاب المشتاقين إلهى هب لى جودك وجللنى بسترك واعف عنى تقصيرى بكرم وجهك) [2].

وكان رضى الله عنه على علم بأسرار القلوب وتقلباتها، سئل عن الرياء

---

(١) مفتاح الفلاح ص ١٣٩.

(٢) الروض الفائق ١٤٨.

فقال: (الرياء فتنة عقدها الهوى خيال أبصار قلوب العلماء فنظروا إليها بسوء اختيار النفوس فأحبطت أعمالهم).

وقال أيضا: (إذا أنت خفت على عملك العجب فانظر من تطلب؟ وفى أى ثواب ترغب ومن أى عقاب ترهب وأى عافية تشكر وأى بلاء تذكر فإنك إن تذكرت فى واحدة من هذه الخصال صغر فى عينيك عملك) فانظر كيف ذكر حقيقة الرياء وكيف بينها وكيف بين علاج العجب وهما من كبار آفات القلوب.

ولما كان خوفه من الله تعالى شديدا كان كذلك رجاؤه فى الله تعالى بنفس القدر.

جاءه رجل وقال له: إنى خائف من ذنوبى أن أقدم على ربى وليس لى من عمل غير التوحيد. فقال الإمام رضى الله عنه: يا مؤمن لو أراد الله تعالى أن يؤتيك من المسامحة لديه لما أحالك فى مغفرة الذنوب عليه حيث يقول ﴿**وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ [آل عمران: ١٣٥] ولو أراد عقوبتك فى جهنم لما ألهمك معرفتك به وتوحيدك له. ثم قال:

إن كنت تغدو فى الذنوب جليدا ... وتخاف يوم الميعاد وعيدا
فلقد أتاح من المهيمن عفوه ... وأباح من نعم عليك فريدا
لا تيأس من لطف ربك فى الحشى ... وبطن أمك مضغة ووليدا
لو شاء الله أن تصلى جهنم خالدا ... ما كان ألهم قلبك التوحيدا

فبكى الرجل وأقبل على العبادة وفرح بكلامه رضى الله عنه [١].

وروى عنه فى الإخلاص والصدق قوله:

– وددت أن الخلق تعلموا هذا على أن لا ينسب إلىَّ حرف منه.

– ما ناظرت أحدا قط على الغلبة ووددت إذا ناظرت أحدا أن يظهر الحق على يديه.

---

(١) الروض الفائق ١٤٨.

- من أراد أن يقضى الله تعالى له بالخير فليحسن الظن بالناس .

- ليس العلم ما حفظ . العلم ما نفع .

- وقال لابن عبد الأعلى يا أبا موسى : لو اجتهدت كل الجهد على أن ترضى الناس كلهم فلا سبيل إليه فإن كان كذلك فاخلص عملك ونيتك لله عز وجل .

ويقول داعيا لطلب العلم والفقه : (تفقه قبل أن ترأس فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه) .

أى أطلب العلم والفقه قبل أن يتقدم بك العمر ويذهب الشباب فإنه يفوتك الخير الكثير إن لم تفعل هذا فى شبابك . ولا تطلب الرئاسة قبل أن تحصل العلم والفقه حتى تحقق العدل والإنصاف .

كما قال فى الزهد وترك زينة الحياة الدنيا :

عليك بالزهد ، الزهد على الزاهد أحسن من الحلى على الناهد .

وقال يوصى تلميذه الربيع بن سليمان : يا ربيع لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها .

وقال المزنى - تلميذه - سمعت الشافعى رضى الله عنه يقول :

ليس لأحد إلا له محب ومبغض فإذا كان من ذلك فليكن المرء مع أهل طاعة الله عز وجل .

وروى أنه قال أيضا فى الزهد :

- خير الدنيا والآخرة فى خمس خصال : غنى النفس وكف الأذى وكسب الحلال ولبس التقوى والثقة بالله عز وجل على كل حال .

- من أحب أن يفتح الله قلبه ويرزقه العلم فعليه بالخلوة وقلة الأكل وترك مخالطة السفهاء وبعض أهل العلم الذين ليس معهم إنصاف ولا أدب وقال : أنفع الذخائر التقوى وأخذها العدوان .

وقال : أفضل الأعمال ثلاثة : ذكر الله ومواساة الإخوان وإنصاف الناس على نفسك ولقد أيده ربنا عز وجل بالكرامة لولايته وحسن عبادته .

دخل عليه بعض أصحابه عند احتضاره فقال: أما أنت يا أبا يعقوب فتموت فى قيودك وأما أنت يا مزنى فيكون لك بمصر هنات وهنات. وأما أنت يا ابن عبد الحكم فترجع إلى مذهب أبيك - المذهب المالكى - وأنت يا ربيع أنفعهم فى نشر الكتب فكان كما قال رضى الله عنه.

وصدق رضى الله عنه فى قوله: (لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح ولكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح يقول رحمه الله تعالى:

لقد شكوت إلى وكيع سوء حفظى　　فأرشدنى إلى ترك المعاصى

وأخبرنى بأن العلم نور　　ونور الله لا يهدى لعاصى

لقد كان الشافعى رضى الله عنه يعيش فى عصر كانت الحركة الصوفية فيه على أشدها ولم يرد عليهم الإمام مقولتهم ولم يعترض على مناهجهم بل إنه كان يقول بأقوالهم ويتعبد بمثل مناهجهم وهذا معناه أنه كان رضى الله عنه راضيا عنهم ومقرا لهم على أفعالهم ومجاهداتهم وأذكارهم وروى عنه رضى الله عنه أنه قال: (إذا لم يكن العلماء هم الأولياء فمن يكونون إذا) لقد وقعت محبته فى قلوب الناس على مر العصور وفى شتى البلدان الإسلامية لأنه أحب الله ورسوله ﷺ فأحبه الله ورسوله لذلك زرع الله محبته فى قلوب عباده.

وكان من دعائه رضى الله عنه: اللهم إنى أعوذ بنور قدسك وعظمة طهارتك وبركة جلالك من كل آفة وعاهة وطارق من الإنس والجن إلا طارقا يطرق بخير اللهم أنت عياذى فبك أعوذ وأنت ملاذى فبك ألوذ يا من ذلت له رقاب الجبابرة وخضعت له أعناق الفراعنة أعوذ بجلالك وكرمك من خزيك وكشف سترك ونسيان ذكرك والإنصراف عن شكرك أنا فى كنفك ليلى ونهارى ونومى وقرارى وظعنى وأسفارى ذكرك شعارى وثناؤك دثارى لا إله إلا أنت تنزيها لأسمائك وتكريما لسبحات وجهك أجرنى من خزيك ومن شر عبادك وقنى سيئات مكرك واضرب على سرادقات حفظك وأدخلنى فى حفظ عنايتك يا أرحم الراحمين وسمع الشافعى يوما رجلا يقرأ قوله تعالى: ﴿**هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ**

* ﴿وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] فتغير لونه واقشعر جلده واضطربت مفاصله وخر مغشيا عليه. فلما أفاق قال: أعوذ بك من مقام الكذابين وإعراض الغافلين اللهم خضعت لك قلوب العارفين. وذلت لهيبتك نفوس المشتاقين إلهى هب لى جودك وجللنى بسترك واعف عنى فى تقصيرى بكرمك. أ . هـ.

قال محمد بن عبد الله البكرى: كنت مع الإمام الشافعى رضى الله عنه بشط بغداد فرأى شابا يتوضأ ولا يحسن الوضوء فقال له: يا غلام أحسن وضوءك أحسن الله إليك فى الدنيا والآخرة ثم مضى فأسرع الشاب فى وضوئه ثم لحق الإمام الشافعى ولم يعرفه فالتفت إليه الإمام وقال: هل لك من حاجة؟ قال: نعم علمنى مما علمك الله فقال له: اعلم أن من عرف الله نجا ومن أشفق على دينه سلم من الردى ومن زهد فى الدنيا قرت عيناه بما يرى من ثواب الله غدا أفلا أزيدك؟ قال: بلى قال: من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الإيمان من أمر بالمعروف وائتمر به ونهى عن المنكر وانتهى عنه وحافظ على حدود الله تعالى. قال: أفلا أزيدك قال: بلى. قال: كن فى الدنيا زاهدا وفى الآخرة راغبا واصدق الله تعالى فى جميع أمورك تنج مع الناجين. ثم مضى فسأل عنه الشباب. فقيل له: هذا الإمام الشافعى رضى الله عنه أ.هـ.

روى أن النبى ﷺ قال: (حبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرة عينى فى الصلاة) - رواه النسائى والحاكم -.

وقال أبو بكر رضى الله عنه: وأنا حبب إلى من دنياكم ثلاث: الجلوس بين يديك؛ وإنفاق مالى عليك. والصلاة عليك.

وقال فى (الرياض النضرة) قالت عائشة رضى الله عنها: أنفق أبو بكر على النبى ﷺ أربعين ألفا.

وقال عمر رضى الله عنه: وأنا حبب إلى من دنياكم ثلاث: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الحدود.

وقال عثمان رضى الله عنه وأنا حبب إلى من دنياكم ثلاث: إطعام الطعام وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام.

وقال على رضى الله عنه: وأنا حبب إلى من دنياكم ثلاث: الضرب بالسيف وإقراء الضيف والصوم فى الصيف.

فنزل جبريل - عليه السلام - وقال: يا نبى الله وأنا حبب إلى من دنياكم ثلاث: النزول على النبيين وتبليغ الرسالة للمرسلين والحمد لله رب العالمين.

ثم قال: إن الله تعالى يقول: وأنا حبب إلى من دنياكم ثلاث:

لسان ذاكر. وقلب شاكر. وجسد على البلاء صابر.

فالعامل بهذا كله من علامات المحبة لمن أراد الدخول فى قوله ﷺ: «من أحبنى كان معى فى الجنة».

ثم قال: ولما وصل هذا الحديث إلى الأئمة الأربعة قال الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه وأنا حبب إلى من دنياكم ثلاث: تحصيل العلم فى طول الليالى وترك الترفع والتعالى وقلب من حب الدنيا خالى.

وقال الإمام مالك ضى الله عنه وأنا حبب إلى من دنياكم ثلاث: مجاورة روضته ﷺ وملازمة تربيته وتعظيم أهل بيته.

وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه وأنا حبب إلى من دنياكم ثلاث: الخلق بالتلطف وترك ما يؤدى إلى التكلف والاقتداء بطريق التصوف.

وقال الإمام أحمد رضى الله عنه وأنا حبب إلى من دنياكم ثلاث: متابعة النبى ﷺ فى أخباره والتبرك بأنواره وسلوك طريق آثاره [1]. ا.هـ.

وقد كان الإمام الشافعى رضى الله عنه زاهدا ورعا تقيا مجتهدا فى طاعة ربه عز وجل، قال حسين الكرابيسى: بت مع الشافعى نحو ثمانين ليلة فكان يصلى نحو ثلث الليل وما رأيته يزيد على خمسين آية. وإذا أكثر فمائة. وكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل الله تعالى لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات ولا يمر بآية عذاب إلا تعوذ بالله منها وسأل النجاة لنفسه ولجميع المؤمنين والمؤمنات أجمعين فكأنه جمع فيه الخوف والرجاء معا وهو بهذا كان مقتديا برسول الله ﷺ فقد روى أنه

---

(١) نزهة المجالس ص ٧٧، ٨٨.

كان يقوم بذلك وقال الربيع بن سليمان رحمه الله تعالى : كان الشافعى قد جعل الليل أثلاثا : فى الأول يكتب وفى الثانى : ينام وفى الثالث : يصلى .

وقال الحميدى : كان الشافعى يختم فى شهر ثلاثين ختمة وفى شهر رمضان ستين ختمة سوى ما يقرأ فى الصلاة ولما اشتد مرضه ثقبوا السرير ووضعوا تحته طشتا فقال يوما : اللهم إن كان لك فى ضرى فزد فبعث إليه إدريس بن يحيى المعافرى وكان من الزهاد فقال : لست من رجال البلاء . فاسأل الله العافية .

وعن الحارث بن مسكين أنه قال : ما زال فى نفسى شئ من الشافعى حتى بلغنى أنه سئل عن الكفاءة ؟ فقال : الكفاءة فى الدين لا فى الحسب فعلمت أنه لم يصل إلى تلك الدرجة إلا ببركة الدين .

وقال البيهقى رحمه الله تعالى : وإنما أراد به الكفاءة التى يفسخ بسبب عدمها النكاح . وهى إسلام الزوج أما عدم الكفاءة فى النسب : فإن المرأة والولى إذا رضيا به . صح النكاح .

قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : ما كذبت . ولا حلفت بالله لا صادقا ولا كاذبا .

وقال أيضا : ما شبعت منذ عشرين سنة .

قال البيهقى : لان الشبع يورث القسوة . ويقلل الفهم وكان لا يتطيب فى موضع النكهة بماء الورد لأنه يشبه المسكر .

وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم : جلسنا يوما نتذاكر أمر الزهاد والعباد حتى ذكرنا ذا النون – المصرى – فبينا نحن كذلك إذ دخل علينا عمر بن نباتة فسألنا عما كنا فيه . فقلنا : كنا فى أمر الزهاد حتى ذكرنا ذا النون . فقال :

والله ما رأيت رجلا أفصح ولا أورع من الشافعى : محمد بن إدريس . خرجت أنا وهو والحارث بن لبيد إلى الصفا فافتتح الحارث وكان غلاما لصالح المرى . فقرأ :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ ﴾

[المرسلات : ٣٨]

فرأيت الشافعي . قد اضطرب وبكى بكاء شديدا ثم قال : إلهي أعوذ بك من مقام الكذابين وإعراض الغافلين إلهي خضعت لك قلوب العارفين وولهت بك قلوب المشتاقين إلهي هب لي ودك وجللني بسترك واعف عني بكرم وجهك يا أرحم الراحمين .

قال : ثم خرجت إليه وهو بالعراق لأسمع منه شيئا فبينا أنا قاعد على الشط أتهيأ للوضوء إذ مر بي رجل فقال : يا غلام أحسن وضوءك أحسن الله إليك فقفزت أثره فقال : يا غلام : إن من صدق الله نجا ومن أشفق على دينه سلم من الردى . ومن زهد في الدنيا قرت عيناه فيما يرى من ثواب الله غدا .

ثم قال : كن في الدنيا صادقا وفي الآخرة راغبا . واصدق الله في جميع أمورك تنج بها مع الناجين غدا . . فسألت عنه فقالوا : هذا محمد بن إدريس الشافعي .

ومات واحد . فقال الشافعي داعيا ربه عز وجل : اللهم بغناك عنه وبفقره إليك فارحمه ، ولقد كان الإمام الشافعي رضي الله عنه كريما في سخاء جوادا في رضى وكان يقول : (الكرم يغطي عيوب الدنيا والآخرة) .

وحكى الربيع بن سليمان عن الشافعي قال : جاء العبد وما عندي نفقة فقال لي : أهلي : عودت قومك ان تصلهم فلو استسلفت شيئا فاستسلفت سبيعن دينارا فتركت عشرين دينارا وفرقت الباقي فبينا أنا كذلك إذا أتاني رجل من رجال قريش يشكو الحاجة فأخبرته بخبري وقدمت إليه العشرين وقلت له : خذ ما تحب قال : ما ينفعني إلا أكثر من ذلك فقلت له : خذها فأخذها وبت وما معي دينار ولا درهم فبينا أنا في منزلي . إذا أتاني رجل من قريش وهو رسول من جعفر بن يحيي البرمكي ، وقال : أجب . فأجبته . فقال : ما شانك في هذه الليلة؟ فإني كلما نمت هتف بي هاتف يقول : الشافعي الشافعي فأخبرني عن حالك . فأخبرته . فأعطاني : خمسمائة دينار . ثم قال : أزيدك وأعطاني خمسمائة دينار أخرى ثم لم يزل يزيدني حتى أعطاني ألفي دينار .

وقال: رحمه الله تعالى: (من لا يحب العلم فلا خير له. ولا ينبغى أن تكون بينك وبينه معرفة) وكان رضى الله عنه شديد الرغبة فى محبة رسول الله ﷺ والاقتداء بسنته عليه الصلاة والسلام فكان يقول: (كل حديث صح عن رسول الله ﷺ فإنى أقول به وإن لم يبلغنى).

ويقول أيضا: (إذا وجدتم سنة عن رسول الله ﷺ خلاف قولى فخذوا بالسنة ودعوا قولى. فإنى أقول بها).

وكان الربيع يقول: لو رأيت الشافعي لا ستحييت أن تنظر إليه من هيبته وجلاله ووقاره.

قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤] الله سبحانه وتعالى يكرم أولياءه فى الدنيا وفى الآخرة يبشرهم بالكرامة فى الدنيا وبالنعيم المقيم فى الدار الآخرة ولقد أظهر الله تعالى الكرامة على يد الإمام الشافعي رضى الله عنه مما يدل على ولايته وصدقه فى عبادة ربه عز وجل.

قال الربيع بن سليمان: لما خرج الشافعي إلى مصر وأنا معه كتب كتابا وقال: يا ربيع خذ كتابى هذا وامض به إلى أبى عبد الله: أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى - وائتنى بالجواب.

قال الربيع: فدخلت بغداد ومعى الكتاب فلقيت أحمد بن حنبل فى صلاة الصبح فصليت معه الفجر فلما انتقل من المحراب: سلمت عليه وناولته الكتاب وقلت: هذا كتاب أخيك الشافعي من مصر فقال أحمد: نظرت فيه؟.

فقلت: لا. ففك أحمد الختم وقرأ الكتاب فتغرغرت عيناه بالدموع.. فقلت له: أى شئ فيه؟ فقال: يذكر فيه: أنه رأى النبى ﷺ فى النوم فقال له: اكتب إلى أبى عبد الله: أحمد بن حنبل، واقرأ عليه منى السلام وقل له: إنك ستمتحن وتدعى إلى القول: بخلق القرآن فلا تجبهم فسيرفع الله لك علما إلى يوم القيامة.

قال الربيع: فقلت: البشارة. فخلع قميصه الذى كان على جلده ودفعه إلىَّ فأخذته وأخذت جواب الكتاب وخرجت إلى مصر وسلمت الكتاب إلى الشافعى. فقال: يا ربيع أى شئ هذا الذى دفعه إليك؟.

قلت: القميص الذى على جلده. فقال الشافعى: لا نفجعك به ولكن بلَّه وادفع إلىَّ الماء حتى أكون شريكا لك فيه.

فهذه رؤيا حق لأن رؤيا الرسول ﷺ فى النوم رؤيا حق: (من رآنى فى المنام فقد رآنى حقا فإن الشيطان لا يتمثل بى).

كما أنها كرامة صادقة وبشرى للشافعى وأحمد كليهما من الله سبحانه وتعالى مما يدل على صحة ولايتهما وحسن تقواهما جزاهما الله عن الإسلام خير الجزاء.

* * *

خاتمة

فقيه مصر وعالمها

إن مصر بتاريخها الطويل العظيم أحبت العلم والعلماء وظل أهل مصر فى شتى العصور يكرمون العلماء ويشيدون بالعظماء منهم مهما اختلفت اتجاهاتهم وتباينت توجهاتهم. لأن أهل مصر - خاصة - ما عرفوا يوما لغة التعصب لدين أو لعرق فهم يتصفون دائما بالطيبة واللين والتسامح. وترجع أسباب ذلك إلى تاريخها الدينى الطويل وإلى حضارتها العظيمة الضاربة جذورها فى أعماق التاريخ وإلى انتشار أبنائها حول نيلها العظيم الذى تعلموا منه لغة الهدوء والسكينة وشربوا من مياهه شراب الحب والطهر والود والتعاون والتآخى والكرم.

إن مصر برصيدها الهائل ومداخراتها القيمة قد حرمت على أبنائها الاشتراك فى أى صراعات قد يقوم بها نفر قليل فى الداخل أو يشتغل بها بعض سكان جارتها.

وفى ظل الدولة الإسلامية لم تشترك مصر فى الصراعات والخلافات التى دارت على أرض شبه الجزيرة العربية منذ عصر الصحابة رضى الله عنهم إلى يومنا هذا ولكنها كانت الصدر الحنون لمهاجرى المسلمين إليها خاصة أهل بيت النبوة من الرجال والسيدات علماء وغير علماء فاستقبلهم أهل مصر بالترحيب والإجلال والإكرام فعاشوا على أرضها تحوطهم عناية الله ورعايته وهم مشمولون بحب أهل مصر وحنانهم ثم ضم أجسادهم الطاهرة ثرى مصر التى تطيبت بأجسادهم ورفاتهم رضى الله عنهم وأرضاهم. وها هى مساجدهم بمآذنها التى تعلو فى سماء مصر يؤمها الزائرون من كل فج عميق يتبركون بالعترة الطاهرة ويتوسلون بهم إلى الله تعالى ليستجيب منهم الدعاء ويتولاهم برحمته إنه سميع مجيب. ولقد طاف الإمام الشافعى بكبريات البلاد الإسلامية حتى انتهى به المطاف إلى مصر فوجد فى مصر أتباع الإمامين أبى حنيفة ومالك رضى الله

عنهما. وأخذ الشافعى رضى الله عنه يلقى دروسه فى مسجد عمرو بن العاص رضى الله عنه والتف حوله التلاميذ والاتباع حتى أن بعض أتباع المذاهب الأخرى تركوا ما هم عليه وجلسوا إلى الشافعى يستمعون ويكتبون حتى انتشر أمره وذاع صيته واستحسن الناس طريقته. ثم أخذ يعيد النظر فيما كتبه بالعراق. وفى مصر غير بعض أرائه التى كان قد بثها بالعراق. فاملى كتبه الجديدة وأعاد صياغة بعض كتبه القديمة وذاع خبره فى أرجاء مصر وكثر التلاميذ والأعوان مما أثار عليه حقد البعض حتى أن بعض علماء المالكية كان يدعو عليه أن يميته الله عز وجل منهم أشهب بن عبد العزيز المالكى وعيسى بن المنكدر ووشى به البعض عند حاكم مصر «السرى بن الحكم» وطلبوا منه أن يطرده من مصر وقد كاد أن يحدث ذلك لولا أن الله تعالى قد أمات الحاكم بعد ثلاثة أيام.

وفى مصر الكريمة النفى سيدنا الإمام بكريمة الدارين نفيسة العلوم والمعارف رضى الله عنها وهى من أبناء عمومته فاستمع منها وأخذت عنه وقالوا إنه كان يؤمها فى صلاة التراويح فى شهر رمضان حتى لقى ربه عز وجل وهى عنه راضية وجئ بجثمانه إليها فصلت عليه صلاة الجنازة خلف أبى يعقوب البويطى. ثم قالت: رحم الله الشافعى قد كان رجلا يحسن الوضوء.

ومعلوم أن الوضوء هو مدخل العبادة وهو فعل ما تستباح به الصلاة والطواف ومس المصحف وحمله وهكذا يقترن اسم الإمام الشافعى رضى الله عنه فى مصر بتدريس فقه الكتاب والسنة خصوصا وبتدريس العلم عموما وبالمدرسة المتخصصة للتعليم لأول مرة فى تاريخ الإسلام بمصر.

لقد ناصر الشافعى السنة فى مصر كما رفع شأنها من قبل فى بلاد الحجاز واليمن والعراق وقد بين للناس أن السنة موضحة للقرآن ومبينة له ولولاها ما استطعنا أن نتعرف على أحكام الله عز وجل. قال الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى: «ولو أن امرءا قال: لا نأخذ إلا ما وجدنا فى القرآن لكان كافرا بإجماع الأمة ولكان. لا يلزمه إلا ركعة ما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل وأخرى عند الفجر لأن ذلك أقل ما يقع عليه اسم صلاة ولا حد للأكثر فى ذلك.

ويقول: ولو أن امرءا لا يأخذ إلا بما اجتمعت عليه الأمة فقط أو يترك كل ما اختلفوا فيه مما جاءت فيه النصوص لكان فاسقا بإجماع الأمة».

فالعمل بالسنة أمر حتمي وضرورة شرعية كما قرر الإمام الشافعي في كتابه «الرسالة» كما ذكرنا سلفا والسنة عند الشافعي لا تأتي بحكم ليس له أصل في القرآن فهو مصدر الشريعة وهي مبينة لها. وكما يقول الشافعي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: (فما أحل وحرم فإنما بين عن الله كما بين الصلاة).

ورأى الشافعي: أن النسخ يكون في الكتاب ويكون في السنة. وأن القرآن ينسخه القرآن ولا يمكن أن تنسخ السنة حكم القرآن لأنه لا ينسخ كتاب الله إلا كتابه كما كان المبتدئ لفرضه فهو المزيل المثبت لما شاء منه. جل ثناؤه ولا يكون ذلك لأحد من خلقه).

ورأى أن السنة تبين نسخ القرآن كما تبين القرآن ويرى أن السنة تنسخها السنة حتى أن القرآن لا ينسخها إلا ببيان من السنة ذاتها لأنها مبينة للقرآن دائما وأولى أن يظهر ما ينسخ من السنن بسنن أخرى. ولو خالف نص القرآن سنة. دون أن تجاريه سنة جديدة لعمل بنص القرآن.

ولقد بينت السنة دائما النسخ الذي وقع في الكتاب أو في السنن. يقول الإمام الشافعي: ولو نسخ الله حكما مما قال. لسن رسول الله - ﷺ - فيما نسخه سنة ولو جاز أن يقال قدسن رسول الله - ﷺ - سنة ثم نسخ سنته بالقرآن ولا يؤثر عن رسول الله السنة الناسخة جاز أن يقال فيما حرم رسول الله من البيوع كلها قد يحتمل أن يكون حرمها قبل أن ينزل عليه ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ وفيمن رجم من الزناة قد يحتمل أن يكون الرجم منسوخا لقول الله ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾.

وجاز أن يقال «ولجاز رد كل حديث عن رسول الله ﷺ بأن يقال إذا لم يجده مثل التنزيل ..» ولو لا وضوح البيان في النسخ لوقع شر مستطير [1]. ا.هـ.

لقد عاب أمير المؤمنين: علي بن أبي طالب رضي الله عنه على رجل رآه

---

(١) الإمام الشافعي الجندي بتصرف ٣٣٥، ٣٣٦.

بالمسجد الجامع بالكوفة وهو يحدث الناس ويخلط الأمر بالنهى والإباحة بالحظر فقال له : أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال : لا . قال هلكت وأهلكت . وتقول بعض الروايات : إنه طرده من المسجد .

ولقد نقض الشافعى القول بوجوب تواتر السنة لتكون حجة وبين أن الحديث إذا ما ثبت صحة وروده عن رسول الله ﷺ متواترا أو أحادا – فإنه يجب العمل به .

لذلك أحبه المصريون أيضا ولقبوه بناصر السنة مثل ما قال اليمنيون والحجازيون والعراقيون هذا : وقد انتسب إلى المذهب الشافعى الكثير من العلماء الأعلام والوجهاء الأفذاذ من المحققين ومن بلغ حد الاجتهاد . وهذا إن دل على شئ فإنه إنما يدل على سلامة منهج الإمام الشافعى رضى الله عنه والرضا بطريقته الأصولية القائمة على الكتاب والسنة وهو يعد عند المصريين من كبار أئمتهم وأستاذ علمائهم .

وقد تحققت نبوءة الرسول ﷺ (يخرج فيكم عالم قريش يملأ طباق الأرض علما) .

ويقول الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه (ما من أحد مس محبرة إلا وللشافعى عليه منة) .

فيا علماء الأمّة : هلا كان لكم فى الإمام الشافعى رضى الله عنه الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة لم تأخذه فى الله لومة لائم ولم يهزه اعتراض معترض . لم يجامل فى الفتوى ولم يتبع النفس والهوى وإنما طلب العلم لله ودرسه وأملاه لله وهاجر فى طلبه لله فرفع الله له شانه وأشاع أمره وأكثر أتباعه إلى يومنا هذا .

رحم الله الشافعى ورضى عنه وجزاه عن أمة محمد ﷺ خير الجزاء .

والله ولى التوفيق . . .

أهم المراجـــع

١ – القرآن الكريم – وتفسير الرازى والقرطبى.
٢– كتب السنن والمسانيد والموطأ وفتح البارى
٣ – مؤلفات الإمام الشافعى:
– الأم.
– الرسالة.
– مختصر المزنى.
– المسند.
– السنن
– مختلف الحديث.
– جماع العلم.
– ابطال الاستحسان.
٤ – مؤلفات الإمام البيهقى:
– معرفة السنن والآثار.
– بيان خطأ من أخطأ على الشافعى.
– مناقب الشافعى.
– الارشاد فى الاعتقاد.
– أحكام القرآن.
٥ – مناقب الإمام الشافعى – الفخر الرازى.
٦ – توالى التأسيس – ابن حجر العسقلانى.
٧ – تهذيب التهذيب – الإمام النووى.

٨ – طبقات الشافعية – الإمام السبكى.

٩ – نور الأبصار – الشيخ سيد الشبلنجى.

١٠ – الإمام الشافعى – الشيخ محمد أبو زهرة.

١١ – أصول الفقه – الشيخ محمد أبو زهرة.

١٢ – الفكر السامى فى تاريخ الفقة الإسلامى – محمد بن الحسن الحجوى الثعالبى الفاسى.

١٣ – تاريخ التشريع الإسلامى – محمد الخضرى.

١٤ – منهج الإمام الشافعى فى إثبات العقيدة – د. محمد العقيل.

١٥ – الإمام أحمد بن حنبل – رمضان عصفور.

١٦ – الدر النفيسة فى مناقب السيدة نفيسة – رمضان عصفور.

١٧ – مفتاح الجنة فى الاحتجاج بالسنة – جلال الدين السيوطى.

١٨ – الشريعة – الآجرى.

١٩ – اعلام الموقعين – ابن القيم الجوزية.

٢٠ – السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى – د. مصطفى السباعى.

* * *

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

* * *

رقم الايداع: ١٠٦٦٣ / ٢٠٠٠